مركز حضرموت
للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر
HADHRAMUT CENTRE
FOR HISTORICAL STUDIES DOCUMENTATION AND PUPLICATIN

حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah

مجلة فصلية - السنة العاشرة - العدد (39)
شوال 1447هـ- MARSH 2026

وادي المرشح بحجر..

رحلة عبر بوابة حضرموت الغربية إلى ما قبل الإسلام..

أ. محمد عوض محروس رحمه الله

(١٩٤٨م- ٢٠٢٤م)

من مواليد الديس الشرقية- حضرموت

إداري وكاتب ومؤرخ.

من أبرز مؤلفاته:

- في صفة بلاد الجنوب حضرموت ويمنت.
- حضرموت والجوار القبلي.
- سياحة مع الأمثال الحضرمية.
- لهجة حضرموت.

الكتابة المنفعلة
حين تتحول الكلمات إلى استعباد ذهني

أ. د. عبدالقادر علي باعيسى

ثمة تداخل وتعقيد في التعبيرات والكتابات المنتشرة اليوم، تفوق مجريات الواقع مما يحدث نوعا من التضخيم والتشويش. ولذا فمن المهم المزاوجة بين الفكرة والعاطفة لا سيما في الكتابة السياسية إذ إن الإيحاءات التي تنقلها كثير من الكتابات تتجاوز ما يدور على أرض الواقع. ومع وسائل التواصل الاجتماعي تكثر الدفقات المشحونة بالانفعال، حتى ليغوص القارئ في متاهات من الإشكالات الذهنية والنفسية الملتوية التي تكتسب لدى كل كاتب طابعًا خاصًا.

وكل يدعي لنفسه البطولة على مستوى الخطاب، ويدعي التميز الذي يعني استصغار الآخرين وآراءهم، ومن ثم ضرورة خضوعهم وتصديقهم بما يطرحه عليهم، وكأن عليهم الالتزام بحرفية ما يقول، وهذا ضرب من الاستعباد غير المرئي، لا سيما في ظل أوضاع سياسية واجتماعية، مما يؤدي إلى بلبلة الأفكار والمواقف في مزيج يومي من التعكر ينتج عنه حالات فعل شديدة الاندفاع العاطفي، تتصف بسمة ضيقة من الذاتيات، وكأن التجسيد الأوفى لتلك الإفادات يتمظهر في تلك الاتجاهات الكتابية المضطربة التي تنتشر بشكل يرهق ذهنية القارئ العادي ويتعب وعي الناس.

إن العاطفة حين تدخل المجال السياسي عبر هذه الكتابات المنفلتة يصير معها الانفعال غاية في ذاته. فداخل الاتجاه الواحد نلاحظ (ثورات) كتابية جزئية متعددة حيث يستغل حق التعبير استغلالا يحتاج إلى كثير من الترشيد والتوجيه، وكثير من تلك الكتابات بدائي اللغة ومليء بالسباب والشتم.

إن الخروج إلى تنوع الأفكار شيء جيد، ولكن تداخلها عشوائيا للخروج بنتيجة بلا معنى يشكل خطرا يكون معه القراء واقعين في أسر هذه الكتابات لا في فضاء الحرية التي لا تمنح لهم بقدر ما تمنح الفوضى وتتيح لهم أن يتحولوا إلى حالة من الفضاضة والفظاظة القاسية تحت وهم الحرية.

ويحدث أن يتم ترديد مثل هذه الكتابات وأفكارها حرفيا عن طريق (النسخ واللصق) بدون انتقاء أو تمحيص فتتحول إلى سبب للبلادة الذهنية والوعي المشوش. ومن هنا تبرز هذه الكتابات والأقوال كعناصر غايتها البروز والظهور في وضع من عدم الانتظام، فلا شيء غير اللهاث المستمر وراء هذه الكيفية المضطربة كأن كينونة الكتابة السياسية هو هذا السيلان المستمر مما يتولد عنه موضوع خبرة جديدة لا يعرف فيه الكاتبون ما يفكرون فيه بشكل دقيق.

وثائق تاريخية 10
د. عبدالله الجعيدي

وادي الخرش بحجر 13
محمد عمر كرامان

عفيف الكندي 24
علي باهادي

ساحة القصر السلطاني والدور التنويري 28
عبدالقادر بصعر

الدان في الملحون الحضرمي 31
د. محمد بن هاوي باوزير

العمارة والأسطورة 40
قرية هود نموذجا . ج2 الأخير
محمد سالم مصيباح

النادي الإصلاحي بثبي 50
صالح عصبان

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية
السنة العاشرة - العدد (39)
يناير – مارس 2026
تصدر عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رئيس مجلس الإدارة
الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام
ا.د عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي

رئيس التحرير
أ.د عبدالقادر علي باعيسى

السكرتير الفني
م. سالم عمر عاصم

التدقيق اللغوي
أ.د جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية
أ.د عبدالله حسين البار
أ.د عبدالله صالح بابعير
أ.د ناجي جعفر الكثيري
أ.د مسعود سعيد عمشوش
أ.د خالد يسلم بلخشر
أ.د صادق عمر رمكنون
أ.د أحمد سعيد عبيدون
د. حسن صالح الغلام العمودي
د. طه حسين الحضرمي

- المواضع المنشورة تعبر عن أراء أصحابها ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة
- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تستلمها للنشر سواءًا نشرت أم لم تنشر ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخط اليد .
- ترتيب المواد يتم وفق ضرورات فنية إخراجية

مراسلات المجلة
info@hadramout.center
موقعنا على الشبكة الالكترونية
www.hadramout.center
العنوان: المكلا – حي الشهيد (معهد باشريف سابقًا) ت 350135

53 قراءة في ديوان في داخلي فوضى لصالح باظفاري
د.ثريا بن مسمية- تونس

57 باحريز أمير الشعر الشعبي الحلقة 4
د. عبدالعزيز الصيغ

64 السيدة فطوم العيدروس الحلقة الأخيرة
شكري مرسال

66 عن الديوان الموسوم بشير القوافل
صالح عمير

71 الماضي الثقافي لحضرموت
ميخائيل دريانوف
ترجمة د. مراد باعلوي

78 حضرموت الرياضة والطلب بين سقاف وعبدالرب
غالب الحامد

84 الضليعة
يوسف عمر باسنبل

97 ـ قبلة المشتاق
يعقوب باسعد

98 ـ البراق
د. أبوبكر الحامد.

100 أنثى
أماني الحيمي

103 الدمعة التي لم تسقط
أثير باعيسى

104 صوت لم يسمعه أحد
وردة بلسود

110 ذكرى أم
د. أحمد الجذع

102 إلى سرك الغامض
إيناس

111 هناك ينامون
صالح بحرق

112 مركز حضرموت .. مولود استثنائي
عوض سالم ربيع

6
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

تحت رعاية محافظ حضرموت.. انطلاق أعمال المؤتمر السابع (المدن والبلدات الحضرمية: التاريخ، الحاضر، المستقبل)

إعلام المركز | خاص

برعاية محافظ محافظة حضرموت رئيس السلطة المحلية الأستاذ سالم الخنبشي وبشراكة استراتيجية مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، انطلقت أعمال المؤتمر العلمي السابع (المدن والبلدات الحضرمية: التاريخ، الحاضر، المستقبل) يومي ٢٤ و ٢٥ ديسمبر ٢٠٢٥م وسط حضور أكاديمي ورسمي رفيع.

حيث بدأ المؤتمر بكلمة رئاسة المؤتمر ألقاها أ.د عبدالله سعيد الجعيدي رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية عنه ونيابة عن أ.د محمد بارشيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حضرموت، و أ.د عبدالله بابعير نائب رئيس جامعة حضرموت للشؤون الأكاديمية.

وقد شهد المؤتمر مشاركة واسعة تمثلت بمشاركة نوعية من ٤٣ باحثا وباحثة من الأكاديميين والمتخصصين من داخل حضرموت وخارجها، ويهدف المؤتمر إلى تسليط الضوء على الإرث الحضاري والمعماري للمدن الحضرمية، ودراسة واقعها الراهن، ووضع رؤى استشرافية لمستقبلها في ظل التحديات المعاصرة.

واستمر المؤتمر على مدى يومين حيث تم استعراض أوراق العمل ومناقشتها في جلسات علنية، تخلص في نهايتها إلى حزمة من التوصيات العلمية لرفعها إلى الجهات ذات العلاقة لضمان استدامة المدن والبلدات الحضرمية وحمايتها، ونال المؤتمر أصداء إعلامية كبيرة بين التلفزيون والإذاعة والصحف والمواقع الإلكترونية.

واختتم المؤتمر بالتوصيات التالية :

أولا: العمل على إجراء الدراسات العلمية

للمدن والبلدات الحضرمية لكشف عناصر الهوية والقيم الحضرمية الجامعة وإبرازها من خلال البحث العلمي واستخدام التكنولوجيا وبرامج المحاكاة لمعرفة الخصائص الفريدة والمميزة للعمارة التقليدية واستكشاف أسرارها الثمينة وخصائصها وعناصرها المستدامة.

ثانيا: ضرورة الاهتمام بمواقع المدن والبلدات القديمة وتحديد مواقعها الأثرية ومقابرها القديمة التي تعود لما قبل الإسلام والحصون الأثرية وإدراجها في ضمن مهام بعثات البحث وفرق التنقيب الأثري

ثالثا: الاهتمام بدراسة الأودية الرئيسة والفرعية وإيجاد نماذج لخرائط توضيحية يحدد عليها مسارات جريان الماء السطحي وحركة مسارات النقل لما لذلك من أثر في التخطيط والتوسع العمراني لتفادي الكثير من الآثار السلبية التي تتعرض لها المدن والبلدات الحضرمية في هذه المناطق

رابعا: الاهتمام بالبلدات الريفية والمحافظة عليها وعلى مواقعها الأثرية من الاندثار من خلال إقامة مشاريع تدعم نشاطهم الريفي وتعالج مشاكلهم الخدمية المحلية.

خامسا: العمل على دعم أنشطة المسوحات الاستكشافية الأثرية للمواقع التاريخية والأثرية في المدن والبلدات الداخلية وحمايتها من العبث والاندثار .

سادسا: وضع خطة وطنية شاملة لترميم وصيانة المدن والبلدات والمباني الأثرية المهددة بالتدهور والاندثار والحفاظ عليها من خلال الالتزام بالمبادئ الدولية لحفظ التراث وتعزيز الوعي المجتمعي بأهمية المباني الأثرية التي تزخر بها حضرموت من خلال تعزيز الدعم الحكومي والدولي لترميم تلك المدن والقرى الأثرية القديمة باستخدام تقنيات حديثة تحترم الهوية الطينية الأصيلة.

سابعا: الحفاظ على التراث المعماري والنسيج العمراني التقليدي من خلال وضع القوانين والسياسات الواضحة لحماية النسيج العمراني التقليدي في المدن التاريخية الحضرمية والعمل على تحديد مناطق محمية للتراث العمراني.

ثامنا: العمل على إنشاء شبكة من خدمات الإرصاد الجوي على مختلف مناطق التقسيم الطبيعي لحضرموت لدعم التنبؤات المناخية في ظل التغيرات المناخية التي تتعرض لها المنطقة بصفة عامة وحضرموت بصفة خاصة

تاسعا: إصدار القوانين اللازمة لإيقاف أعمال البناء على المواقع الأثرية، وهدم كل الأبنية التي استحدثت على هذه المواقع ومحاسبة منفذيها في إطار القانون والعمل على الحفاظ على هذه المواقع وحمايتها

عاشرا: العمل على دمج التقنيات الحديثة مع التقليدية في أساليب ومواد البناء عن طريق استخدام الطين المحسن بإضافات طبيعية أخرى أو مواد إنشائية حديثة لتحقيق استدامة بيئية للمباني العمرانية في الأودية الداخلية.

أحد عشر: العمل على تشجيع المبادرات المجتمعية التي تهدف إلى توفير حلول ومعالجات لمشاكل المدن والبلدات الحضرمية.

اثنا عشر: العمل على وضع معجم خاص للمدن والبلدات الحضرمية في النقوش القديمة.

منتدى عميد الوفاء الثقافي ينفذ فعالية بعنوان (مختارات نادرة من كتاب الماضي الصحيح والحاضر الصريح للشيخ سعيد علي بن مخاشن)

إعلام المركز | خاص

نفذ منتدى عميد الوفاء الثقافي فعالية بعنوان (مختارات نادرة من كتاب الماضي الصحيح والحاضر الصريح للشيخ سعيد علي بن مخاشن) تحدث فيها د. أنور سالم باكركر وأدارها أ. يوسف محمد باجبع.

الفعالية أعطت الكثير من الخبايا للمعمر الشيخ سعيد بن علي بن مخاشن المولود في إندونيسيا عام ١٨٩٨م والمتوفى في المكلا عام ١٩٩٤م ودراسة في كتابه (الماضي الصحيح والحاضر الصريح بالدارجة والفصيح) الذي يعد أحد الأنوار الكاشفة على حقبة مائة عام من الزمن تقريبا، وإضافة نوعية إلى التاريخ الحضرمي سد كثيرا من مواطن النقص، وكشف عن أشياء تكشف لأول مرة.

اختتمت الفعالية بمداخلات الحضور المثرية التي أضافت للعنوان والحضور الكثير من المعارف.

منتدى عميد الوفاء الثقافي يسلط الضوء على تجربة اتحاد الجنوب العربي بين الطموح والتعثر

إعلام المركز / خاص

أقام منتدى عميد الوفاء الثقافي فعالية بعنوان (اتحاد الجنوب العربي: تجربة سياسية بين الطموح والتعثر) استضاف فيها الأكاديمي والباحث أ.د. محمود علي محسن السالمي وأدارها الأستاذ حسين المدني، وسط حضور نخبة من المثقفين والأكاديميين، والشخصيات الاجتماعية والمهتمين بالشأن التاريخي والسياسي.

خلال الفعالية استعرض الدكتور محمود السالمي سياقات تشكل تجربة اتحاد الجنوب العربي في منتصف القرن الماضي. وقدم السالمي قراءة تحليلية للمرتكزات التي قام عليها الاتحاد، مستعرضا الطموحات السياسية التي رافقت تلك الحقبة، والعوامل الذاتية والموضوعية التي أدت إلى تعثر المشروع.

كما ركزت المداخلات على الدروس المستفادة من تلك التجربة التاريخية، وكيف يمكن قراءة الماضي لفهم تعقيدات الحاضر، مؤكدا أهمية التوثيق الأكاديمي المحايد لهذه المرحلة المفصلية من تاريخ الجنوب.

منتدى عميد الوفاء الثقافي يقيم فعالية ثقافية حول الفرس في أرض ا لمشقا ص

إعلام المركز | خاص.

أقام منتدى عميد الوفاء الثقافي فعالية ثقافية بعنوان (الفرس في أرض المشقاص بين العصر الساساني والعصر العباسي) وذلك في ضمن برامجه الهادفة إلى إحياء الوعي التاريخي والثقافي للمنطقة.

وتحدث في الفعالية الأستاذ طاهر ناصر المشطي مقدما قراءة تاريخية ومعرفية تناولت حضور الفرس في أرض المشقاص، وأثر ذلك الحضور خلال العصرين الساساني والعباسي، مستعرضًا بعض الدلالات التي تثبت ذلك الوجود.

وأدار الفعالية الأستاذ أحمد نضال باضريس، الذي أسهم في تنظيم محاور النقاش وإثراء الحوار وسط تفاعل ملحوظ من الحضور واهتمام بالطرح والمضامين التاريخية المقدمة.

وتأتي هذه الفعالية في إطار سعي منتدى عميد الوفاء الثقافي إلى تعزيز الحوار الثقافي، وربط المجتمع بتاريخ المنطقة وإرثها الحضاري.

وثائق تاريخية

(ترخيص لبناء دكة)

أ.د.عبدالله سعيد بن جسَّار الجعيدي

نص الوثائق

الوثيقة الأولى

الرقم (٧٢/ ٢/ ١٤)　　السكرتارية -- المكلا

تاريخ ١١ شوال سنة ١٣٧٧هـ موافق ٢٩ أبريل سنة ١٩٥٨م

حضرة المكرم نائب لواء الشحر　　المحترم.

تحية:

إشارة إلى خطابنا رقم ٦٧/ ٢/ ١٤ المؤرخ ٢٥ رمضان سنة ٧٧ هـ الموافق ٤ أبريل سنة ٥٨م الموجه لرئيس المجلس العالي، والمنسوخ لكم، والذي أرسلنا لكم برفقه صورة من كتاب ناظر الأشغال رقم ٨١/ ٢٢/ ٧ المؤرخ ١٩/ ٩/ ٧٧هـ الموافق ٨/ ٤/ ٥٨م بخصوص طلب الشيخ عبد الله أحمد اليزيدي السماح له ببناء رقاد لبيته. نقدم إليكم أدناه مقتطف من قرار مجلس السلطان (في الموضوع) المنعقد مساء يوم ١٠ شوال ٧٧ هـ الموافق ٩ أبريل ٥٨م في للعمل بموجبه:

السماح لعبد الله اليزيدي ببنا « دكة لبيته .

بعد النظر في طلب قدمه الشيخ عبد الله أحمد اليزيدي وافق المجلس على السماح للمذكور ببناء دكة لبيته الكائن بالشحر طبقًا لما جاء في خطاب ناظر الاشغال رقم ٨١/ ٢٢/ ٧ بتاريخ ١٩/ ٩/ ٧٧هـ الموافق ٨/ ٤/ ٥٨م.

/ وزير السلطنة (توقيع)

نسخة منه إلى:

- رئيس المجلس العالي إشارة إلى خطابه رقم ٧٥/ ٢٢٦/ ٢/ ٧٥ المؤرخ ٩/ ١٠/ ٧٧ هـ الموافق ٢٧/ ٤/ ٥٨م
- ناظر الأشغال للعلم
- الشيخ عبد الله أحمد اليزيدي.
- لكاتب مجلس السلطان.

-

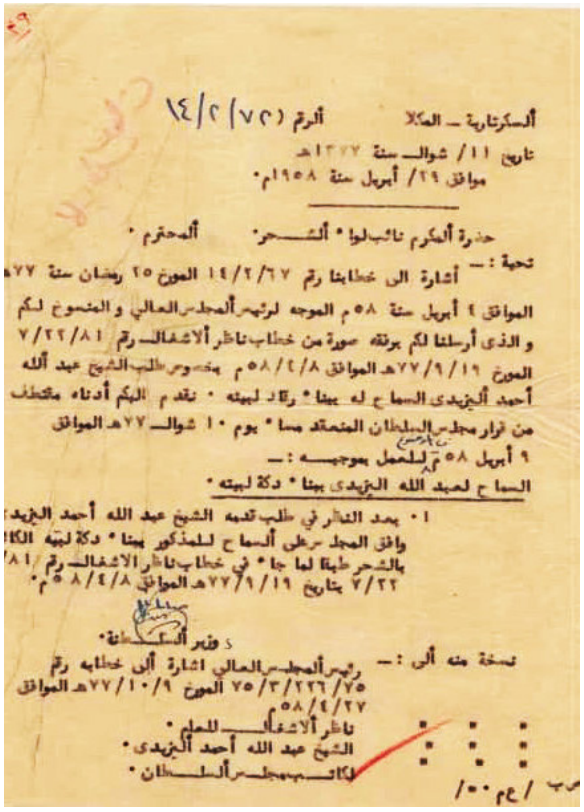

السكرتارية ـ المكلا — الرقم (٧٤/٢/٤)
تاريخ ١١/ شوال سنة ١٣٧٧هـ
موافق ٢٩/ أبريل سنة ١٩٥٨م.

حضرة المكرم نائب لواء الشحر — المحترم.

تحية :ـ
أشارة الى خطابنا رقم ٦٧/٢/١٤ المؤرخ ٢٥ رمضان سنة ٧٧هـ الموافق ٤ أبريل سنة ٥٨م الموجه لرئيس المجلس العالي والمنوه لكم والذى أرسلنا لكم برفقه صورة من خطاب ناظر الاشغال رقم ٨١/٢٢/٧ المؤرخ ١٩/٩/٧٧هـ الموافق ٨/٤/٥٨م بخصوص طلب الشيخ عبد الله أحمد اليزيدى السماح له ببنا رقاد لبيته. نتقدم اليكم أدناه مانتطف من قرار مجلس السلطان المنعقد مسا يوم ١٠ شوال ٧٧هـ الموافق ٩ أبريل ٥٨م للعمل بموجبه :ـ

السماح لعبد الله اليزيدى ببنا دكة لبيته.

١. يعد النظر في طلب تقدمه الشيخ عبد الله أحمد اليزيد
وافق المجلس برطى السماح للمذكور ببنا دكة لبيته الكا
بالشحر طبقا لما جا في خطاب ناظر الاشغال رقم ٨١/
٧/٢٢ بتاريخ ١٩/٩/٧٧هـ الموافق ٨/٤/٥٨م.

وزير السلطنة.

نسخة منه ألى :ـ
رئيس المجلس العالي اشارة ألى خطابه رقم ٧٥/٣/٢٢٦ المؤرخ ٩/١٠/٧٧هـ الموافق ٢٧/٤/٥٨م
ناظر الاشغال للعلم.
الشيخ عبد الله أحمد اليزيدى.
كاتب مجلس السلطان.

ع م/ ٥٠

الوثيقة الثانية

الرقم ٤/٢/٧٤

السكرتارية -- المكلا

تاريخ ١٣ شوال سنة ١٣٧٧هـ، موافق ١ مايو سنة ١٩٥٨م.

حضرة المكرم نائب لواء الشحر المحترم

تحية

إشارة إلى خطابنا رقم ٣٩٧/٥/٦/٢/٥٤ المؤرخ ١٢/١٠/٧٧هـ ٣٠/٤/٥٨م حول السماح لعبد الله أحمد اليزيدي ببناء الرقاد الذي يطلبه لبيته.

فضلًا احذفوا كلمة (دكة) وادرجوا بدلًا عنها (رقاد) في قرار مجلس السلطان المرسل إليكم تحت خطابنا رقم ٧٢/٢/١٤ المؤرخ ١١/١٠/٧٧هـ الموافق ٢٩/٤/٥٨م

/ وزير السلطنة (توقيع)

نسخة منه إلى:

- رئيس المجلس العالي
- ناظر الأشغال
- الشيخ عبد الله أحمد اليزيدي.
- كاتب مجلس السلطان.

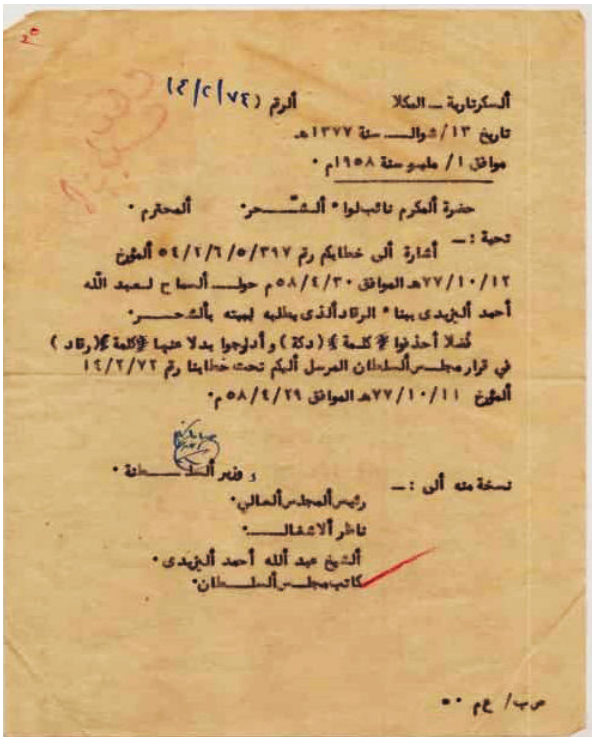

السكرتارية ـ المكلا — الرقم (٧٤/٢/٤)
تاريخ ١٣/ شوال سنة ١٣٧٧هـ
موافق ١/ مايو سنة ١٩٥٨م.

حضرة المكرم نائب لواء الشحر — المحترم.

تحية :ـ
أشارة ألى خطابكم رقم ٣٩٧/٥/٦/٢/٥٤ المؤرخ ١٢/١٠/٧٧هـ الموافق ٣٠/٤/٥٨م حول السماح لعبد الله أحمد اليزيدى ببنا الرقاد الذى يطلبه لبيته بالشحر.
فضلا أحذفوا كلمة (دكة) وأدرجوا بدلا عنها كلمة (رقاد) في قرار مجلس السلطان المرسل أليكم تحت خطابنا رقم ١٤/٢/٧٢ المؤرخ ١١/١٠/٧٧هـ الموافق ٢٩/٤/٥٨م.

وزير السلطنة.

نسخة منه ألى :ـ
رئيس المجلس العالي.
ناظر الاشغال.
الشيخ عبد الله أحمد اليزيدى.
كاتب مجلس السلطان.

ع م/ ٥٠

التعليق

تعود هاتان الوثيقتان إلى عام ١٩٥٨م، أي إلى فترة حكم السلطان عوض بن صالح القعيطي، الذي تولّى مقاليد الحكم عقب وفاة

والـده السـلطان صالـح بـن غالـب القعيطـي (١٩٣٦–١٩٥٦م). وتتناول الوثيقتان موضوعًا واحـدًا، يتمثـل في طلـب الشـيخ عبـد الله أحمـد اليزيـدي الحصـول عـلى ترخيـص لبنـاء (رقـاد)- عتبـة أو درج خارجـي- لبيتـه بمدينـة الشـحر.

وتُعـدّ الوثيقـة الثانيـة وثيقـةً اسـتدراكية بحتـة، اقتصر مضمونها عـلى تصويـب المصطلـح الـوارد في قـرار المجلـس العـالي، وذلـك باسـتبدال كلمـة (دكّـة) بكلمـة (رقـاد)؛ لمـا بـين اللفظتـين مـن اختـلاف دلالي وعمـراني؛ إذ إنَّ الدكـة غالبًـا مـا تشـغل حيّـزًا أكبر مـن الرقـاد، وقـد يترتـب عـلى اسـتعمالها توسُّـع غـير منضبـط عـلى حسـاب الشـارع العـام.

وتكشـف الوثيقتـان بوضـوح عـن درجـة عاليـة مـن الانضبـاط في التنظيـم العمـراني داخـل مـدن السـلطنة القعيطيـة، حيـث يتضـح أن أي إضافـة عـلى واجهـة البيـت أو الشـارع، ولـو كانـت مجـرَّد عتبـة تـؤدي إلى داخـل المنـزل، لا تتـمُّ إلا بعـد اسـتصدار ترخيـص رسـمي صـادر عـن الجهـات المختصـة. ويؤكـد ذلـك أن الأمـر لم يكـن خاضعًـا للأهـواء أو الرغبـات الفرديـة، بـل كان محكومًـا بضوابـط قانونيـة وإداريـة صارمـة.

كـما يلفـت النظـر أن الترخيـص لم يصـدر مبـاشرة مـن نائـب لـواء الشـحر، رغـم أنَّ المدينـة كانـت آنـذاك ثـاني أكـبر مـدن السـلطنة الكثيريـة، بـل وكانـت عاصمتهـا الأولى في فـترة سـابقة، وإنـما رُفـع الموضـوع إلى المجلـس الأعـلى في العاصمـة المكلا، وهـو مـا يـدل عـلى أن قضايـا التنظيـم العمـراني كانـت تخضـع لإجـراءات مؤسسـية واضحـة، وتُحـال إلى السـلطة العليـا المختصـة متـى اقتضـت الحاجـة. ويُلاحـظ كذلـك أنَّ قـرار المجلـس اسـتند صراحـةً إلى خطـاب ناظـر الأشـغال، وهـو الجهـة الفنيـة المختصَّـة بشـؤون البنـاء والتخطيـط، مـا يعكـس وجـود تسلسـل إداري متكامـل شـمل: طلـب المواطـن، ورفـع الموضـوع مـن حاكـم الشـحر، ورأي الجهـة الفنيـة المختصـة، ثـم القـرار النهائـي الصـادر عـن المجلـس الأعـلى، بـما يمثّـل في مجموعه منظومـة حوكمـة رشـيدة ومتعـدِّدة المسـتويات.

أمَّـا الحـرص الظاهـر في الوثيقـة الثانيـة عـلى تصحيـح صيغـة القـرار، فيعكـس وعيًـا قانونيًـا دقيقًـا بمـآلات الألفـاظ وتأثيرها العمـلي؛ إذ جرى اعتـماد مصطلـح رقـاد تحديـدًا لضـمان ألَّا يُفـسَّر الترخيـص عـلى نحـو يسـمُح بتعـدٍّ عـلى الشـارع العـام أو إضرار بالمـارَّة أو بالجيران، وبذلـك وازن القـرار بـين حـق المواطـن في الانتفـاع ببيتـه، وحـق الطريـق العـام، وسـلامة التخطيـط العمـراني.

ورغـم أن هـذه الواقعـة قـد تبـدو في سـياقها الزمني مسـألة إداريـة عاديـة لا تخـرج عـن مألـوف نظـم الحكـم في تلـك المرحلـة تكشـف قراءتهـا في الزمـن الراهـن عـن مفارقـة لافتـة؛ إذ إنـه عـلى الرغـم مـن كثـرة التشريعـات الحديثـة المنظمـة للبنـاء والتخطيـط الحضري تجـاوزت التجـاوزات العمرانيـة اليـوم حـدود الـدكك والأمتـار إلى مسـاحات أوسـع بكثـير، وغالبًـا مـا تحكمُهـا اعتبـارات القـوة والنفـوذ عـلى حسـاب القانـون والنظـام العـام.

وادي الخرش بحجر..

رحلة عبر بوابة حضرموت الغربية إلى ما قبل الإسلام..

محمد عمر كرامان

قبل ثلاث سنوات وفي أثناء اطلاعي على رحلة الرحّالة الألماني فون فريده الذي نشر في كتابٍ اسمه (رحلة إلى حضرموت وبلاد بني عيسى وبلاد حجر)، توقفت حينها طويلًا عند وصفه لرحلته إلى منطقة حجر وبالتحديد إلى وادي عبنة وما يُعرف بسور وبوابة حضرموت الغربية التاريخية بوادي الخرش، منذ تلك اللحظة ترسَّخت الفكرة في ذهني، وقلت في نفسي لا بد أن أزور هذا المكان يومًا ما. ومع مرور الأيام جاء التوقيت المناسب فتواصلت مع الأخ أحمد بارجاش، الذي ساعدني في ترتيب هذه المغامرة وربطني بالأخ بلعيد باداس المقيم في دولة الكويت، والذي لم يتوانَ عن التنسيق مع والده الموجود في وادي العوارض لتسهيل رحلتي. وهناك كان في استقبالي ومرافقتي العم يسلم باكردم باداس، العارف بدروب الوادي ومسالكه إلى جانب أخيه الشيخ سالم باكردم باداس، الذي يسكن أسفل وادي الخرش. لهم منّي جميعًا خالص الشكر والتقدير والاحترام؛ فقد كانوا بحقٍّ الجسر الذي عبرتُ من خلاله إلى هذه التجربة التاريخية الفريدة.

مع أول خيوط الفجر ينطلق فريق الرحلة من المكلا والهواء البارد يتسلل من نوافذ السيارة، فيما لا تزال رائحة البحر عالقة في الذاكرة. الطريق يمتد طويلًا نحو الغرب ١٨ ساعة من السير بين الجبال الصامتة والسهول المترامية، تتخلَّلها مشاهد القرى المتناثرة التي يلفُّها الضباب الخفيف.

لم تكن الرحلة سهلة فهي تحتاج إلى سيارة رباعيَّة الدفع مجهَّزة بكافة المستلزمات... وحقيبة معدات وكاميرا عالية الدقة وطائرة درون محمولة جهاز تحديد مواقع (GPS) ومؤن خفيفة تكفي ليوم كامل إضافة إلى الماء الذي لا غنى عنه في هذه

التضاريس الصحراوية القاسية.

تحرَّكْنا من فوَّة في ساعة مبكرة من الفجر تحديدًا الخامسة صباحًا، ثُمَّ مررْنا على حلَّة، ثُمَّ على بروم الساحليَّة الجميلة حيث شاهدنا التضاريس البديعة للخلجان والانحناءات والصخور المتدلِّية على البحر، جمال رباني يدهشنا بسحره وعظمته. لم يَغِبْ عن أنظارنا بئرُ علي الساحلية، ذاك المكان الغنيُّ بالخير الوفير من السمك قبل أن نصل إلى بلحاف.

عند الوصول إلى بئر علي تلوح في الأفق ملامح خليجها الأزرق، وميناؤها القديم الذي حمل عبر القرون أسرار السفن التجارية.

هناك في بلحاف ينتظر المرافقون المحليُّون، أهل المكان الذين يعرفون تضاريسه وحكاياته، ليقودوا الفريق إلى الموقع المستهدف.

عند وصولنا بلحاف انضمَّ إلينا مرشدُنا المحلي الشيخ يسلم بلعيد باداس المرافق الأمثل لهذه المغامرة حاملًا معرفته الغنيَّة بكل تفاصيل الموقع التاريخي الذي سنصل إليه لاحقًا.

بعد تزويدنا بالمؤن والمشروبات والغذاء وكل ما نحتاجه انطلقنا من بلحاف نحو الوادي مُتَّبِعين البرنامج المُعَدَّ مسبقًا على خريطة GBS، كانت التضاريس وَعِرة، والطريقُ صعبًا، والقرى متناثرةً بين الهضاب، لكنَّها مليئةٌ بسحر الطبيعة وعَبَق التاريخ.

رحلة شاقة نحو جدار البناء – بوابة حضرموت الغربية ..

كانت الرحلة أشبه بمغامرة زمنية، انطلقت بنا السيارة عبر وديان مترامية الأطراف وصخور متناثرة وأحجار صغيرة تملأ مجرى الأودية، تجعل السير فيها أشبه بالعبور على دروب وعرة لا تنفتح إلا بصبر وعزيمة، الطريق صعب إلى حدّ بالغ.

تُعَدُّ رحلة الوصول إلى جدار البناء في وادي الخرش من أصعب الرحلات وأكثرها مشقة.

في الساعة التاسعة والنصف صباحًا انطلقنا، وكان مدخل الطريق يبدأ من مثلَّثِ مَفْرَقِ بلحاف للغاز، ومنه إلى مفرق بن جريبة الذي يقود إلى وادي العوارض، حيث تتجلَّى مناظر طبيعية خلَّابة بين الجبال والسهول. وأَوَّل محطة في المسير هي شعب مستامر، ثُمَّ نتابع السير عبر أرضٍ منبسطةٍ حتى نصل بعد نحو عشرين دقيقة إلى موقع الكسَّارة.

بعد مسافة طويلة نبلغ بداية وادي العوارض، وهو وادٍ واسعٌ تجري فيه السيول لتفيض نحو بحر بلحاف. ومن هناك نصل إلى شعب سمارة، ثم تظهر ربوة جبليَّة مرتفعة تُعرَف بـ مصينعة عضبون عندها ينفتح أمام الناظر وادٍ فسيحٌ مترامي الأطراف تتوسَّطه قمة جبلية جميلة تُدعَى قرن بحدب، المكان الذي طالما بركتْ فيه القوافل التجارية القادمة من ميناء قنا التاريخي. وحتَّى سبعينيات القرن الماضي ظلَّت القوافل التجارية تمرُّ بهذا الدَّرب العتيق في طريقها إلى الداخل الحضرمي.

15
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

المرافقون للرحلة العم يسلم و العم سالم والأخ خالد آل باكردم باداس والابن حمزة محمد كرامان خلف الكاميرا

وبعد نحو ساعة بالسيارة نصل إلى منطقة بارك، وهي على وادٍ واسعٍ عُرِفت منذ القدم كمبرك للقوافل والجمال، ومنها اشتُقَّ اسمُها. وتوجد فيها عينُ ماءٍ تُعرف بـ (الغيل) يشرب منها السُكَّان والمواشي.

يتواصل الطريق بعد ذلك نحو عقبة المربوغة التي تنحدر إلى وادي العوارض عند شعب الخرب، ثم إلى شعب لجراف. ومن هناك يلوحُ حَيْدُ كندرانة بجماله الطبيعي.

ثمَّ نصل إلى تمورة، وهو وادٍ كبير تَعْلُوهُ رَبْوَةٌ تُعرف بـ صياح ومنادي، يلي ذلك شعب النواض، ثم شعب الحسي، وبعده شعب عقبة الرابشة.

وعند نهاية الوادي يظهر شعب بين الشخين، ومن بعده السويد.

هنا ينتهي وادي العوارض لنبدأ الصعود نحو وادي الخرش، حيث يواجه الزائر جدار البناء البوابة الغربية التاريخية لحضرموت شامخًا، يحرس ذاكرة المكان، ويشهد على حركة القوافل منذ قرون من الزمن.

هنا استرحنا تحت شجرة العلب في ضيافة الشيخ سالم باكردم باداس

لكنْ ما يلفت الانتباه في هذه الدروب أنَّ الأرض على رحابتها تكادُ تخلو من المزارع وأشكال الزراعة، فلا يُرى فيها سوى الأودية المترامية والصخور الصلبة. هذا الغياب للزراعة جعل السكان يفتقدون موردًا ثابتًا للغذاء، وزاد من اعتمادهم على الطبيعة القاسية من حولهم.

وأكبر مشقة يواجهها الأهالي هي الحصول على المياه؛ إذ تبعد موارد المياه العذبة عن مساكنهم، فيجلبونها بشق الأنفس على ظهور الحمير أو عبر السيارات من أماكن بعيدة. ورغم وجود عين ماء عذب صالحة للشرب في بعض المواضع إنَّ غالبية الآبار غير صالحة إلا للاستعمال العام، مما يجعل حياتهم اليومية كفاحًا دائمًا مع العطش وشح الموارد.

أمَّا مساكنهم فليست ديارًا بالمعنى العمراني المعروف، بل عُشَشٌ صغيرة مشيَّدة من سعف النخيل، تقام تحت ظلال أشجار السِّدر، وتُزيَّن جوانبها بطريقة بدائية جميلة، تحفظ خصوصيتَهم، وتنسجِمُ مع طبيعة المكان. حياتهم حياة البَرِّ بكل تفاصيلها.. لا كهرباء ولا مياه عبر المواسير إنما ضوء القمر والنجوم

يضيء لياليهم ومياه الشرب تُجلَبُ من بعيد بوسائل تقليدية بسيطة.

يعتمد الأهالي في معيشتهم على رعي الأغنام، التي تتغذَّى من الأشجار والشجيرات المنتشرة في الأودية خصوصًا أشجار الغلب. ومع نزول الأمطار تخضرُّ الأرض وتظهر النباتات الصغيرة فتُسهِم في سدِّ جوع الماشية. لكنَّ اعتمادَهُم لا يَقِفُ عند الطبيعة وحدَها؛ إذ يجلبون لأنعامهم شيئًا من البَرِّ (القمح) والطحْ؛ ليكون عونًا لها في أوقات القحط والجفاف.

ورغم قسوة هذه الحياة تحمل في داخلها جَمَالًا من نوعٍ خاص. فقد وجدتُ نفسي منبسطًا بالجلوس بينهم وانشرح صدري لصفاء المكان وبساطته حتى تمنَّيت أن أعيش معهم أيامًا بعيدًا عن منغّصات المدنية من كهرباء ومياه وضوضاء، مكتفيًا بحياديَّة البداوة وحياة طبيعية خالصة.

إنها حياة بسيطة متقشفة في ظاهرها لكنها في أعين أهلها وحتى في عين الزائر حياة عزيزة متجذِّرة، لا يمكن التفريط بها؛ لأنها تمثل الجذور والهُوِيَّة، وتربط الحاضر بماضٍ عريق، سلكتْ فيه القوافل ذات الدروب منذ قرون.

أربعَ عشرةَ ساعةً تقريبًا انفصلنا خلالها عن عالم التمدُّن وضجيجه، وعشنا بين أحضان البادية.. هواء نقي، مناظر آسرة، وصمت مهيب يريح القلب ويبعث في النفس سكينة عميقة. بالنسبة لي كانت تلك الساعات من أجمل لحظات الصفاء؛ إذ تمنحك حياة البادية شعورًا مختلفًا بعيدًا عن المدينة وضغوطها ووسائلها الحديثة من اتصالات وإنترنت، لتنعزل قليلًا، وتستعيد نفسك في حضرة الطبيعة البِكْر.

الطريق الترابي الذي يمتد حوالي ١٠٠ كيلو مترًا من الإسفلت ليس سهلًا، صخور متناثرة، ومنعطفات بين هضاب رملية، وأودية جافة، تعبُرُها السيَّارة بحذر. كلما تقدَّمْنا في المسير كان المشهد يتبدل من سهول مفتوحة إلى مرتفعات صخرية تحتضن صمت آلاف السنين.

السيارة تشق أربع ساعات بين الهضاب والجبال، حيث تتناثر الصخور الرملية الملوَّنة تحت أشعة الشمس الأولى فتبدو الأرض وكأنها ترتدي ثوبًا ذهبيًا. الهواء كان يحمل عبق الرمال ورائحة الأرض الجافة، مذكِّرًا بأننا على وشك الاقتراب من حضارة ضاربة في القدم.

بعد هذا الطريق تغيَّرت المناظر تدريجيًا، فانتقلنا إلى السهول الرملية المفتوحة حيث تبدو الأرض كأنها لوحة ذهبية، تتخلَّلها ظلال الصخور المتناثرة، وترافقنا أصوات الطيور البرِّيَّة ونشوة الرياح العابرة بين التلال. كل خطوة كانت تحملنا أقرب إلى حضارة ضاربة في القدم، حضارة الأجداد التي تركتْ بصماتِها في عمق الأرض.

رحلةٌ شاقَّةٌ ومتعبةٌ، طُرُقٌ وَعِرَةٌ تارةً، ورمالٌ ووديان وصخورٌ تارةً أخرى، حتى السيَّارة بدتْ وكأنَّها أنهكَها التَّعَبُ معنا. أربعَ عشرة ساعةً متواصلة بين الهضاب والجبال

17
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

والرمال، وكلما اشتدَّ بنا العناء ازداد شغفُنا للوصول، كأنَّ عَبَقَ الماضي كان يُنَادِينا من بعيد.

واصلْنا المسيرَ حتَّى دخلْنا وادي الخرش، الوادي الذي يُحَبِّبُ بين جباله أسرارًا تعود إلى آلاف السنين. هناك برزَ أمامَنا جدار البناء، سُورٌ ممتَدٌّ على طول الجبل، تتخلَّله بوَّابة قديمةٌ، كان يومًا الممرَّ الرسميَّ للقوافل القادمة من ميناء قنا. تلك القوافل التي حملت الطِيبَ والبَخُور والأقمشة من ميناء قنا التاريخي بشبوة ثم حجر، ومنها إلى مناطق حضرموت لتصل إلى شبام بورصة التجارة العالمية آنذاك، ومنها تنطلق نحو أرجاء المعمورة.

حين وطأت أقدامنا الموقع بان أمامنا مشهد مهيب، سُورٌ حجريٌّ قديم، متناسقٌ شامخٌ رغم الزمن، يعود لما قبل الإسلام، ومن خلال تلك المشاهد توحي بأن هذه الأرض كانت شاهدة على حياة مجتمع منظَّم ذي حضارة متقدمة. كلُّ مبنًى يحكي قصَّةً، كُلُ حجرٍ يحمل ذكرياتٍ من آلاف السنين، وكأن الماضي ينطق أمامنا بلغة الصمت.

يبدو الموقع الأثري للزائر لأوَّل وهلة كأنه مجرَّد بقعة حجرية متصلة على سفح التلة، لكن ما إن يقترب حتى تنكشف أمامه معالم جدران متهدّمة، وبقايا حجارة متناثرة ضخمة، يصل حجم بعضها إلى مترين، بحيث يصعب حملها أو نقلها. هناك يتجلَّى أثر حضارة غابت عن الأنظار، لكنها لا تزال حاضرة في حجارتها الصامدة.

هذه البوابة الرئيسية عبرها تمر القوافل والأشخاص من وإلى حضرموت

ظهر الموقع أمامنا شامخًا في سكون الجبال والصخور كأنما يتحدى النسيان. مبانيه الحجرية القديمة على الرغم من قسوة الزمن ما زالت تنطق بعظمة التصميم ودقة البناء. الجدران الصلبة والبوَّابة الصغيرة المنحوتة بعناية بدتْ كأنها تروي حكاياتِ مجتمعٍ متحضّرٍ، عاش هنا قبل قرون طويلة من بزوغ الإسلام. كلُ حجرٍ كان يدعونا للتأمل، وكلُ زاويةٍ كانت تبعث فينا دهشةً ممتزجةً بوقار التاريخ.

جدار شعب الخرش التحصين الحضرمي القديم..

يعد جدار شعب الخرش واحدًا من أعظم الشواهد الدفاعية في تاريخ حضرموت؛ إذ لا يزال قائمًا حتى اليوم محتفظًا بهيبته. فهو سور تحصيني ضخم، يبلغ طوله نحو ١٦٠ مترًا، ومتوسط عرضه ٥ أمتار، وارتفاعه بين ٣–٤ أمتار. شُيِّدَ بأحجار صلدة متينة، وتنتشر على الهضبة المحيطة به منشآتٌ دفاعيَّةٌ أخرى وُضِعت بعناية في مواقع استراتيجيَّة تتحكم بمخانق وادي العوارض، بحيث لا تسمح بالعبور إلا عبر بوابة واحدة، تؤدي إلى منطقة الفرش في وادي حجر، ومنها إلى هضاب حضرموت ووديانها الداخلية.

يقع الموقع شمال شرقي ميناء قنا القديم (بير علي حاليًا)، على مسافة تزيد على مئة كيلومتر بعد اجتياز الهضاب والوديان. ويبعد عن جَزْوَل بوادي حجر في حضرموت حوالي ٣٥ كيلومترًا.

هذه الصورة تعطي طول السور كامل

وتشير الدلائل الأثرية إلى أنَّ بناءه يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، في عهد الملك المكرب الحضرمي يشهر إل بن أب يسع خليفة الملك المكرب سمهرم بن علهان الذي نسب إليه ميناء سمهرم في ظفار. وقد شيَّد السُّورَ لصَدِّ هجمات القبائل الحميرية المتسللة إلى أراضي حضرموت، ولتنظيم حركة القوافل التجارية بين ميناء قنا ووادي حجر. لم يكن العبور إلى الوادي ممكنًا إلا عبر بوَّابةٍ واحدة، تتوسَّط الجدار؛ إذ لم يترك أي منفذ آخر للمرور.

في منتصف الجدار تقع بوابة لعبور القوافل وفي ركنها الشمالي الشرقي يوجد نقشٌ شهير مكوّن من خمسة أسطر. ظل هذا النقش في موضعه مئات السنين حتى جرى هدم الجدار وتخريبه بعد عام ١٩٩٤م؛ ليتم سرقته ونهبه.

وقد أثبتت بعثة أثرية يمنية عام ٢٠١١م بمشاركة الأساتذة خيران الزبيدي وصلاح الحسيني وربيع البتول وآخرين واقعة النبش والسرقة؛ حيث لاحظوا آثار العبث بموضع النقش.

تعرض الجدار عبر الزمن لعوامل طبيعية أتلفت أجزاءه خصوصًا من الجهة الجنوبية الملاصقة للجبل، كما شق طريق ترابي بعد عام ٢٠٠٨ م تقريبًا من دون إشعار السلطات الأثرية، وهو ما يعكس حجم الإهمال الذي تعرَّضتْ له مواقع كثيرة مشابهة له.

وقد حظي الموقع باهتمام بالغ من الرحَّالة والباحثين الغربيين منذ القرن التاسع عشر. كان أول زائر أوروبي له المستشرق الألماني فون فريده عام ١٨٤٣م، عندما وصل المكلا متنكّرًا بأسم عبد هود وادَّعى أنه مسلم من مصر. ثم انطلق إلى حجر من دوعن برفقة رجل من قبيلة آل عبدالمانع يُدعَى سليم أو سالم، وقد نسخ نص النقش بيده؛ لعدم توافر آلة تصوير حينها. وهناك شاهد بعينه عظمة المكان والنقش الحميري القديم الذي كان محفورًا على جدار البوابة.

فون فريده في رحلته هذه وصف الموقع وما يحتويه وصفًا دقيقًا يعد من أوائل التوثيقات الغربية لهذا الأثر الحضرمي.

ثم زاره المستشار البريطاني هارولد إنجرامس في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، وتبعه الأثري البريطاني Brian Doe في الستينيات الذي نشر صُوَرًا للموقع والنقش عام ١٩٧١م. وفي منتصف الثمانينيات زاره الأثري الدكتور عبدالعزيز بن عقيل برفقة زميله الأثري محمد أحمد بامخرمة، حيث قاما

بتصوير النقش وأخذ قياساته بدقة.

وهكذا ظل جدار شعب الخرش بنقوشه وحجارته المهيبة مقصدًا للباحثين والمهتمين بالتاريخ من مختلف الجنسيات، الذين يفدون لمشاهدته والتأمل في قيمته المعمارية والتاريخية الفريدة؛ بوصفه معلمًا حضرميًا قديمًا، يختزل ذاكرة الحضارة، ويؤكد عمق ارتباط حضرموت بشبكة التجارة العالمية منذ العصور القديمة.

التضاريس المحيطة بالمكان رهيبة، صخور ضخمة شامخة، أمَّا السُّورُ فقد غدتْ أجزاء منه أطلالًا تئنُّ تحت ثقل الزمن والإهمال. وعلى كتلة صخرية كبرى كان يقبعُ النقش الحميري الذي نُهب وأُهمل تاركًا أثرًا من الأسى في قلوبنا؛ إذ لم تمتد إليه يد العناية ولا عين الحماية.

إنَّ بناءَ السُورِ يُثِيرُ الدهشة، أحجار ضخمة متراصَّة بدقة وعناية هندسية بالغة، تتخلَّلها في بعض المواضع مادة فاصلة أشبه بالرمل المخلوط بالجير (النورة) ما تزال متماسكة ومتشبثة بالجدار رغم تقادم الزمن. وفي أرجاء الصخور المحيطة قد تكون نقوش أخرى مطموسة لم تُكتشَفْ بعدُ، صامدة في مواجهة القرون، تحكي قصَّةَ أُمَّةٍ اندثرت، وبقي أثرُها شاهدًا على عظمتها.

هنا تبدأ الكاميرا عملها والـ GPS يسجل الأحداثيات والدفاتر الميدانية تمتلئ بملاحظات عن التكوينات الحجرية تجاه البناء وحتى طبيعة الصخور المستخدمة.

شهادة فون فريده ١٨٤٣م ..

وهنا نعود بالزمن إلى عام ١٨٤٣م، حين وطأت أقدام الرحالة والمستشرق الألماني فون فريده هذه الأرض. فقد قام بتوثيق تفاصيل المكان بدقة، ونسخ النقش الحميري الذي كان محفورًا على جدار البوَّابة. ودوَّنَ مشاهداته في كتابه المعروف (رحلة في حضرموت: بلد بني عيسى وبلد حجر)، مقدِّمًا بذلك أوَّلَ وصفٍ أوروبيٍّ مكتوبٍ عن هذا الموقع الأثري الفريد ويقول في كتابه:

(قبل الساعة السابعة بقليل وصلنا إلى الأطلال الغريبة، التي يسمّيها العرب حصن العبنة» Hign el Obne. من مخيَّمنا الليلي إلى هذه الآثار، كُنَّا نحافظ دائمًا على الاتجاه الجنوبي، ٢٠ درجة غربًا. الغطاء النباتي على هذا الطريق هزيل للغاية وفقط تحت صخرة كبيرة مائلة وجدْنا الظلَّ.

أنقاض عينة» ليست أطلال بلدة، كما كنتُ أتخيل، لكنها أطلال سور عبر الوادي، ثم مر فوق جبل ليس شديد الانحدار على حدود الوادي في الغرب والشرق، ينتهي في خانق وادٍ عميق على شكل خندق، على الجانب الآخر منه ينحدر التل بشكل حاد للغاية. هذا التلُّ وأرض الوادي يتألفان من الحجر الرملي، وهو الجبل المقابل من الحجر الجيري الجوراسي.

ومقابل الطرف الشرقي للجدار، هناك ممر ضيق يمتد من التل، وهو مغلق أيضًا بجدار، حيث تركت ثغرة مربعة في الأسفل للسماح

لمياه الأمطار بالتدفق، وعلى بعد ١٠٠ خطوة جنوب السور العظيم ينخفض قاع الوادي على بعد ٣٠ قدمًا، والوادي، الذي يطلق عليه منذ ذلك الحين اسم عرار»، يزرع إلى حد كبير بأشجار الآريا والميموزا والنخيل المقبب. على بعد ٥٠ خطوة إلى الشرق، ينساب واد آخر إلى الوادي، وبعد ذلك ينخفض التل المذكور أعلاه بشكل حاد للغاية، ولكن حيث يشكل رَعْنًا أو نتوءًا، كما هو بالفعل، فهو يظهر منحدرًا أقل حِدَّة ومتدرِّجًا. ونظرًا لأنه يمكن الآن تجاوز الجدار الرئيس من هذه النقطة، فقد توجت قمة الرَّعْن بجدار، وعلى الرغم من أنه ليس كبيرًا، فهو يشبه بناء الجدار الكبير. تمَّت المحافظة على الجدار الرئيس بشكل جيد في الوادي، ولكن تم تدميره على الجبل وعلى منحدره الكتل الكبيرة محفورة بعناية ومدمكة بملاط يشبه هذا تقريبًا وصار صلبًا كالصخر نفسه. ارتفاع هذا الجدار ٦ أمتار و٩٢ سم، وعرضه ٦ أمتار و٨ سم. والطول من الوادي إلى سفح الجبل المقابل يبلغ ٦٧ مترًا. يوجد في منتصف الوادي بوابة بارتفاع ١ متر وعرض ٦٤ سم، جدرانها مائلة قليلًا ويبدو أنها لم تكن مغطاة قط. عند مخارجه الجنوبية، يوجد نقش حميري سميك من خمسة أسطر منحوتة بدقة على مربع طويل في الجدار الشرقي. عند المخرج الشمالي، يمتد المدخل لبضع بوصات كما لو كان مخصَّصًا لباب؛ ومع ذلك، لا يوجد جهاز لتعليقه جدران الجدار، على غرار جدران البوَّابة منخفضة قليلًا، وتبرز بعض الشيء في أماكن مختلفة. وعلى الجانب الذي ينضم إلى الوادي، يكون المنحدر أقوى إلى حد ما، ويتم تثبيت الدعامة التي تقع على حافة الصخرة. على الحائط، نصب بدو الذيبي حاجزًا به فتحات لإطلاق النار خلفها، وببنادقهم الممدودة، يطلبون جزية مرور من المسافر. لحسن الحظ، لم يكن أي من قاطعي الطرق هؤلاء حاضرين عندما كنتُ هناك.

يتم التعبير عن الغرض من هذا الجدار بالطريقة التي تم وضعه بها؛ من الواضح أنه لم يخدم شيئًا سوى منع الوصول إلى وادي حَجْر وحَضْرَموت. إنها رحلة ليوم واحد من بلدة بير علي الساحلية التي ازدهرت قديمًا. ويؤدي الآن طريقان رئيسان من هناك إلى الداخل).

ترجمة وشرح النقش الذي نسخه الألماني فون فريده، وقد تولى ترجمته وشرحه البارون هاينريش فون مالتسان ..

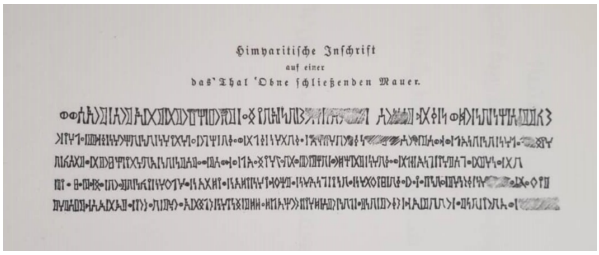
Himyaritische Inschrift
auf einer
das'That 'Obne schließenden Mauer.

النقش الحميري في جدار بوابة البناء الذي نسخه فون فريدة

السطر الأول

تم إنشاء عمل خيري لصالح سكان الوديان العالية . حضرموت ..... رئيسهم ورجال قبائلهم. ابن أبيشع أمير

السطر الثاني

هيئعثيل، وعلهان ابنئيل ودوس .....

(هل أقاموا؟) هذه الحراسة للأودية وهذه الحماية للحجر، هذا الملجأ لسكان هذا البلد، ملجأ قوي

السطر الثالث

.... ونقطة ملاحظة ومرقبًا مرتفعًا لحدائق الأودية، وبهذا الحرس .... غرس الخوف في حمير والتبع هيثعثيل ودوس وعَمْسَمين بن أبهتاي من حضرموت والحلف في

السطر الرابع

ميفعت ..... لقد وحدتهم عبنه وتمنع الوصول إلى هذه المساكن، يجب على الحراس وسكان هذه الحدائق وهؤلاء المسؤولين أي حراس الجدار أن يغرسوا الخوف ويكونوا على أهبة الاستعداد، ويجب أن تتم نوبة حراست (هم) هذه في الغروب والري والتراجع ليلاً،

السطر الخامس

والاستبدال (يتم؟) بإشارات النار (للجميع ؟)، من السادة إلى المرؤوسين بإشارات النار. إلى ابن الشمس المشرقة، شراحيل، سيد الجبابرة، في (اليوم) الثاني من القمر (الشهر) الثالث في (السنة) الـ ١٢٠ للأسد السماوي.

مضمون النقش و شرحه ..

يبدأ النقش بالإشارة إلى إنشاء عمل خيري لصالح سكان الأودية العالية في حضرموت قام به الأمير ابن أبيثع بالتعاون مع زعماء القبائل. هذا العمل لم يكن مجرد بناء حجري بل كان مشروعاً متكاملاً لحماية الناس ومواردهم حيث تضمن إقامة ملجأ قوي للسكان (وهو جدار البناء) ونظام حراسة ومراقبة لحماية الأودية والحدائق الزراعية.

ويورد النقش أسماء عدد من القادة مثل ..هيثعثيل و علهم و بنئيل و دوس وعمسَمين، وهو ما يعكس الدور التشاركي الإجتماعي بين الزعامات القبلية في إدارة شؤون البلاد آنذاك وتأكيد على أن العمل الجماعي كان قيمة راسخة في حضرموت .

النظام الدفاعي ..

أحد أهم ما يكشفه النص هو وجود نظام أمني متطور؛ إذ يشير إلى بناء نقطة ملاحظة ومرقب مرتفع لمراقبة الحدائق (وهذا يعطي ان هناك كانت أراضي زراعية خضراء)، إضافة إلى تنظيم نوبات الحراسة عند الغروب وفي الليل. كما ذكر النقش استخدام إشارات النار كوسيلة للتواصل بين الحراس من (السادة إلى المرؤوسين) وهي تقنية متقدمة في زمنها تتيح نقل الإنذارات بسرعة بين المواقع.

البعد الزراعي والاقتصادي ..

يشدد النقش على حماية حدائق الأودية مما يعكس مركزية الزراعة في حياة المجتمع الحضرمي. فالزراعة لم تكن مجرد مصدر غذاء، بل أساس الاقتصاد المحلي ومصدر رخاء واستقرار للقبائل. ولذلك ارتبطت الحراسة والدفاع بشكل مباشر بالحفاظ على الأراضي

الزراعية وموارد المياه.

الدلالة الدينية والسياسية ..

في ختام النقش ورد تأريخ دقيق للعمل في السنة ١٢٠ للأسد السماوي، وهو نظام تقويم فلكي قديم. كما جاء ذكر لقب رفيع (ابن الشمس المشرقة شراحيل سيد الجبابرة)، وهو تعبير ذو دلالات دينية وسياسية يجسد مكانة الملك أو الأمير في ارتباطه بالقوى السماوية ويعكس طبيعة الشرعية السياسية في تلك المرحلة.

قراءة في النقش

هذا النقش ليس مجرد نص حجري، بل وثيقة حضارية تعكس.

اهتمام المجتمع الحضرمي بالأعمال الخيرية والتنظيم الاجتماعي.

وجود نظام دفاعي وأمني متطور يعتمد على الحراس وإشارات النار.

مركزية الزراعة والموارد الطبيعية في الحياة الاقتصادية.

طبيعة الحكم التشاركي بين القبائل تحت مظلة سلطة ملكية أو دينية عليا.

النقش الحميري من حضرموت يقدم لنا نافذة ثمينة على حضارة ما قبل الإسلام، ويكشف عن مجتمع منظم واعٍ بقيمة الزراعة، وحريص على الأمن الجماعي والتكافل الاجتماعي. إنَّه شاهد صامت لكنَّه غني بالمعاني، يربط حاضر حضرموت بماضيها العريق، ويؤكد أن هذه الأرض كانت مسرحًا لحضارة ضاربة الجذور في عمق التاريخ ..

التخريب الحديث للسور ...

غير أن الحزن يعتصر القلب حين يشاهد المرء ما أصاب هذا الأثر العريق من عبث حديث. ففي عام ٢٠٠٨م جرى شق الجدار بآليات ثقيلة (شيول) لفتح ممر للسيارات في عملية تخريب فاضحة أزالت جزءًا من جسد السور التاريخي الذي صمد قرونًا طويلة.

يقول أحد أبناء المنطقة ..

تم إزالة جزء كبير من السور لتمهيد الطريق أمام السيارات. ما حدث سهّل الحركة لكنه أزال معلمًا أثريًا، كان يحكي قصة أجدادنا وذكريات آلاف السنين.

هنا تم تهديم السور بالشيول لمرور السيارات

ويحكى التاريخ أن أحد التجار من أسرة آل بن مالك كان يجلب البضائع والمؤن من

عدن عبر السفن الشراعية (السنابيق) إلى ميناء قنا .. بلحاف في زمن السلطنة القعيطية، ثم تفرغ البضائع هناك لتحملها قوافل الجمال عبر السهول والهضاب والوديان حتى تصل إلى سور البناء، وتمر من بوَّابته الوحيدة، ومنها إلى وادي الفرش بحجر التاريخية، ثم إلى مناطق متعددة في هضبة حضرموت ووادِيها.

وقد أوصى هذا التاجر لابنه أحمد بن مالك بضرورة إيجاد طريق ترابي يسهل النقل ويختصر الرحلة فقام الابن بتنفيذ تلك الوصية حيث شق خطًّا بريًّا يبدأ من مفرق بن جريبة حتى فرش مراوح وسط حجر. غير أن تنفيذ هذا المشروع تطلَّب شق السُّور التاريخي نفسه لمرور السيارات عبره، وهو ما شكل ضربة قاسية لبناء قديم شُيِّد قبل الإسلام وظلَّ صامدًا آلاف السنين.

بهذه الطريقة المؤسفة تجسدت اللامبالاة وغابت المسؤولية والوعي بقيمة هذا الأثر، الذي كان ينبغي أن يصان ويحفظ للأجيال القادمة كمعلمٍ فريدٍ من معالم حضرموت القديمة.

هذا الصوت المحلي يفتح الباب أمام تساؤلات أوسع: هل نحن مستعدون للتضحية بآثارنا من أجل متطلبات الحياة العصرية، أم يمكن التوفيق بين الاثنين بحيث تبقى الذاكرة محفوظة للأجيال القادمة؟

رحلتُنا لمْ تكنْ مجرَّدَ استكشافٍ لموقع أثري، بل كانت رحلةً عبر الزمن، رحلة لتوثيق التاريخ في صورته الخام بين لقطات مصوَّرة وتسجيلات ميدانية دقيقة. فالمكان هناك ليس مجرَّد أحجار صامتة، بل شاهدٌ حيٌّ على عبقرية الأجداد، وحكاية صامتة تنتظر من يرويها، درسٌ في الأصالة وصبر الإنسان وفي قدرته على تشييد حضارةٍ ظلت شامخة رغم قسوة العصور.

نزولنا لم يكن مجرد مسحٍ بصريّ، بل تجربة حسية متكاملة .. رائحة الرمال في الهواء، صرير الرياح بين الصخور، ودفء الشمس المنسكب على الجدران الحجرية القديمة. كان مرشدنا المحلي الشيخ يسلم كردم باداس يرافقنا بخبرته وحكاياته يروي لنا أساطير المكان، ويُضِيف بُعدًا إنسانيًا يربط الحاضر بالماضي، وكأن صوته امتداد لصوت الأرض نفسها.

لقد كانت الزيارة أكثر من توثيق، كانت عودة بالزمن آلاف السنين إلى أيامٍ كان فيها هذا الموقع نابضًا بالحياة، تعجُّ طرقاته بالحركة والتجارة، وتشعُّ معابدُهُ بطقوس الناس وأهازيجهم. ومع اقتراب المَغِيبِ عُدنا من الدرب نفسه، تسبقنا ظلال الجبال، وتتبعُنا غبار السيارة، في حين ظلَّتْ رائحة التاريخ عالقة في ذاكرتنا كعهدٍ سرمديٍّ بين الماضي والحاضر.

قراءات في بوادر الحضور الحضرمي في صدر الإسلام

عفيف الكندي

علي سالم باهادي

تمثّل دراسة تاريخ حضرموت في العصر الإسلامي المبكر – وهو ما يُطلق عليه في بعض المراجع بـ«التاريخ الوسيط» – مجالًا بحثيًا على درجة عالية من الأهمية؛ نظرًا لما لهذا الإقليم من حضور مبكر ومؤثر في مسار الأحداث الإسلامية منذ فجر البعثة النبوية. غير أنّ الكتابة التاريخية في هذا الجانب ما تزال شحيحة، وتواجه الباحث صعوباتٍ جمَّة، يأتي في مقدّمتها ندرة المصادر والمراجع المكتوبة، التي توثّق تفاصيل تلك الحقبة، إلى جانب غياب أو انعدام الشواهد والآثار المادية الحضرمية، التي تعود إلى صدر الإسلام، والتي كان من المتوقع – لو وُجدت – أنْ تسدَّ جانبًا كبيرًا من النقص في المادة التاريخية المكتبية.

في ظل هذه الإشكالية، تبرز الحاجة الماسّة إلى دراسات علمية متخصصة، تُعِيد قراءة ما وصل إلينا من نصوص وروايات، وتعمل على ربطها بالسياق الحضاري والجغرافي لحضرموت في تلك الفترة. ومن هنا تأتي هذه السلسلة من المقالات التاريخية «قراءات في بوادر الحضور الحضرمي في صدر الإسلام» كمحاولة علميَّة لتسليط الضوء على نماذج وشواهد مبكرة لحضور الحضارمة في أحداث العصر الإسلامي الأول، إسهامًا في إثراء المعرفة بتاريخ حضرموت الوسيط، وتعزيز الوعي بأهميته في السياق العربي والإسلامي العام.

شكّلت التجارة في عصر ما قبل الإسلام وصدره أحد أهم العوامل في توطيد العلاقات بين الأقاليم العربية، وكان لحضرموت بما اشتهرت به من إنتاج اللبان والبخور والسلع المحلية الأخرى، حضورٌ ملحوظ في طرق التجارة المؤدية إلى الحجاز، فضلًا عن الأسواق الموسمية التي تقام بها، وتقصدها القبائل العربية، ومنها قريش[1]، وقد

---

١ أسواق حضرموت القديمة هي:
سوق الرابية: يقام في النصف من ذي القعدة، ويتولى بنو آكل المرار وآل مسروق بن وائل خفارته، وفي عام ١٩٨٤م تم العثور على موقعه بوادي العين.
وسوق الشحر: أو الأسعاء أو سوق مهرة ويقام في النصف من

أسهم هذا النشاط التجاري في إيجاد شبكة من الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين الحضارمة وسُكَّان مكة؛ إذ كانت مواسم الحج والأسواق الكبرى – في مكة أو حضرموت – محطَّاتٍ رئيسةً للتبادل التجاري والتواصل الثقافي.

وفي هذا السياق، تذكر المصادر التاريخية أن العباس بن عبد المطلب، عمّ النبي ﷺ، كان يرتاد أسواق اليمن، ويشتري منها السلع، ولا سيما العطور، ثم يعرضها في مكة خلال مواسم التجارة والحج[٢]. وقد كوّن العباس من خلال هذه الرحلات التجارية علاقاتٍ متينة مع بعض وجهاء حضرموت، كان من أبرزهم عفيف الكندي[٣]، الذي ستتناوله هذه الدراسة بوصفه نموذجًا مبكرًا من نماذج الحضور الحضرمي في الحجاز في زمن البعثة النبوية.

تورد المصادر التاريخية، ومنها رواية ابن إسحاق[٤]، أن عفيف الكندي – وهو من أعيان حضرموت – قدم إلى مكة في زمن البعثة النبوية، وكان ذلك في إطار رحلة تجارية يبتاع ويبيع فيها لأهله من ثياب وعطور مكة. نزل عفيف حينها ضيفًا على صديقه العباس بن عبد المطلب، وهو ما يعكس عمق الصلات التجارية والاجتماعية التي كانت تربط الحضارمة ببعض بيوت قريش.

وفي أثناء جلوسهما عند الكعبة، وقد زالت الشمس، أبصر عفيف مشهدًا غير مألوف: شابًا يقف مستقبلًا الكعبة يُصَلِّي[٥]، يلحقه غلامٌ يقفُ عن يمينه، ثم تلتحق بهما امرأة، فوقفوا جميعًا يصلون. فسأل عفيفٌ العبَّاسَ عنهم؟ فأجابه: إن الشاب هو محمد بن عبد الله، ابن أخيه، وأن المرأة زوجته خديجة بنت خويلد، والغلام علي بن أبي طالب، وأنَّ محمدًا قد بُعث نبيًّا، ولم يكن قد دخل في دينه في ذلك الوقت سوى هؤلاء الثلاثة.

يروي عفيفٌ أنه بعد إسلامه تمنَّى لو كان يومئذٍ «رابعهم»[٦]، وفي بعض الروايات تمنَّى أنْ لوْ كان الرجلَ الثاني إلى جانب علي بن أبي طالب، في إشارة إلى إعجابه الشديد بالمشهد الذي شهده في بدايات الدعوة. وتكتسب هذه الرواية أهميَّتها من كونها تُعدُّ إحدى الشواهد المبكرة على معرفة بعض الحضارمة بالبعثة النبوية في مراحلها الأولى، غير أنَّ النقد التاريخيَّ يستدعي التوقُّف عندها وتمحيصها؛ إذ تثير أسئلة حول زمن وقوع الحادثة بدقة، وتاريخ بدء الصلاة وكيفيتها، ومدى دقة التفاصيل التي نقلتها الروايات.

تشير كتب السيرة النبوية إلى أن الرسول

٢ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (تاريخ الطبري)، ط٣، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧ه/ ١٩٦٧م. ج٢، ص٣١٢. أبو نعيم، معرفة الصحابة، تح: عادل العزازي، ط١، دار الوطن، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٤، ص٢٢١٨.

٣ عفيف بن معدي كرب الكندي واسمه شرحبيل، وعفيف لقب. ولقّب عفيفًا لقوله في أبيات:

وقالت لي هلمّ إلى التّصابي ... فقلت عففت عما تعلمينا

وكان قبل الإسلام أحد الحضارمة الحنيفين الذين حرَّموا على أنفسهم أعمال الجاهلية. وهو أحد الصحابة الحضارمة الذين وفدوا إلى الرسول ﷺ مع وفد قبيلته كندة، ابن حبيب، المحبر، ص٢٣٧. ابن حجر، الإصابة، ج ٤، ص٤٢٦.

٤ ابن إسحاق، السيرة، تح: سهيل زكار، ط١، دار الفكر، بيروت،١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص١٣٨.

٥ تصف بعض الروايات هيئة الصلاة من استقبال القبلة وركوع وسجود من دون أن تذكر لفظة صلاة. انظر ابن حجر، الإصابة، ج ٤، ص٤٢٥.

٦ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣١٢.

ﷺ أقام في مكة ثلاث سنوات من أول نبوته متخفّيًا، ثم أعلن الدعوة في السنة الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين. ومن المعلوم أن الصلاة ذات الركوع والسجود قد فُرضت في ليلة الإسراء والمعراج، وهي حادثة وقعتْ – في أصح الروايات – في أواخر الفترة المكّيَّة وقبيل الهجرة إلى المدينة، أي بعد أن انتشر الإسلام بين قريش في مكة ومحيطها في عدد من القبائل.

وانطلاقًا من هذا التسلسل الزمني، تثار تساؤلات حول رواية عفيف الكندي، التي تصف مشهد صلاة النبيِّ ﷺ ومعه خديجة وعلي (رضي الله عنهما) في مكة، قبل اكتمال التشريع، وذلك بالهيئة المعروفة من الركوع والسجود. بل إن بعض الروايات تذكر أنهم توضأوا وأسبغوا الوضوء قبل الصلاة[1]، وهو أمر يثير مزيدًا من التساؤل؛ إذ لم يكن الوضوء قد فُرض بتلك الكيفية في المرحلة المبكرة من الدعوة.

إضافة إلى ذلك، فإن المرحلة السِّرِّيَّة للدَّعوة كانت تتَّسم بأقصى درجات التحفُّظ والكتمان، مما يجعل من المستبعد أن يبوح العباس بن عبد المطلب بسرِّ الدعوة لشخص قادم من خارج مكة، كعفيفٍ الكندي، مع إدراكه أن الأخير سيعود إلى أهله في حضرموت، وقد ينقل إليهم الخبر. كما نلحظ اضطرابًا في الروايات من حيث تحديد مكان اللقاء؛ فبعضُها يذكر أنه كان بجوار الكعبة في مكة، في حين يشير البعض الآخر إلى أنه كان في مِنى زمن الموسم[2].

هذه الملاحظات مجتمعة تبرز الحاجة إلى التعامل مع الرواية بميزان النقد التاريخي، مع الأخذ في الحسبان السياق الزمنيَّ والدعويَّ للأحداث، وتباين التفاصيل بين المصادر، وهو ما يفتح المجال أمام الباحثين لمزيد من التحقيق والتحليل قبل اعتماد الرواية كمصدرٍ مباشرٍ لمعرفة بدايات الحضور الحضرمي في صدر الإسلام.

لكن هذه الرواية تبقى شاهدًا مهمًّا على وجود علاقات تجارية متينة بين حضرموت ومكة، غير أن التساؤلات السابقة تثير الشكَّ في مدى صحة القول إنَّ خبر الإسلام وصل إلى حضرموت عبرها. ويبدو محتمَلًا أنَّ الرواية قد تعرَّضت لإضافة أو تحريف خلال فترة التدوين التاريخي؛ فربما أن عفيفًا الكِنديَّ رأى النبيَّ ﷺ عند الكعبة في وقت الهجيرة عند خلوِّ المسجد من الناس، وشاهده ومعه زوجته خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)، وهم يدعون عند الكعبة، ثم أُلحِقَتْ بتلك المشاهدة قصص أخرى لاحقًا. كما يمكن أنَّ العباس – نظرًا لتخفِّي المسلمين آنذاك – لم يكنْ يعلم بغير أولئك الثلاثة الذين أظهروا إسلامهم.

ومن خلال تلك الرواية ــ اذا اعتمدنا صحة جزئية منها[3] ــ فإنه يمكن الاستدلال

١ لأهل العلم الشرعي تفصيل وخلاف في كيفية صلاة الرسول ﷺ قبل الإسراء والمعراج ومشروعيتها؛ إذ ثبت أنه صلى بالأنبياء إمامًا ليلة الإسراء، واختلف العلماء في كيفية تلك الصلاة، وتذهب بعض الروايات إلى أن جبريل (عليه السلام) قد علَّم الرسول الوضوء والصلاة عند البعثة، ويُجمِع العلماء على أنَّ الصلوات الخمس فُرِضَتْ في ليلة الإسراء والمعراج. للمزيد انظر فتاوى الإمام النووي المسمَّاة «المسائل المنثورة»، تحقيق محمد الحجار، ص٣٥، ط٦، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٦م.

٢ انظر مسند الإمام أحمد (رقم١٧٨٧)، ج٣، ص٣٠٦، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.

٣ اعتمدنا صحة لقائه بالعباس ورؤية النبي ﷺ عند الكعبة، واستبعدنا جزئية أنه لم يكن هناك من المسلمين غير الثلاثة

على أنَّ عفيفًا الكندي اطّلع على خبر الإسلام عن طريق صديقه العبَّاس بن عبد المطلب في مرحلة مبكِّرة من الدعوة، ومن المرجَّح أنه نقل ذلك الخبر إلى خاصَّته في حضرموت عند عودته، خاصة وأن المصادر التاريخية تشير إلى أنَّ عفيفًا كان من الحضارمة، الذين تحرَّجوا عن موبقات الجاهلية، مثل شرب الخمر والزنا والقمار، وكانوا يُعرَفون بـ«الحنيفيين»[٤].

وتعزّز شخصية عفيفٍ الكندي – بما تمثله من صلة مباشرة بمكة، وبما عُرِف عنه من نقاء العقيدة وابتعاده عن مظاهر الانحراف السائدة – من وجاهة القول بوصول خبر الإسلام إلى حضرموت في وقت مبكر. فحضور عفيف في قلب المشهد المكي ولقاؤه بالرَّسول ﷺ، إلى جانب ارتباطه بعلاقات تجارية وشخصية مع العباس بن عبد المطلب، يجعلان منه حلقة وصل طبيعية بين البيئة الحجازية والحضرمية. كما أنَّ انتماءه إلى فئة «الحنيفيين» يُفسر استعداده النفسيَّ والفكريَّ لتبني رسالة الإسلام[٥]، وهو ما يدعم الاحتمال القويَّ بأن يكون قد نقل ما سمعه ورآه إلى محيطه في حضرموت، لتصبح قصته مثالًا على الدور الذي أدَّتْهُ الشخصيات الفردية في انتقال الأفكار عبر طرق التجارة والأسواق العربية.

وعليه، فإنَّ العلاقات التجارية بين مكة وحضرموت قد أسهمتْ في تسرُّب أخبار الإسلام إلى القبائل الحضرمية في وقتٍ مبكِّرٍ من عُمْرِ الدعوة؛ إذ كانت الأسواق العربية آنذاك ملتقًى للتجارة، وعقد الأحلاف، وتبادل الأخبار بين مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

وخلاصة القول، إنَّ رواية عفيفٍ الكنديِّ – على ما قد يكتنفُها من شكوك أو إضافات لاحقة – تكشف عن ملامح التفاعل المبكر بين حضرموت ومكة في زمن الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى، وتُبرِزُ دور التجارة والأفراد في انتقال الرسائل الدينية والفكرية عبر أرجاء الجزيرة العربية. كما تُقدِّمُ شخصيَّةَ عفيفٍ نموذجًا لفئةٍ من العرب، كانت مهيَّأة فطريًا وعقليًا لتقبُّل الرسالة الجديدة، الأمر الذي يفسِّر تسرُّبَ خبر الإسلام إلى حضرموت في وقتٍ مبكِّر، ويمهِّد لفهمٍ أعمقَ لمساراتِ انتشار الدَّعوة في بيئات بعيدة عن مركزها الأول في مكة المكرمة. وبذلك، تتحوَّل هذه الرواية من مجرد حادثة فردية إلى دليل على دينامية المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي، وقدرته على التفاعل السريع مع التحوُّلات الكبرى في الفكر والعقيدة.

المذكورين في الرواية.

٤ ابن حبيب، المحبر، ص ٢٣٧.

٥ واستكمالًا للسياق التاريخي فإن عفيف الكندي قد وجد في الإسلام ما يوافق الفطرة السليمة، ويحقق ما كان يبحث عنه من مبادئ الدين الحق؛ إذ تشير المصادر إلى أن عفيفًا أسلم وحَسُنَ إسلامه، وكان أحدَ رجالِ الوفد الكندي، الذي قدم إلى المدينة المنوَّرة في زمن الوفود، واستقرَّ بعد زمن الفتوح في العراق. انظر ابن الكلبي، نسب معد، ج١، ص١٤٠.

ساحة القصر السلطاني والدور التنويري

(السينما والمسرح أنموذجًا)
١٩٣٠ - ١٩٦٧م

28
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

عبدالقادر سعيد بصعر

لقد كان سلاطين الدولة القعيطية الذين حكموا أجزاء واسعة من حضرموت قرابةَ قرنٍ من الزمان، وكانت عاصمة هذه السلطنة مدينة المكلا، منفتحين كثيرًا على شعبهم؛ إذ لم يكونوا يمارسون التعالي والعجرفة، بل كانوا ودودين إلى حدٍّ بعيد، ولم تكن لديهم أيَّةُ هواجسَ أمنيَّةٍ، تجعلهم يضعون حواجز وأسلاكًا تفصلهم عن الاحتكاك بمواطنيهم. أُورِدُ هنا أنموذجًا لِأُدَلِّلَ على صحَّة كلامي؛ فالقصر السلطاني قصر الحكم في مدينة المكلا حاضرة حضرموت، الذي بناه السلطان عمر بن عوض القعيطي في أوائل ثلاثينيات القرن الماضي من أمواله في حيدرآباد بالهند، بتكلفة مقدارها ٤ ملايين روبية، كان هذا القصر وساحته مركزًا لعددٍ من الأنشطة الثقافية والفنية، واحتضنتْ ساحتُه أنشطةً متنوّعةً، سنركز على السينما والمسرح وكذا الاحتفالات العامة التي تقام، وتحديدًا في ذكرى عيد الجلوس على الحكم.

كانت الاحتفالات تُقَامُ في خامس يوم من أيام عيدي الفطر والأضحى من كل عام، وكانت البداية عندما أسَّس السلطان عمربن عوض القعيطي مكتبة ثقافيَّةً عامَّةً في إحدى غرف القصر السلطاني وتضُمُّ ٣٠٠ كتابٍ ومجلَّد، كان هذا المكان يَؤُمُّهُ الناس للقراءة والاطلاع واستعارة الكتب لسنواتٍ عدَّةٍ، وبعدها أنشأ السلطان صالح بن غالب القعيطي مكتبةً عامَّةً أسماها المكتبة السلطانيَّة عام ١٩٤١م، موقعها يطلُّ على جامع عمر.

أمَّا بالنسبة للمسرح فقد تمَّ بناؤه في ساحة القصر السلطاني، وقد تمَّ عرضُ عددٍ من الأعمال المسرحية على خشبته للمدارس وللأندية الرياضية، ومن ثم الفرق المسرحية.

من هذه الأعمال المسرحية كنماذج للاستدلال، مسرحية المهلهل سيد ربيعة، هذا العمل المسرحيّ قدَّمَتْهُ المدرسة الوسطى بالمكلا عام ١٩٤٠م، وكان موقعُها حصن الشيبة، وهي من إخراج الشيخ القدَّال سعيد القدَّال، ناظر معارف الدولة القعيطية، سودانيّ الجنسيَّة،

وساعده في الإخراج الشيخ عبدالله سعيد باعنقود، مدرِّس اللغة العربية بالمدرسة، ومن الطلاب الذين شاركوا في هذا العمل الطالب عمر أحمد باحكيم، والطالب عبدالقادر محمد باحشوان.

وفي عام ١٩٤٣م قُدِّمَتْ على خشبة مسرح القصر السلطاني بالمكلا مسرحيَّةُ قيس وليلى، وهي من قصص الحب العذري، وهي مسرحيَّةٌ شعريَّةٌ، من تأليف أمير الشعراء أحمد شوقي، قام بالأدوار الرئيسة في هذا العمل الطالب محمد عبدالقادر بافقيه، في دور قيس، أمَّا دور ليلى فقد قام به الطالب سالم يعقوب باوزير، وكان يؤديه من خلف الكواليس؛ إذ لا يُسمَعُ إلَّا صوته؛ نظرًا لتخلُّف الواقع الاجتماعي. وقد نشرت صحيفة فتاة الجزيرة مقالًا عن هذه المسرحية، كتبَهُ مراسل الصحيفة في المكلا محمد بركات.

في بداية الستينيات مع بروز الأندية وتنافسها في تقديم أعمال مسرحية قدَّم نادي الشباب الرياضي بالمكلا مسرحيَّةَ تاجر البندقية، تأليف الكاتب المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير، وإخراج عوض العماري، قام بدور عطيل جمعانُ بْنُ سعدٍ، نائب وزير المالية الأسبق، أمَّا دور ديدمونة فأدَّاهُ أحمد باعيسى. كانت هذه الأعمال المسرحية يشاهدها الجمهور برسومِ تذاكر الدرجة الأولى قيمتها ٣ شلنات، وفي كراسي الدرجة الثانية على الفرش الطربال قيمتها ٢ شلنان. كما قدم نادي الأحرار الرياضي في عام ١٩٦٣م مسرحية الشهداء، وهي من تأليف الكاتب اللبناني سعيد عقل، وإخراج المخرج عمر مرزوق حسنون، وساعده في الإخراج محمد عوض باصالح، أمَّا الممثلون الذين شاركوا في هذا العمل فهم: عمر أحمد بن ثعلب، وصالح سعيد عرم، وحمزة محسن السقَّاف، ووحيد مبارك الرباكي، ومرعي بن مخاشن، ومحمد خنبري، وكانت هناك عبارة يردّدها بطل المسرحية قبل شنقه يقول فيها: مرحبًا بالموت في سبيل حرية الوطن.

هناك أعمال مسرحية أخرى اكتفينا بما ذكرناه كنماذج.

أمَّا العروض السينمائية التي كانت في ساحة القصر السلطاني الجهة الغربية في فترة الخمسينيات إلى منتصف الستينيات قبل افتتاح السينما الأهلية بالمكلا عام ١٩٦٦م فقد عُرِضَتْ عشرات الأفلام المصريَّة، ولم تعرض في ساحة القصر الأفلام الهندية والأجنبية.

بدأت ساحة القصر بعرض الأفلام الغنائية لموسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب، من هذه الأفلام فيلم يوم سعيد، وفيلم الوردة البيضاء. كما عُرِضَت في ساحة القصر الأفلام التاريخية، كفيلم ظهور الإسلام، وفيلم وا إسلاماه، قصة الأديب الحضرمي علي أحمد باكثير، بطولة أحمد مظهر ولبنى عبدالعزيز. ومن الأفلام الوطنية فيلم جميلة بو حيرد عن ثورة الجزائر ثورة المليون ونصف المليون شهيد ١٩٥٤ - ١٩٦٢م، بطولة أحمد مظهر وماجدة. كما عرضت الساحة فيلم ثورة اليمن، بطولة أحمد مظهر وماجدة وصلاح منصور، الذي أدى دور الإمام أحمد، كما عُرِضَت أفلام الفروسية كفيلم عنتر وعبلة، بطولة سراج منير وكوكا، وفيلم عنترة بن شداد بطولة فريد شوقي وكوكا، وهو من إخراج نيازي مصطفى، الذي درس الإخراج في فرنسا. ومن الأفلام البدوية وفروسية النساء

فيلم البدوية العاشقة، والبدوية في باريس، والفارس الأسود، وعنيترة بنت عنتر، وكانت بطولة هذه الأفلام المطلقة للفنانة سميرة توفيق، التي تجيد اللون البدوي في الغناء، وكذا إجادتها لأدوار الفروسية كعنصر نسائي. ومن الأفلام الاجتماعية ذات النمط السياسي فيلم اللص والكلاب، تأليف الكاتب المصري عبقري الرواية العربية نجيب محفوظ، بطولة الفنان شكري سرحان، وشادية.

على هامش هذه العروض السينمائية التي عرضت في ساحة القصر السلطاني على شاشة مثبَّتةٍ تتجه الأنظار إليها نستخلص بعض الأمور التي أضحتْ من الضرورة بمكان الإشارة إليها؛

كان الفيلم يستمر عرضه لمدَّة شهر، لذا نجد أن الكثيرين من عشاق الفن السابع وهو السينما يشاهدون الفيلم لقرابة شهر، يحفظون حواره عن ظهر قلب، وقد أشارت إلى هذا الأمر بعثة مجلة العربي، التي عملت استطلاعًا عن المكلا في يونيو ١٩٦٥م، حاورتْ بعضًا من هؤلاء الأشخاص، فقد كان هناك مقاهٍ شعبيَّة متنقلة لبيع الشاهي في الاستراحات، وكذا تجهيز طسوت لبيع الأرز من قبل بعض المطاعم، البعض يأكل وجبة العشاء في الاستراحة، كان يتم عرض نيوزات وأفلام وثائقية قبل عرض الفيلم، ومنها جوانب دعائية إنتاج إدارة الاستعلامات بوزارة الإعلام المصرية في فترة المدِّ القومي، وحكم الزعيم العروبي جمال عبدالناصر في دعمه لحركات التحرر العربية، سأشير إلى نموذج استقبال عبدالناصر لوفدٍ نقابيٍّ من مستعمرة عدن، برئاسة عبدالله عبد المجيد الأصنج، ومحمد سالم باسندوة، رئيس الوزراء الأسبق لبلادنا، وكانت هناك بعض الأُسَر اضطلعت بمهمة استيراد الأفلام المصرية من مستعمرة عدن، وهذه الأُسَر أسرة آل بارحيم، ومحمد بن يحيى، وأسرة آل بن كوير، وكان لهذه الأخيرة أوَّلُ مبادرة في الاستثمار الثقافي والفني؛ إذ أنشأت دار سينما خاصة بها أسمَتْها سينما بن كوير، تمَّ افتتاحها في سبتمبر عام ١٩٧٠م، وتم عرض الفيلم الغنائي الاستعراضي المصري أبي فوق الشجرة، بطولة عبدالحليم حافظ، وميرفت أمين، وعماد حمدي، ونادية لطفي، لكنَّ هذه السينما بعد عامين تعرضت للتأميم والمصادرة في حالة من التجاوزات والإجراء التعسُّفي، سبب صدمة للقطاع الخاص بعدم خوض أي استثمار.

بقي أن أُشير إلى أنَّ استيراد الأفلام لم ينحصر في هذه الأُسَر؛ فقد خاضت التجربة أنديةٌ رياضيَّةٌ، منها نادي الكوكب بالمكلا، ونادي الشباب بالمكلا، ونادي الوحدة، ومن الأفلام التي قاموا باستيرادها فيلم عنتر وعبلة، وعنترة بن شداد، والفارس الأسود، وكان الغرضُ من الاستيراد تحسين الموارد المالية لهذه الأندية، خاصة إذا ماعلمْنا أنَّ رسوم دخول العروض السينمائية كانت رسومًا نقديَّة.

تعد السينما وسيلة ترفيه وتسليةٍ جاذبة لمختلف شرائح المجتمع في ظل انعدام وسائل الترفيه والتسلية وفقدها في السنين الخوالي في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، والبون شاسع بين ذلكم الزمان ووقتنا الحاضر. الموضوع متشعب وواسع غير أنِّي حصرتُه في جانب العروض المسرحية والسينمائية.

الدان
فن الملحون الحضرمي

أ.د. محمد بن هاوي باوزير

الدان فن الملحون، ومن مكوِّنات الهُوِيَّة الحضرمية، وعندما نتحدَّث عن فن الدان هنا نقصد به ذلك الفن الشعري الشعبي الملحون، المعبِّر الصادق عن حياة الجمهور في حضرموت، وما له من دور ثقافي واجتماعي مهم في حياتهم، فهو في أشكاله وأقاويله وأنماطه المختلفة ملازم لوجودهم من حيث إنَّه تعبير حيٌّ لواقعهم الاجتماعي، وأن وجود هذا الفن واهتمام أهل حضرموت ملحوظ قديمًا وحديثًا، ولا شك أنَّ كثيرًا منه قد ضاع، أمَّا ما بقي منه فعلينا كسلطاتٍ محليَّةٍ وباحثين ومثقَّفين حضارم وهُوَاة أن نحافظ على هذا الإرث غير المادي؛ باعتباره إرثًا حضاريًا حضرميًا مهمًا، وهو يمثل جزءًا عزيزًا من تاريخ حضرموت وهُوِيَّتِها.

الدان الحضرمي:

هو نغم ولحن له اصوله وجذوره وتفعيلاته وأوزانه ونغماته الملحَّنة، وينطلق من الدندنة أو الهمهمة، وهو مربوط بمقاطع شعرية أو لحن أو نغم معيَّن، والدندنة في القاموس هي هيمنة الكلام، ودندن: صوَّت فلان، وهو نغمٌ لا يُفهَم منه كلام، وبتعبير أدق يمكن القول: إنَّ الدان الحضرمي هو جُمَلٌ موسيقية، تساعد في عملية وضع قوالب الألحان والأنغام المختلفة للأغاني الشعبية، والعادة أنَّ النغم والتلحين يسبقان الشعر في أغاني الدَّان الحضرمي. والمعروف أنَّ الدان الحضرمي بكل أشكاله وصوره الفنية الإبداعية في جميع مناطق حضرموت هو فنٌّ حضرمي أصيل وقديم، عبَّرتْ كل الشرائح الاجتماعية في حضرموت عن متنفَّسها وهمومها ومعاناتها اليومية وأحاسيسها الوجدانية عبر صياغة تلك القوالب الإبداعية الفنية المطربة (بن عقيل ٢٠٠٢/ ٨٨. والصبان٢٠٠٤/ ١٧-٢٣).

ويُعد ديوان الشيخ عمر بامخرمة (٨٨٤-٩٥٢هـ) من أقدم النصوص المحفوظة في المكتبة الحضرمية، التي تناولت التعبير عن المشاعر الصوفية، والاتجاهات الفكرية والأوضاع السائدة، وصياغتها للكثير من تلك القصائد على أصوات الدان الحضرمي الشائعة في عصره (القرن العاشر الهجري)، واستطاع بامخرمة أنْ يوظِّف الدان للترويج لأفكاره ومعتقداته الصوفية، وإعطاء الدان معنًى فكريًا وصوفيًا. (لمعرفة المزيد عنه العودة لبن عقيل ٨٨-٩٢. والصبان ١٨ وما بعدها).

إذًا (الدان الحضرمي) هو من الملحون، ومن مكوِّنات الهُوِيَّة الحضرميَّة، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنَّ هذا الفن يأتي في مقدمة التراث الشعبي الحضرمي غير المادِّيّ، ونقصد به ذلك الفنَّ الشعريَّ الإنشاديَّ الغنائيَّ الشعبيَّ، الذي يُعبِّر عن احتياجات المجتمع، وما يدور في خُلد النَّاس وخاصة العامة، لذلك فهو أكثر الموروثات الحضرمية حاجة إلى الرعاية وتوثيقه وحفظه من الاندثار؛ باعتباره إرثًا حضاريًّا مهمًّا، يعكس هُوِيَّةَ الحضارمةِ وثقافتَهُمْ. وحيثما رحلوا وحلّوا نقلُوه معهم، ففي الهند وشرقي افريقيا وشرق آسيا -مثلًا- نقلوا الدَّان وجلساتِهِ الشعريَّةَ الغنائيَّةَ والرقصاتِ الشعبيَّةَ والسهراتِ الغنائيَّةَ وغير ذلك. (جمال النظاري، ص٣٠٤-٣٠٥).

شُعَّارُ الدَّانِ الحضرميِّ ومُغَنُّوه:

أنجبتْ حضرموتُ عددًا غيرَ قليلٍ من المُبدِعين، ومنهم شُعَّار الدَّان الشَّعبيّ، ومنهم: حدَّاد بن حسن الكاف، ومستور سليمان حمادي، وسالم عبد القادر العيدروس، والشاعر والملحِّن حسين أبو بكر المحضار، وأحمد كرامة بريك، وعلوي بن حسن بن شيخ الكاف، وسعيد مبارك مرزوق، وناصر يسلم بن ناصر، وعبدالله بن قصير، وسالم مسيعد، وصالح بن ربيع من شبام، وغيرهم كثير.

ومغنُّو الدَّان الحضرمي كُثُر، ومن أشهرهم : مغنِّي الدَّان يسلم هادي قهمان، من مدينة الأنس والدان سيئون (الطويلة)، التي هامَ بها العُشَّاق، وتغنّى بها الكثيرون من الشعراء، والمغنّي عوض بن يسلم بريك من منطقة عيديد بتريم، وقد كان من بيت فنٍّ حضرمي؛ إذ كان أخوه هادي مغنِّيًا، ووالدته تغني بأصوات الدَّان في بيتها، وأخذ عنها ابنُها عوض أصولَ فنِّ الدَّان، إضافةً إلى عوامل أخرى صقلتْ موهبتَهُ، وهي عمله القديم مع الجمَّالة، فكان جمَّالًا وحَادِيًا بالصوت والصوت معهم، إضافةً إلى ارتباطه كثيرًا بجلسات الدَّان واحتكاكه بالشعراء والمغنِّين. (جيلاني الكاف- مجلة الامل، العددين (١١٧-١٢١).

وكذا فنَّان الدَّان حسين بن سعيد الكاف، وهو من أعلام تريم، مُخضرَمٌ، عاصر الكثير من رُوَّاد الدَّان وعُشَّاقه، بما فيهم جيل الشباب، أي كان معاصرًا لمرحلتين، مرحلة ازدهار الدان ومرحلة النهضة للأغنية الحضرميَّة، ولهذا أُطلِق عليه لقب (مُخَضرم الدان)

مُخضرم الدَّان والفن على السلّا دُوب يحتن
هو أفضل الناس وأحسن معروف موصوف بالزين

(جيلاني الكاف، الامل، العدد١٥٣/ ٢٠١٥م- ص٣٠-٣١)

ومن أعلام الشحر الملحّن والمغنِّي محمد محفوظ سكران (الكالف)، وله دواوين، وكتاب باسم (منظومة الدان). (جيلاني الكاف، الامل، العدد ١٥١/ ٢٠١٤م-ص٣٢-٣٣).

نماذج من أشعار الدَّان وغنائه:

من النصوص الشعرية لبامخرمة كافتتاحيات لقصائده تجعل من الدَّان غذاءً روحيًّا له، يقول: (عبد الرحمن بن عقيل، ص ٨٨- ٨٩).

سُويلِمْ دَان فإن القلب للدّان دَان
عليَه فإني مَعنَّى به ولي فيه شان
شربت من كأسه الصّرف العقيق الملان
ونادمتني به شُقاته في كل أوان

ويقول أيضًا:

دان يا مطربة فإني على دانش أطرب
ردّدي فيه خلّينا من الصافي أشرب
فان لي في الغناء مَشرب وللناس مَشرَب
مذهبي فيه وحدُه مايدانيه مَذهب

ومن جلسات الدَّان وذكرياته ما ينبض به قلب الفنَّان حسين بن سعيد الكاف بالحياة والنشاط والحيوية والانبساط وذلك عندما تقدَّم به السن.. وكان لسان حاله يقول: (جيلاني، العدد١٥٣، ص٣١).

ياليالي الدان عُودى علّهُ يخضر عودي
ذكرينا بعهودٍ يا لها تلك العهود
يا لأحلى جلسات عامرات بالسُعود
دندنات طيبات عانقت أنغام عودِ

وكأنه بذلك في تلك الجلسات واللحظات يتذكَّر قول الشاعر والملحِّن حداد بن حسن الكاف:

حسين شلّ العود حرّك عا لوتر
ساعه على الشاحي وساعه عا ليتيم
وخل خُو عيديد يذكر وقت مَر
في سفح غنانا إذا هب النسيم

تريم ذي ما مثلها بحرًا وبر

ما تشبه إلا خلد جنات النعيم

يـاالله عـسى عـودة إلى الغناء تريم

وللشاعر حداد الكاف ومستور حمادي: (الصبان، ٢٠٠٤م، ص١٠٣-١٠٤)

يقول حداد الكاف:

حـــيا لـيالي جميلة مـرَّت بسفح الجـبل

مثـنات بحـر الطويلة القرن وحيوط السحيل

والحوطة المستطيلة فيها علي حبشي وكم فرع أصيل

ويقول مستور حمادي:

إن جيت باخُذَك حيله ما نا من أهل الحِـيل

ما حد يغالط عميله إلا المسفّل والرذيل

بصبر شروعي طويله وبا تبالغ فيك بالشرع الطويل

ومن الجدير ذِكرُه أنَّ للدَّان موازين ومقاطع، كما أنَّ للدَّان أنواعًا، والمشهور منها ثلاثة أنواع، هي:

(الريّض)، وهو ذو المقاطع الطويلة كالرباعي والخماسي والسداسي وما بعده، وسمي ريّضًا لهدوء أنغامه وعدم سرعة اندراجها عند الغناء والطرب، و(الحيقي) هو ذو المقاطع الثنائية والثلاثية والرباعية وهي سريعة الحركة والاندراج، وسُمّي بالحيقي لأنه يأتي غالبًا من الوديان وسُكَّان الجبال، وأنَّ منبعه وازدهاره بوادي دوعن. و(الهبيش) وهو ذو المقاطع الثنائية غالبًا، وهو أسرع حركةً من الحيقي، ويكثر لدى أهل البادية، ويستعمل في شرح الهبيش أو رقصته.. والحديث في تفعيلات ومقاطع وأنواع الدان طويل.. (لمعرفة المزيد عن ذلك انظر: ابن عقيل، عمر بامخرمة حياته تصوفه وشعره، ٨٨-٩٢. وعبد القادر الصبان، الدان في حضرموت، ص٧ وما بعدها).

الدَّان الحضرمي في طريقه للانضمام لقائمة التراث العالمي:

أولًا- ندوة سيئون لإعداد ملف الدَّان الحضرمي:

شهدت مدينة سيئون بوادي حضرموت في شهر أبريل ٢٠١٩م ندوة عن فنِّ الدَّان، التي نظَّمتْها وزارة الثقافة بالتنسيق مع السلطة المحلية بالمحافظة.

واستعرضت الندوة التي استمرَّت يومين بمشاركة عددٍ من المهتمين بالشأن الثقافي، عددًا من المحاور المقدَّمة من قبل مختصين ومهتمين بهذا الفن الأصيل من حضرموت؛ للتعريف بفن الدان وتأصيله لغويًا، ووظيفته الاجتماعية، ومظاهر المحافظة عليه، وطبيعة تقاليده في المجتمع، فضلًا عن استعراض منهجيَّة نقل المعارف التراثية الموسيقية، والمحافظة عليه، والتقنيات الموسيقية في غناء الدان.

وتهدف الندوة لإعداد ملفٍّ عن فن الدان الحضرمي، وإبراز القيمة العالية للتراث الثقافي الحضرمي، المتمثّل بعنصر الدان الحضرمي؛ لرفعه للمنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم التراثية «اليونسكو»؛ لإدراجه ضمن القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية.

وفي افتتاح الندوة التي أقيمت بقاعة الأديب علي أحمد باكثير بمكتب الثقافة بوادي

حضرموت أشار وزير الثقافة الأسبق إلى أن تنظيم الندوة يأتي في إطار تحضيرات وزارة الثقافة لتسجيل الدَّان الحضرمي وإدراجه ضمن قائمة اليونسكو للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، من خلال إلقاء الضوء على هذا الفن العريق الأصيل، وإعطاء المزيد من التعريق المنهجي بهذا الجزء المهم من الإرث الثقافي والفني العربي الفريد، وحفظ الحقوق الثقافية والمادية للفنَّانين والمبدعين في حضرموت، وأبدتْ وزارة الثقافة استعدادها للتعاون مع جميع المثقفين والفنانين والمبدعين في حضرموت؛ للارتقاء بدور المؤسسات الثقافية العمومية، التي هي ملكهم وملك عموم المواطنين، مشيرةً إلى انه وعلى الرغم من ظروف الحرب التي تمر بها البلاد لكنْ للثقافة دور مهم لإعادة بناء البلد ونهضة إنسانه، والعودة بحضرموت إلى مكانها الطبيعي بين الأمم ذات الحضارات العريقة.

ثانيًا- الندوة الدولية عن الدان الحضرمي- القاهرة يوليو ٢٠١٩م:

الدَّان الحضرمي علامة فنية، يصعب تكرارُها في أي بلد، وفيه يبدع الشاعر والمنشد إرتجالًا بقواعد فنية راقية، وقد تناولت (الأهرام العربي) هذا الملف المعنون بـ ((حضرموت منجم الغناء العربي))، وفيه كشف عن كنوز حضرموت في مجال الدان والغناء والطرب والرقصات الشعبية وغيرها من التراث الغنائي والشعري الحضرمي المتنوع، والدان على رأس هذا التراث، بل أهمُّ الموروثات الشعبية الغنائية. (إبراهيم العشماوي، الأهرام العربي ٢٨ ديسمبر ٢٠١٥م).

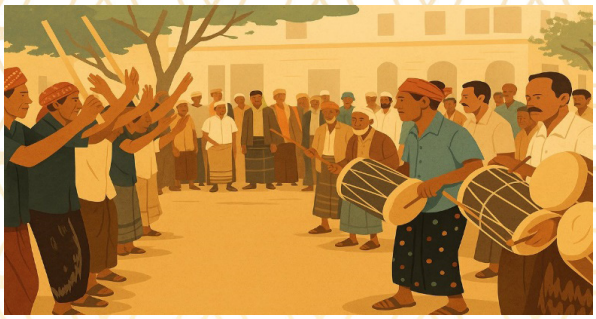

وفي جريدة الأهرام المصرية، الدان الحضرمي فن عريق يستعد للانضمام إلى قائمة التراث العالمي، وينتظر اعتراف اليونسكو، وجاء في الجريدة:

الدان الحضرمي، هو فن غنائي فلكلوري، ارتبط منذ القدم بمنطقة بحضرموت، الواقعة شرق اليمن، وينتظر الاعتراف العالمي به، بعد نيل طلب السلطات الثقافية في اليمن موافقة مبدئيَّة من جانب منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة اليونسكو لإدراجه بقائمة التراث الثقافي غير المادي.

وقد مرَّ الدان بمراحل تطوُّرٍ متنوعة، حتَّى بات ذلك الشكل الغنائي الأصيل المتعارف عليه لحنًا وشعرًا وأداءً وعَزْفًا، وبات له مطربون يبدعون في أدائه، ومن أشهرهم الفنان والمطرب الشهير أبو بكر سالم بلفقيه، والذي نشره على نطاق واسع في منطقة الخليج العربي، والفنان محمد جمعة خان، والفنان المعروف عيدروس بن عبد القادر.

ولأنه موغل في القدم، فمن الصعب تحديد تاريخ بداية الدان الحضرمي، وإن كان بعض الباحثين يُرجِعُون نشأته الأولى إلى أكثر من ٥٠٠ سنة مضتْ، وذلك لورود لفظة دان في عدد من قصائد الشاعر الشعبي والعالم الصوفي عمر بن عبدالله بامخرمة، المتوفَّى في

مدينة سيئون عام ٩٥٢هجرية، وذلك حسب ما ذكره جعفر السقاف والكاتب عبد القادر الصبان في دراستهما عن الدان.

ويشير المستشرق السويدي كارل لاندبرج إلى أنَّ أصل الدان مأخوذ من الدندنة، ولعلها من الفعل الرباعي: دندن، يدندن، ومن معانيها أن تسمع من الرجل نغمة، أو صوتًا ولا تفهم ما يقول. فيبدأ المغنِّي يُهَمْهِمُ ويُدَنْدِنُ بنغمات: دان دان دان، ليتشكل بذلك صوتٌ ولحنٌ، ثم يتمُّ تركيب الأبيات الشعرية على ذلك.

وقد يحضر أكثر من شاعر هذه المجالس فيتساجلون في موضوع أو أكثر، يُدلِي كل شاعر فيه برأيه، ويدافع عن وجهة نظره شعرًا، فتجمع السهرة أو الندوة إلى فَنَّيِ الغناء والموسيقى، وفَنَّيِ الأدب العامِّيِّ والمساجلة الشعرية.

ويعالج شعراء الدَّان موضوعات الغزل، والمديح، والفخر، فضلًا عن تناولهم موضوعات سياسية واجتماعية، كما يتطرقون لمشاكل القبائل والنزاعات بينهم.

ويوضح الباحث والفنان الحضرمي جيلاني علوي الكاف (وقد كان ضمن الفريق الحضرمي المشارك في ندوة الدان بالقاهرة)، وهو فنان وشاعر وكاتب متخصص بالدان الحضرمي، وقد أدلى للأهرام: أن الدان في وادي حضرموت عبارة عن نوعين، أولهما (الدان الحدري)، وهو السائد في المناطق الوسطى إلى انحدار الوادي نحو شبام وسيئون وتريم وغيرها. وهناك (الدان المعلوي) وهو السائد في المناطق التي تقع في عُلُوِّ الوادي نحو منطقة دوعن وغيرها، أمَّا التصنيف الثاني للدان فهو ثلاثي، ويؤلَّف من (الريَض) و(الحيقي) وأخيرًا (الهبيش) المنتشر في البادية، وتصنيف آخر للدان هو (دان الجمّالة) و(الدان البدوي) و (الدان الحضري) في المدن.

وفي يوليو عام ٢٠١٩م نظمت وزارة الثقافة- الجمهورية اليمنية فعالية وأنشطة ذات طابع دولي (ندوة) بعراقة (الدان)؛ كونه أحد أهم العناصر الثريَّة للهُوِيَّةِ الحضرمية.. (العشماوي، الأهرام المصرية)، وقد افتتح وزير الثقافة الأسبق بالجمهورية اليمنية وسفيرها لدى جمهورية مصر العربية (د. محمد مارم) النَّدوة الدوليَّة عن فن الدان الحضرمي، وقال الوزير في الحفل: إن لدى الوزارة توجُّهًا لإعداد أكثر من ملف لعنصر أو أكثر، من عناصر التراث غير المادي في الجمهورية اليمنية، وفي مقدّمتها اللغتان المهرية والسقطرية. وأضاف الوزير في كلمته خلال افتتاح الندوة الدولية التي نظَّمتْها وزارة الثقافة بالتعاون مع منظمة اليونسكو، في العاصمة المصرية القاهرة في إطار مشروع إعداد ملف فن الدان الحضرميّ؛ لإدراجه ضمن القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية. وأن اختيار عنصر الدان الحضرمي لاعتباراتٍ عدَّةٍ؛ كونه يمثل أحد أهم عناصر الهُوِيَّة الفنية الحضرمية، ولأنه يشتمل على أكثر من عنصر من عناصر التراث الثقافي غير المادي يتمثل في كونه فضاءً ثقافيًا وتقاليد شفهية وممارسات اجتماعية.

بل إن انعقاد ندوة فن الدان الحضرمي يؤكد أهميَّة حضرموت المتنوعة التراث، وما تملكه من مخزون ثقافي وتراثي هائل، وفي هذا الصدد استعرض وكيل محافظة حضرموت

(د. سعيد العمودي) ما تمَّ إنجازه في إطار تجهيز ملف الدان الحضرمي لإدراجه ضمن اليونسكو التراثية، وقيامهم بتشكيل فريق عمل متخصص لإعداد تصوُّر متكامل عن كيفية إعداد ملف الدان وإجراءاته، وصدور قرار بتشكيل هيئة استشارية بحضرموت لهذا الملف التراثي المهم، وقرار إنشاء مركز الموروث الشعبي الحضرمي والذي سيقع على عاتقه حفظ التراث غير المادي لحضرموت وتوثيقه ونشره. كما أشار إلى أوراق العمل التي قُدِّمَتْ في ندوة شهر أبريل بمدينة سيئون وأهمية ما احتوتها.

أما أهم أوراق العمل التي قُدمت في الندوة فهي عن خصوصية تعريف فن الدان ومجالسه في حضرموت، التي قدَّمتْها الدكتورة شهرزاد قاسم، الباحثة في معهد الدراسات الأفريقية الشرقية بجامعة لندن. فيما تناول الدكتور جان لامبير خبير فرنسي، دور السياق الاجتماعي وسياق الأداء في آليه التوثيق، متطرّقًا لخصوصية الدان من حيث التلحين وارتجال الكلمات، وهو ما يُعد كنزا إنسانيًا وثقافيًا كبيرًا للإنسانية، مُعرِبًا عن إعجابه الشديد بالأبعاد الفلسفية والحكمية في قصائده.

حضر الندوة عددٌ من الشخصيات الثقافية والمهتمين بهذا التراث الحضرمي الفريد، وفي اليوم الثاني للندوة في دار الأوبرا المصرية شهد حضورًا كبيرًا.. ومن محاسن الصدف حظيتُ بدعوة من الأخ الدكتور نزار غانم، وهو أحد المشاركين في الندوة بورقة فنية تراثية (علمًا أنَّ الكثير من المهتمين بهذا التراث الحضرمي الفريد وخاصة الحضارم الموجودين في القاهرة ليس لديهم علم بهذه الفعالية المهمَّة، ويبدو أن القائمين على الندوة من وزارة الثقافة وجَّهوا دعوات محدودة، وخاصة في اليوم الأول من الندوة؛ بدليل الحضور غير الكبير في قاعة الندوة، على عكس اليوم الثاني في قاعة الأوبرا؛ إذ كان الحضور كبيرًا، وقد وجَّهنا ملاحظاتنا للمنظِّمين، وحينها كان وزير الثقافة مروان دماج موجودًا في القاعة، وفي مداخلتي ألقيْتُ الضَّوءَ على الدان الحضرمي وأهمية هذا التراث الحضرمي غير المادي كهُوِيَّةِ شعبٍ ووطن، وضرورة توثيقه والحفاظ عليه، كما أشرنا في المداخلة إلى عدم كفاية الأوراق التي قُدِّمَتْ عن الدان الحضرمي، أمَّا الأوراق الأخرى التي قُدِّمَتْ في الندوة نفسِها فهي عن الغناء الصنعاني واللغة المهرية والسقطرية، ونرى أنه لا داعيَ لها لأنَّ هذه النَّدوة مخصَّصة ومعنونة باسم الدَّان الحضرمي، أمَّا الغناء الصنعاني واللغتان المهرية والسقطرية فهي مهمة وبحاجة إلى ندوتين مستقلتين؛ لتعطيهما حقَّهما كاملًا بدلًا من حشر أوراقها على حساب الندوة الدولية المخصصة للدَّان الحضرمي، وهذه من المآخذ المحسوبة على المنظِّمين لندوة الدان الحضرمي، وعلى وجه الخصوص وزير الثقافة اليمنية آنذاك (مروان دماج) وأبلغناهم بذلك في حينها.

أمَّا قاعة دار الأوبرا المصرية، فقد شهدتْ حفلًا رائعًا، وبنكهة حضرمية خالصة، وكان الحضور كبيرًا ومتنوِّعًا ومميّزًا، وقد أبدعت الفِرق الحضرمية وفنَّانوها، كفرقة وادي العين للدَّان، وفريق تريم وسيئون وشبام، إضافةً إلى الفنان جيلاني الكاف، الذي أطرب الحضور بصوته الجميل، ومعه عازف العود المتميز الفنان هيثم محمد الحضرمي حفيد الشخصية

الحضرمية المشهورة بغيل باوزير وحضرموت عامة المرحوم سالمين حسين الحضرمي، وفي الحفل شارك أيضًا الفنان الدكتور نزار غانم بوصلةٍ غنائية عدنيَّة، وكان عدد فناني الدان الحضرمي المشاركين في ندوة القاهرة ضئيلًا، الأمر الذي جعلنا نسألُ عن سبب ذلك، فكان ردّهم أنَّ الجهات المنظِّمة في وزارة الثقافة لمْ تسمحْ إلا بهذا العدد الضئيل كوفدٍ فنِّيٍّ تراثي حضرمي لندوة تحمل اسم الدان الحضرمي، وبقيَّة المشاركين في الندوة بل الأغلبية مسؤولون في وزارة الثقافة اليمنية، ومنهم مسؤولو فرع مكتب الثقافة بوادي حضرموت، إضافة إلى ممثلي الغناء الصنعاني واللغة المهرية والسقطرية في هذه الندوة، وكل ذلك على حساب ندوة الدان ووفدها الفني التراثي.

- جان لامبير وبن هـــــــاوي:

على هامش فعالية الدان الحضرمي بالقاهرة كان لنا شرف اللقاء بالباحث الخبير الفرنسي جان لامبير، المهتم بالتراث غير المادي لجنوب الجزيرة العربية، ومنه الدان الحضرمي وغيره من تراث حضرموت المتنوع. وقد حَظيتُ بجلسة مع الخبير الفرنسي في اليوم الأول من الندوة بفندق الدقي، ودردشنا عن الدان الحضرمي، وكذلك في اليوم الثاني في قاعة دار الأوبرا المصرية، أمَّا أهم ما دار بيننا من حوار فهو عن أهمية فن الدان الغزير بموضوعاته، وما عالجه شعراء الدان من موضوعات المديح والغزل والفخر، فضلًا عن تناولهم موضوعات سياسية واجتماعية، وغيرها من مشكلات المجتمع الحضرمي ونزاعاته القبلية، وقد أكَّد الباحث الخبير لامبير أن مثل هذا التراث المتنوع في موضوعاته ليس تراثًا حضرميًا فحسب، بل هو تراثٌ إنسانيٌّ، أي تراثٌ ثقافيٌّ غير ماديٍّ للبشرية جمعاء؛ لأنه فنٌّ شعريٌّ غنائيٌّ ثريٌّ بعناصره المتنوعة، لذلك يجب انضمامه إلى قائمة التراث العالمي الثقافي غير المادي (اليونسكو)، كما أكد علينا كباحثين وأكاديميين أن نهتم بهذا التراث، وتوثيقه والحفاظ عليه من الاندثار، وأن نحثَّ أبناءنا وطلابنا الحضارم في الجامعات والمعاهد ومراكز الدراسات الاهتمام بهذا التراث، ودراسته بعمق؛ نظرًا لما يحويه من مسائل متعددة في صميم المجتمع الحضرمي وتاريخه السياسي والاجتماعي والثقافي. كما أكد لي ومن معه من المختصين في مثل هذا التراث أن لديهم إلمامًا عن فن الدان لوادي حضرموت ويرغبون في زيارة حضرموت للاطلاع على هذا الفن في أرض الواقع، وخاصة في ساحل حضرموت؛ حتى تكتمل لهم الصورة عن فن الدان الحضرمي (داخل حضرموت وساحلها). لذلك نأمل أن يتسنى لهم ذلك ويقوموا بزيارة حضرموت والاطلاع عن فنّها وتراثها بصورة حية على الواقع، وأن يتنقلوا من منطقة إلى أخرى ليتعرفوا على (دان الجمَّالة) و(الدان البدوي) في وادي حضرموت، والدان الحضري في المدن الرئيسة بوادي حضرموت وساحلها وغير ذلك من هذا الفن المتنوع الغزير. وهنا يأتي دور الجهات المعنية وخاصة في حضرموت وسلطتها المحلية، وأن تتابع الجهات العليا في الدولة أو جهات داعمة لزيارة مثل هؤلاء الخبراء لحضرموت والاطلاع على تراثها وفنونها المتنوعة.

مقترحات وتوصيات :

1- نوصي الجهات المعنية في الدولة وخاصه في حضرموت (السلطة المحلية) وكذا المهتمين والمحبين للتراث، الاهتمام بهذا التراث (الدان) وحمايته من الطمس

والاندثار وتوثيقة كتابيًا وصوتيًا.

2- نوصي الجهات المعنية وخاصة في حضرموت متابعة اليونسكو لاستكمال اجراءات طلب انضمام تراثنا (الدان) لقائمة التراث العالمي غير المادي، وإعلان ذلك رسميًا.

3- نقترح على جامعاتنا ومراكزنا البحثية والتراثية بتشجيع وحث الباحثين والأكاديميين لدراسة هذا الفن المميز، وتوفير الدعم لدراسة هذا التراث وتحليله وإخراجه في دراسات علمية أكاديمية تراثية.

4- نقترح على الجهات المعنية بالتراث في حضرموت، وعلى مركز حضرموت للدراسات والبحوث التاريخية والتوثيق والنشر، الاهتمام بمثل هذا التراث الحضرمي الفريد، والقيام بمعرض لهذا التراث أو تخصيص عامٍ خاص بالفن الحضرمي التراثي، وهو الأمر الذي يحدث في عددٍ من الدول العربية، مثل: (عام فن الدان الحضرمي)، أو (عام فن الرقص الشعبي)، أو (عام الأغنية الشعبية الحضرمية) وغير ذلك، كما نقترح ان يخصص عدد خاص من أعداد مجلة حضرموت الثقافية لهذا التراث (الدان أو غيره من التراث غير المادي)، ونقصد مثلًا: العدد الأول من كل عام يخصص لموضوع تراثي أو فني أو غير تراث حضرموت غير المادي.

المراجع :

- عبد الرحمن جعفر بن عقيل: عمر بامخرمة السيباني حياته وتصوفه وشعره، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م.
- عبد القادر محمد الصبان: الدان في حضرموت، ط١، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، ٢٠٠٤م.
- عبد القادر محمد الصبان: الشعر الشعبي في حضرموت (بحث وتوثيق) دار حضرموت للدراسات والنشر، ط١، المكلا، ٢٠٠٤م.
- جيلاني علوي الكاف: مغني الدن المخضرم-عوض يسلم بريك، مجلة الأمل (العدد ١١٧) يناير ٢٠١٢م- حضرموت، ص٢٢-٢٣.
- جيلاني الكاف: مغني الدان- يسلم هادي فهمان، مجلة المل، عدد ١٢١، حضرموت، مايو ٢٩١٢م، ص٢٨-٢٩. إضافةً إلى الأعداد ١٥١و١٥٣ من مجلة الأمل ومجلة لفن الدان الحضرمي.
- جمال النظاري: الهجرات الحضرمية الحديثة إلى الهند وتأثيراتها منذ بداية القرن١٩ حتى منتصف القرن٢٠م، كلية الآداب، جامعة الحديدة.
- بعض المقابلات مع شخصيات حضرمية مهتمة ومحبة لفن الدان الحضرمي.

العمارة و الأسطورة

(قرية هود بحضرموت أنموذجاً)

الحلقة الثانية – الأخيرة

م/ محمد سالم مصيباح

من أهم خصائص الفكر الصوفي وكيف أثر في عمران بعض مناطق حضرموت:

أولًا: اتصف الفكر الصوفي بخصائص وأدبيات، كان من أهمها الكشف والرؤيا المنامية، وهذا الأمر أدى إلى كشف عدد من القبور المخفيَّة، وكأنه (تحديد جغرافي) بالإحداثيات لمواقعها، فقد جاءت الرؤيا لتحديد عدد من المزارات لم تكن معروفه من قبل، مما أدى إلى تحديد مواقع مكتشفة، وتقديس أخرى، وأسهم في نمو تجمعات عمرانية جديدة، بل تم إلباسها لباس القداسة، كما عرفت تجمعات جديدة عرفت باسم الحوط (الحوطة) لشخصية دينية لها ثقل ديني، يسكن حولها السُكَّان، وزاد من أهميتها إقامة ضريح لمؤسسها الولي الصالح، وتشكلت على الخارطة العمرانية لحضرموت مواقع جديدة، لم تكن معروفة من قبل، ونتج عن ذلك بناء عدد كثير من الأضرحة، وتأسيس زيارات موسمية لهؤلاء، ومن خارطة استقرائية نعرض الرحلة التاريخية لمسار بناء الأضرحة في حضرموت، كما نوضح موقع بناء ضريح هود في إطاره الزمني من بين عدد من الأضرحة، وكانت المكانة نفسها قد أخذت لها مواقع مرتفعة على الجبال، ومنها (قبر المهاجر، وقبر عباد بن بشر، وقبر هود) وأخرى. صورة (١).

ثانيًا: من خصائص الفكر الصوفي الزهد بالتوجه إلى الآخرة وإلى الجنة، ولم يكن ما يشغل الفكر وقت ذاك أي محاولة للتعايش مع الدينا، بل كان الزهد والتطلع إلى الآخرة

مطلبًا يفي بالمتطلبات الروحية، لذا وجد الناس أنفسهم أن الواجب عليهم بناء المساجد والزوايا والأضرحة والأسبلة وحفر الآبار والإنفاق عليها وتخصيص الأراضي الوقفية لها لاستمرارها، كل هذا انعكس على عمران المدن والقرى والتجمُّعات العمرانية، فكان غالب الأراضي قد خُصِّص لخدمة الوقف، وهو أثر محمود في ذاته إذا وضعناه في خانة الأعمال الخيرية. خارطة (٤-٦).

خارطة ٤-١ موقع الضريح متوجه تماماً في جهة الشمال الفلكي هذا يدل على إن المصمم على علم بالإتجاهات الأربع
المصدر برنامج Google earth

ثالثًا: من أبرز خصائص الفكر الصوفي تقديس الأشخاص ومآثرهم، والتبرك بهم، وتخصيص أوقات لشد الرحال لهذه الأماكن، والحث على ذلك، بل والمبالغة في الاهتمام بها كجزء من النظام التعبُّدي، وقد تتمُّ الاستعاضة **عنهم بالرمزيات**، والاهتمام بالبنايات التي تضم رفات جثامين الأضرحة، وإلباسها شيئًا من (القداسة)، وجعلها تنوب عنهم، وهنا جاء التوظيف لعناصر من الطبيعة ومن العمران والاستئناس بها من (جبال وصخور وكهوف ومبانٍ ومآثر)، فنجد المتعبَّدات وقبور أهم الشخصيات في الجبال، وهي فلسفة وإقناع منطقي ذهني، يؤكد الأهمية لهذه الأمكنة بجعل هيبة لها تعظيمًا للأشخاص فيها، وهو توظيف واضح لمنتج العمارة، كما يتم حولها نسج القصص الخيالية المغلفة بالغلاف الديني، والتي ترسبت في الذاكرة الذهنية، وتنوقلت في قصص الحكايات الشعبية الخيالية والمقولات، منها (ومن زار قبر كذا حصل له كذا... إلخ).

رابعًا: من خصائص الفكر الصوفي المنعكس على العمارة تأثر بناء المساكن بجوانب اعتقادية في بعض المناطق، منها طقوس (ممارسة بناء المساكن في بعض مناطق حضرموت)، حيث تتم إراقة دم ذبيحة على أول طوبة أو مدرة (لَبِنَة) في بناء المسكن، وألَّا يُجْعَل بابٌ في جهة القبلة[1] وغيرها. ومن محاسن الفكر الصوفي على العمارة أنه حافظ على احترام فنون العمارة التي سبقت تاريخ العمارة الإسلامية وما بعدها، فلم يكن هذا الفكر عنيفًا، ولم يُحدِثْ قطيعة مع الفنون التي سبقته، بل تعايش أيضًا مع فنون عمارة ما قبل الإسلام، وقد يكون ذلك جهلًا منه، أو ربما احترام مآثر الماضي كوديعة حافظ عليها، وهذا خدم دارس تاريخ العمارة في حضرموت. ففي المساجد التاريخية أو المُجَدَّدة وقت ذاك وُجِدَتْ فنون عمارات مختلفة سبقت الإسلام، منها (النجمة السداسية، ونصف قرص الشمس، وأشكال الصليب، والمحاريب التي يعود تاريخ بعضها إلى القرن السابع وربما إلى أقدم من ذلك. إنَّ المباني الدينية تعد أرشيفًا لفنون العمارة المختلفة حافظ عليها الفكر الصوفي.

خلاصة القول إن الفكر الصوفي أثر في عمارة بعض مناطق حضرموت على المستوى التخطيطي لنمو العمران في تنامي الأوقاف، وعلى المستوى التصميمي في منتج مباني العمارة

١ بن شهاب احمد. [٢٠٠٤] عادات بادت. تريم للدراسات والنشر.

التي تأثرت بهذا الفكر، مع أنه سبق هذا الفكرَ (الفكرُ الإباضي)[1] وتأثيره كان واضحًا في عمارة المساجد القديمة؛ إذ كان ذلك الفكر يمنع بناء المآذن ولا يعدُّها من المسجد[2]، فبنيت المساجد بغير مآذن، وهذا ما يعلل تأخر بناء المئذنة في حضرموت؛ إذ كان أقدم بناءٍ للمآذن في نهاية القرن الثامن الهجري، وهذا واحد من تأثيرات الفكر الديني الإباضي في العمارة في حضرموت.

المخطط العام لقرية هود: معاني توظيف الأسطورة في العمارة ودلالاتها:

تصنف قرية هود بعمرانها الحالي ضمن نماذج القرى التي نشأت بفعل العامل العقدي، المعتمد على الأسطورة، المستمدَّة من الطبيعة؛ كونها تلبي حاجة المجتمعات البدائية، التي تعيش على المثيرات، ودوافع الطبيعة، ممزوجة باسم الدين، فكانت الأسطورة المفسِّر والمحضن الذي ارتكزت عليه مفردات التخطيط العمراني للقرية، بتوظيف مكونات الطبيعة الملفوفة بمزيد من الأسرار والألغاز، القادمة من الروايات والمتناقلات والرمزيات. وفي هذه الدراسة لا يود الباحث استدعاء الروايات المتناقلة ليتصارع معها بين الردِّ أو القبول، لكن الدراسة أمام عمران يستقي جوهره من مرتكزات واقعية، تمثلت في (رسالة النبي هود)، حسب ما ورد في القرآن الكريم، وهي محصِّلة قد تكون مغلوطة في تفسيرها بهذه الكيفية، وفي هذا الموقع خاصَّةً، والذي يُفسر في واقعه بهذه الصورة، وفي هذه المنطقة باسم الأحقاف من دون أدنى برهان منطقي عليه، ولذا يفسر هذا الإنتاج، وبهذه الصورة بأنه مطلب بشري، تمثل في اختيار قرية وتخطيطها وبنائها، جاءت (الرمزية) موظّفة فيها مع المكوّنات الطبيعية وفق تصوُّرات المفهوم المقدَّس كما يظن في هذا الموقع، تمثل في إيجاد مواقع لأشكال متعددة من (الحجر والنصب والقبر والبئر والنهر) والكثير من الرمزيات الأخرى، تم خلق ارتباطٍ بينها لتعبِّر عنْ دلالة رموز للغيبيات، ومحاولة نسج علاقات بينها ببعدها المكاني، وبعد زمني رابع يتحقق بمراسيم الزيارة السنوية[3]، وهنا تحاول الدراسة تفكيك محتوى هذه المعاني من خلال الآتي:

قامت الدراسة بدايةً بنزع النصوص والروايات التاريخية، وتمَّ التعامل مع القرية كمكوِّن تخطيطي مجرَّد بشكله الطبيعي بثوابت المكان وموجوداته، وهنا يُلاحظ الانطباعية في المخطط العام، فالثوابت العامة لا يمكن محوها من مخطط القرية، فالجبل وشكله الهندسي القريب من القوس، والنهر المنحني، عنصران طبيعيان يسيطران على الرؤية في المكان، ونجد محاور الأبعاد الهندسية تخاطب الذهن العقلي في حوار رمزي، ونجد له عددًا من المعاني الدلالية والأبعاد الطقوسية، منها (مكونات الموقع) في قرية هود، وفيها ثلاثة عناصر رئيسة تسيطر على المكان، هي: الجبل، والنهر والبئر.

نتائج تحليل الموقع:

أولًا: يقع ضريح هود بحسب الأحداثيات الجغرافية التالية (Latitude: 16°6′6.41″N / Longitude: 49°34′6.02″E)[4]، ومن

١ الفكر الإباضي ينسب إلى عبدالله بن إباض (١٢٩هـ)، واستمر في حضرموت فكرًا مؤثرًا حوالي ٤٠٠ سنة.
٢ عثمان، محمد، [٢٠٠٤] فقه العمران الإباضي حتى القرن السادس الهجري، جامعة سوجاج، وزارة الأوقاف عمان، ص ٤٥١.
٣ تقام الزيارة في شهر شعبان من كل عام. الصبان، ص ٢٧.
٤ Japan Consortium for International Cooperation in Cultural Heritage[٢٠١٠]

خلال التحليل الجغرافي وجد أن موقع الضريح يقع هندسيًا في منتصف المسافة بين النهر ونهاية الجبل، وهذا يدلل على أن اختيار الموقع تمَّ بدراسةٍ وعلم، كأن المسافة محسوبة في المنتصف، وهذا معطٍ يؤكد أن تحديد القبر لم يكن عفويًا كما جاء في الروايات بأن القبر كان تحديده في (كهف مشرف أسفل وادي الأحقاف)[٥].

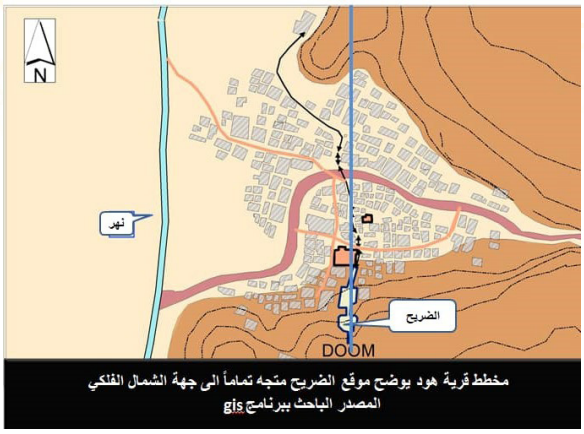

مخطط قرية هود يوضح موقع الضريح متجه تماماً الى جهة الشمال الفلكي
المصدر الباحث ببرنامج gis

ثانيًا: تحديد موقع القبر: موقع الضريح مرتفع بحيث يشاهد من المنطقة كلِّها، وهذه فلسفة في التصميم المعماري، لا نستطيع أن نقفز عليها، وهي مخاطبة لحظية مغلَّفة، تفيد أنَّ قوم هود أقوام كبار، ويسكون الجبال، وهذه دلالة على معنى اختيار موقع بتوظيف الرؤية العامة للمكان، ولم يأتِ اعتباطًا بل هو مقصود في هذا المكان، وجاء مفسِّرًا ليد المصمِم المتمرس على اختيار القبر في صخرة (حجرة) على الجبل ومن ثم الضريح، وهذا يتقاطع حتمًا مع فلسفة التصميم للموقع العام؛ لأن اختيار موقع الضريح كان مدروسا في الثقافة الرمزية، ويعني أنَّ الآلهة تسكن الجبال، وهذا بالقرب منها[٦]، ربما يكون قادمًا من الثقافة الهندوسية[٧].

٥ محمد عبدالقادر بامطرف نقلًا عن الهمداني. (الصبان، ص١٣)
٦ الرموز والفن في الأديان، ص٤٠٧.
٧ يذكر الشاطري (ومن القبب التي بنيت بمباشرة وإرشاد بعض المهندسين الهنود قبة نبي الله هود، وهو نفسه بنى منارة مسجد بلفقيه بالرضيمة بتريم؛ إذ جلب السيد أبوبكر بن محمد بلفقيه من الهند سنة ١٠٩٧هـ) ص ٢٧١. وهنا يلاحظ وجود تشابه كبير في فلسفة التصميم مع الثقافة الهندوسية.
٨ فاستو هي فلسفة تصميم هندية قديمة تهدف إلى تحقيق التناغم بين البشر وبيئتهم الطبيعية. ومن بين الطرق التي يتم بها ذلك تقدير التوجيه الاتجاهي والحركة في الفضاء، وهو ما أثبت قيمته للمهندسين المعماريين في جميع أنحاء العالم الذين يحاولون تحقيق التوازن بين هياكل المباني من جميع الزوايا حتى يتمكنوا من تعظيم التعرض لأشعة الشمس.
٩ وفقًا لتعاليم (لفاستو) قد يتسبب عيب فاستو في المنطقة الجنوبية في المرض أو الحياة القصيرة.

ولنوضح ذلك من الممكن أن نقرأ مقارنة بسيطة بين ضريح آخر يُدعَى (ضريح النبي صالح)، في وادي سر بحضرموت، والذي لم يحظ بشيءٍ من مظاهر القداسة في التصميم، وإنما جاء موقع الضريح يتيمًا عن موقعه التخطيطي، ولم يكن مرتفعًا على جبل، وحتى إذا ما عقدنا مقارنة وجدنا ضريح هود يتفوَّق على كل الأضرحة، فوجود ضريح هود مرتفعًا يؤكد العلاقة والربط بين موقع الضريح وقداسة المدفون فيه، فكل شيء كلما ارتفع عن الأرض ظهرتْ قيمته وفخامته وأهميته وقداسته.

ثالثًا: وجدت الدراسة أنَّ تصميم الضريح وبناءه متَّجهًا تماما إلى جهة الشمال الفلكي، وهذا معنى عميق يدلل على توجيه مبنى الضريح بدقة، وجاء مفسِّرًا لإيمان المصمِّم بالقوى الأربع في المعتقد (النار، والماء، والأرض، والهواء) قادمة من فلسفة (فاستو)[٨]، والتي تعد اتجاه الشمال الشرقي موقعًا ميمونًا لموارد المياه، ويمكن إدخال أكبر قدر ممكن من أشعة الشمس على الضريح بحسب معتقدات الديانة الهندوسية[٩]. وهنا قد يذهب البعض إلى أنَّ الضريح ما هو إلا واحد من (المعليات)، أو من بقايا المعابد

القديمة في حضرموت، وهذا يظل احتمالًا غير محقق ما لم تصل إلينا أية دراسة محققة عنه.

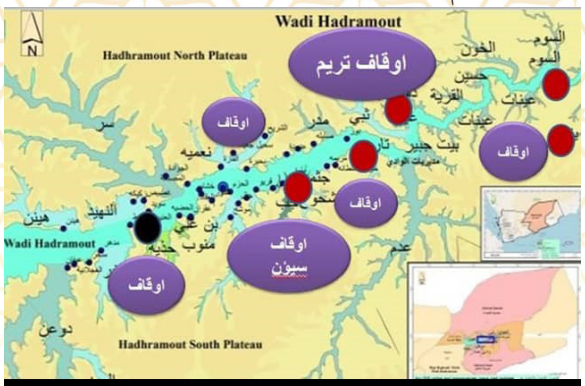

خارطة ٣-١ اهم مناطق وادي حضرموت (تأثر الزهد في الفكر الصوفي على عمران المناطق بكثرة الأوقاف وتأثيره على النمو العمراني) .
المصدر الباحث بالاعتماد على حصر ميداني لمكاتب الاوقاف بوادي حضرموت والصحراء ٢٠٠٢م

رابعًا: لوحظ أن توجيه القبر يذهب في الاتجاه الجنوبي، وهنا معنى جديد مرتبط بعقائد الحضارات، التي نُقلت إلى حضرموت في حالة غفلة فكرية، وهي نقطة جوهرية تؤكدها لنا علاقة الربط بين مكونات قرية هود وضريحها، ويمكن توضيح ذلك من خلال معتقد قادم من حضارات سابقة؛ إذ سيطرتْ في بعضها حركة الشمس على كثير من الشعوب، بل عُبِدت الشمس، وفي الفكر الفرعوني في مصر، حيث إن معتقد حركة الشمس تمثل وجود الحياة والموت؛ ففي وادي النيل نجد إلى الشرق تكون (بلاد النور أو البعث) وإلى الغرب من النيل تنحدر الشمس وتنطفئ منه وهي منطقة الظلمات وقطر الأموات في معتقدهم، فكانت النتيجة على مخطط عمران الأرض أن مدن الأحياء نشأت في الجانب الشرقي من النهر، أمَّا مدن الأموات والقبور فكانت منعزلة في الجانب الغربي حسب معتقدهم، أمَّا في المعتقدات الهندية فالشرق يتوجَّه إليه الهنود، والجنوب بلد الموتى، بمعنى أن الجنوب هو طريق الأموات والقبور[1]، وهو ما تُصمَّم عليه المعابد الهندية الموقوفة على المظاهرة الخيرة للآلهة؛ لكي توجه إلى جهة الشمس المشرقة، بحيث تصيب أشعة الشمس معبد الآلهة لأيام عدَّة، في حين يكون الجنوب في معتقدهم طريق الأموات والقبور[2]. والحالة منطبقة تمامًا على ضريح هود، حيث القبر يمتد القبر إلى الجنوب. والدراسة هنا لا تريد أن تسقط ما جاء في معتقدات المعابد على تحليل ضريح هود على الرغم من انطباق تام (للمعتقدات الهندية)، وإنما تريد توضيح أوجه التشابه بين معاني التوجيه. كما وجدت الدراسة أنَّ مَنْ صمَّم عمارة المشهد بصورته الحالية والمكتوبة في أدق المراجع تُرجِع التصميم إلى الهنود[3]، هذه الروابط وإن كانت داعمة لنا لكنَّ الدراسة لا تريد أن تتعجَّل في الحكم بها؛ لأن الدراسة هنا ليستْ مسؤولة عن فصل العلاقة بين الدِّين والأسطورة، بقدر ما تبين مقاربات هذه العلاقة كنتيجة من نتائج تحليل البحث، والتي تراها معقودة معها في هذا التكوين، مضافًا إليها الطبيعة.

خامسًا: مما نجده في الموقع توظيف (الصخور) كعنصر من عناصر العمارة العضوية في حضرموت[4]، فالناظر لتاريخ العمارة في حضرموت يجد أن أغرب ما يمكن الكشف عنه الجمع الذي تمَّ بين العمارة الإسلامية وعناصر من الوثنية[5] تمثَّلتْ في الصخور،

---

١ وفقًا لشاسترا، فإن الجنوب هو اتجاه ياما الذي يتحمل مسؤولية الموت. من تعليم فاستو (حذرًا أثناء التخطيط لبناء باب به باتجاه الجنوب، حيث إن تأثيرات الجنوب مدمرة للغاية).

٢ (فن) ٣٧٤

٣ الشاطري. محمد [١٩٩٨]، أدوار التاريخ الحضرمي.

٤ يمكن القول إن حضرموت عرفت العمارة العضوية في هذه البناية قبل مجيء (فرانك لويد رايت) رائد العمارة العضوية في النصف الأول من القرن العشرين. (١٨٦٧-١٩٥٩م).) الموسوعة البريطانية (الإنجليزي.

٥ Flood Damage Assessment Report on the Cultural Her-itage in Hadramawt, Yemen, (P. 84) .

حيث تم توظيفها وتقديسُها بالتبرُّك والتوجُّه إليها، وهي من معاني الوثنية، وجعلها تقوم مقام البديل عن الحقيقة، وهي علامات لم تكن تعهدُها المباني القديمة في حضرموت[٦]، صورة (٢). صورة (٣). ووجودها في مكونات الضريح جانب متفرد. يقول العالم الإنساني (ليونيل تيغر)[٧] في كتابه «التفاؤل طبيعة الأمل»: (هناك ميل في البشر بشكل واع لرؤية ما يتمنون رؤيته، ولديهم صعوبة بكل ما تعنيه الكلمة في رؤية الأمور ذات المفهوم السلبي، وسهولة متزايدة في رؤية الأمور الإيجابية، فمثلًا الكلمات التي تُحدِث شُعُورًا بالقلق تتطلب الإضاءة عليها بشدة أكبر قبل ان تفهم). هذا التشويق واضح في نقطة رأس القبر، وهي فتحة توظيف الصخرة؛ لتقوم مقام منفذ لدخول ترددات الدعاء، وأن المثول بالقرب من الصخرة، وتدفُّق الكلمات الرهيبة من الدعاء والقراءة، وغيرها من الشعائر، والتي تحذر كل واحد من الزوَّار من أن يبذل جهدًا مضاعفًا للوصول إلى القربة، هي حالة قلق تتطلب المزيد من الإضاءة عند هذه النقطة، في الوقت نفسه تعمل بقية الصخور على اكتمال الدائرة؛ فهناك الصخرة المتحجّرة المسمَّاة الناقة، وهناك صخرة عمر (حصاة عمر)، وهناك البئر، وهناك (صخرة) حجرة ملساء على السُّلَّم، وهناك النهر للغسل من الذنوب، مثل ما وجد نهر الكنج الهندي[٨]، كما نجد الزائر الذي ينوي الزيارة عليه أن يبذل مزيدًا من الجهد الرياضي، ويقطع مسافات من أقرب موقع للانطلاق بعد الغسل في النهر، ثم إلى موقع (حصاة عمر)، وهو فعل تبركي لشخصية دينية عاشت في القرن التاسع الهجري، أدَّتْ ركعتين عند (صخرة)[٩]، تبعد عن البئر المسمى (بئر التسلوم) بنحو ٣٢٢م، فكان موقع هذه الحجرة لا بُدَّ أن يصبغ بالصبغة الأسطورية، فتمَّ البناء حولها، ويمكن اعتبار (حصاة عمر) فعلًا جاء متأخرًا، أُتِيَ به مضافًا إلى مخطط القرية، حيث إنها لم تكن ضمن خطة المخطط العام المدروس للقرية، لذا لم نجد عليها انطباق المحورية الهندسية أو التوافق مع خطوط الطول والعرض.

توظيف صخرة لتكون راس القبر

توظيف الصخور لتكون جزءً من التصميم

Flood Damage Assessment Report on the Cultural Heritage in Hadramawt, Yemen.

٧ ليونيل تايجر أستاذ الأنثروبولوجيا الأمريكي ولد ١٩٣٧م.

٨ بامؤمن، المرجع السابق.

٩ الصبان.

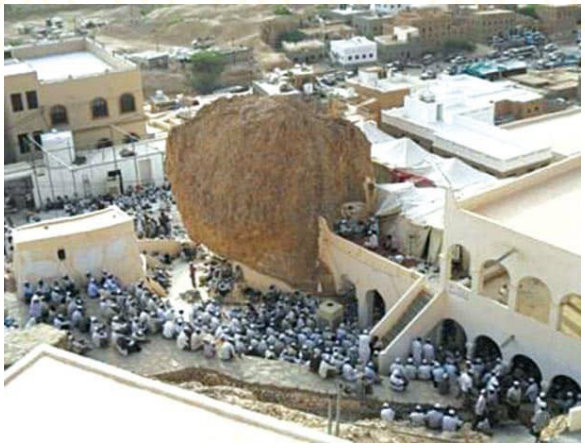

الغلاف الأسطوري:

يمكن قراءة الغلاف الأسطوري في هذه القرية في توظيف مكوِّنات المكان من (نهر، وبئر، وصخور، وضريح)، وجعل علاقات زمنية بينها عن طريق تأدية الشعائر فيها بصور درامية؛ لتقوم مقام الطقس التكريسي تحت مسمَّى (زيارة النبي هود)، التي لم تكن في الأصل إلا نسقًا من الاحتفالات التي ترتب حسب فهم شخصيات عاشت في القرن التاسع الهجري[1]، التي استطاعت أن تنسج قصة خيالية، بإعادة حدث أسطوري تاريخيّ، وقع من زمن سحيق، وذكره القرآن الكريم كداعم للحدث، من غير يقين حقيقي أن الأحداث دارت حقيقةً هنا في هذه البقعة من الأرض، وإنما فرضت غيبًا، وغلَّفت لها شعائر أسطورية؛ لضمان إحلال البركة، والتأكيد على الصدقية لها، فلو جُرِّدَتْ قرية هود وضريحُها من فعل الزيارة بحسب تسلسلها الزمني لفقدت كل معنى لها، ولفقد منتج العمارة غرضَه الذي بني من أجله. لذا فقد كانت تأدية الشعائر تتطلب حبكة درامية، سبقها تصميم وبناية، وهي بيئة المكان من (النهر، والبئر، والأدراج المرتفعة، والأعمدة التي تحمل سقفه الأروقة حول الصخرة وقبة الضريح)، وكلها أشكال تشير إلى موضوعات أسطورية ومحطَّات تقصدها النفس البشرية لتفريغ محتوى روحي تُرجِم بهذا الشكل، وتنوعت عددٌ من الفئات[2] في أداء دورها الطقسي المؤيِّد تجاه النبي هود، وكانت موزَّعة على سادات القوم، فجاء لكل منهم حصَّتها من الشعيرة الطقسية، يقول الصبان: (تتخلل الزيارة (الدخلة)، وتعني حشدًا دينيًا طقسيًا، تقوم به فئة من العلويين، تقام في زمن محدَّد من فترة الزيارة، وتعرف باسمهم، وهو تقسيم مجزي في نظر المؤسسين لهذه الشعائر، بأن تشترك فيه نخب من العلويين كجزء لا يتجزأ من مراسيم زيارة هود، لكنه يقرأ بأنه ثمرة لأسطورة الشعائر الدينية لزيارة هود، وما هي إلا تخيلات وتأملات وإجابات لمعضلة ميتافيزيقية روحية صادقة في معناها، يضاف إلى أنَّ روحها العام تأسس بهذه الصورة في القرن التاسع الهجري، ونسجها رجال ذلك الزمان، ويرجع الفضل في استمراريتها تغذيتها ودعمها بالحجج من أعلام الفكر الصوفي، الذين فعلوا ذلك من رغبة التعاطف مع رسالة النبي هود، وإمعان النظر فيها، بل برعوا في أدائها وإخراجها بشكلها المُصدق إليهم، ولعلهم وجدوا فيها

١ انتقلت الزيارة إلى الطريقة الصوفية في عهد العيدروس. (الصبان ص٢٦).

٢ من بيوت العلويين (دخلة). (الصبان ٤١).

مناسبة لربطها بسوق قديم، وربما دفعوا ثمنًا في سبيل المحافظة عليها واستمراريتها، ويرونها في نظرهم رصينة، ويجب أن تستمر حتَّى وإن جنح البعض لنقدها، والباحث هنا ليس بوسعه أن يؤيد أو يعارض أو يفصّل العلاقة عن هذه الزيارة وشعائرها، وإنَّما يرى علاقات متينة منسوجة بين الأسطورة والدّين، ويكتفي بالقول إن الشعائر تغلف المعنى، وتكمل المشهد الأسطوري، الذي حرص عليه **المؤسسون**، تشبه تمامًا طقوس ترانيم المعابد، وهو ما قد يبدو للفكر المتشكك أنه غباء في التفكير، وعذرًا لتأييد النبي هود وقومه جاء هنا في هذه القرية تحت ضغط المتناقلات والروايات التي تمَّ تسمينها عبر الزمن، وكلها حتمًا ستدفع نفسيًا بالتأكيد على وجود القبر في هذه البقعة. وهنا يعلق الباحث في دراسته هذه أنَّه لا دخل له في مشروعية هذه الزيارة أو الجواز من عدمه؛ لأنه يبحث قضية أسطورية وُجِدَتْ معقودةً في هذه القرية، ويتلمَّس استئناسها مع العمارة، وقد وجد لكي تستمر القصة أنَّه لا بُدَّ من إقامة أسطورة لها من الشعائر الدينية والعمل على استمراريتها. صورة (٦).

الخاتمة:

طرقت الدراسة قرية هود بمحافظة حضرموت إلى الشرق من تريم، وهي صورة حيَّة من الاعتقاد الأسطوري، تمَّ إلباسه المشروعية الدينية، فكان التكوين المعماري قد جمع محتوى العمارة الإسلامية وشيئًا من نقيضها، وهو المحتوى الوثني ومحتوى الرمزية، ونسجت حولها الأساطير، وكل هذا صنع بعناية مدروسة، تكشف عن إشارات وفدتْ إلى عمارة حضرموت من ديانات أخرى، ولعلَّ أقربها الديانة الهندوسية، فكان توجيه الضريح إلى الشمال الفلكي تمامًا وهو ما يترجم معنى الإيمان بالقوى الأربع بحسب معتقدات (فاستو)، حيث صُمِّمَ عمران القرية وفق مبادئ الهندسة والرياضيات بصورة دقيقة، ولم يكن عفويًا، أو أنه إسقاط لموقعٍ ما جاء في الروايات (الكثيب الأحمر)، كما أن وجود الصخور في المشهد يترجم تأثير الفكر الوثني، وليس من صميم العمارة الإسلامية تقبّله الفكر الصوفي الذي ساد وقتذاك، والذي كان يعاني من رواسب فكرية في الاعتقاد سيطرتْ على عقله وجاءتْ مُفَسِّرة هنا بصورة قرية يقودُها سلوك الصالحين، وكان زمن نشأتها بهذه الكيفية في القرن التاسع الهجري[٣]، وهو القرن الذي تزامن مع تنامي خصائص الفكر الصوفي، ويمكن تعليل ذلك (لغياب الروح النقدية والعقلية العلمية)[٤] في ظل فكر يمكن أن يُوصَف بأنه (يعيش حالة خرافية نشطة)[٥]، تمَّ تأمير هذه الحالة على الناس بطريقة غير تعسُّفية، يسهل تقبُّلها وممارستها على العامة من الناس، بل كانت الرمزيات موجودة فيها وملموسة ومقنعة، وحتمًا ستقود التفكير بوساطة الرمز إلى ثقافة التعبير الحدسي التي يحتاجها الإنسان ليتوسل بها في المسلك الأسطوري؛ لتكريس أفكاره وتصوراته، عبر التخطيط الانتشاري المحوري

٣ الصبان، ص ٢٧.

٤ كما يقول (محمد الجابري) ص٦ - علي أسعد، اتجاهات التقليد والحداثة في العقلية العربية السائدة.

٥ كما يقول (إبراهيم بدران). المرجع السابق.

حول مركز الضريح، في القرية، فكان التخطيط العام للقرية والسوق القديم والضريح ليست كما كانت حسب زعم الروايات (كثيب أحمر)، وإنما جاء حسب المصمّم وما أراد أن يكون منها كمكان للممارسة النشاط التعبدي، وهو قفز على الحقيقة المصبوغة بالدلالة الأسطورية؛ كونها مسلكًا في حقيقة أمره يُخفِي نوايا ومقاصد تحت غطاء كثيف من التأويل والتصرفات البشرية جاءت تحت سقفٍ طقسي شعائري من الآيات والأدعية والأحاديث، فلو لمْ يصنعوا مثل هذا الأعمال لمْ يؤمنوا بها أصلًا، وهنا تكوّن الخلط بين ما ذكر عن قوم هود وما اكتشف بهذه الكيفية، فمن الطبيعي أن يخضع المنتج المعماري لقناعات عصره، ومن الممكن أن يتم التنقيب الأثري وتكشف الحقيقة! لكن هذا لم يتم حتى الآن، وهو تعارض قد يؤدي إلى تغيير فكر أَلِفَهُ الناس، فالأثريون يملكون أدوات الكشف الحقيقية، وهذا سيؤدي إلى تصادم مقلق إذا تم فيه التنقيب الأثري وكشف الحقيقة من زَيْفِها، وهو ما سيحرك جذور فتنة نائمة، لها أكثر من أربعة قرون، مبنية على اعتقاد أسطوري ديني مقدَّس، لا يقبل النقاش، وإذا ظهر خلاف ذلك فستسقط كثير من مباني مملكة (المتناقلات والمرويات المقدسة غير الصحيحة) عن تعاليم التراث الإسلامي، وسيظهر مدى التلاعب بالنصوص والأحاديث، والروايات وتوظيفها، لحاجة الاحتفالات والشعائر الممزوجة بالدِّين، ومَنْ يحاول أن يقشع هذه الأوهام يُصبِح مذنبًا، ويكون من الخطأ اليوم محاولة إقناع الناس السُذَّج بالمحاجَّة العقلانية، ولا يصح لنا أن ندفع وننزل إلى مستوى الناس وتفكيرهم فنصطدم معهم بحُجَّة أن ما يفعلونه هو خطأ، ولكن الأمر يتطلب لزومًا انتظار الزمن؛ لكي يطعن في صحتها، ولا يعني هذا أن نحّمل السابقين ذنوبًا لخطأ اقترفوه، ولكنَّنا ننزلهم منزلة البشر، فإذا كان الأوائل قد أخذوا من هذا العمل بنظرة التقرب إلى الله فقد كانت لهم أسبابهم ومبرراتهم الكافية، وكان لازمًا عليهم تحقيق ذلك؛ لكونهم لم يكن لهم اطلاع على الحضارات القديمة، فقد أقاموا هذا الفعل عند غياب أية إشارة يقينية عن شواهد انطمرت أسفل التراب، وكان علمهم المعرفيُّ عاجزًا عن الكشف عن الآثار المادية، وهو ما يمكن أن يفسَّر اليوم أنَّه تكريس للتجاهل المتغافل عن الحقائق التاريخية والدينية، وهذا الأمر يدفعنا إلى إعادة النظر، وأن نعزو الأمر إلى قصورهم العلمي، الذي لم يمنحهم الوصول إلى الحقيقية الواضحة، وربما كانت الرؤيا المنامية والكشف هي المتوافرة، وهو ما قادهم لذلك بحسب ما وصل لهم من علم أو كانوا يرونه واجب التصديق.

النتائج:

- توصلت الدراسة إلى أنَّ اختيار موقع قرية هود وبناء ضريحها قد تمَّ بعناية تدعمها الجذور التاريخية ومقومات المكان.
- أن بناء القرية وتصميمها وتحديد ضريحها قد تمَّ وفق مبادئ الهندسة والرياضيات، وحملت أفكار ومعتقدات لشعوب أخرى، أقربها المعتقدات الهندوسية، حيث اجتمعت فيها عناصر من العمارة الإسلامية وعناصر من الفكر الوثني.
- أنَّ التنقيب الأثري هو الذي سيكشف أصل هذا الموقع وصحة وجود جثمان بالضريح، وسيزيل الغموض عن روايات السوق القديم.
- تمثل قرية هود علاقة متينة اشترك في فعلها ثلاثة أقطاب يصعب فكُّها، هي (الدين، والأسطورة، والطبيعة)، وتمَّتْ محاولة تفخيمها

ببناء قرية صغيرة بشكل مدلولي والمبالغة في رمزية بعض البنايات الممتلئة بالأساطير.

- استمرار الزيارة وتطورها جاء ناتجًا عن الأعجاب الديني الذي تلقَّاه الناس والمخيلة الخيالية التي نُسِجَتْ للنَّاس أنها مكمِّل للإيمان، وأنها تندرج تحت طاعة المؤمن، فهي بمثابة المُسَلَّمات التي تقاوم كل محاولة للإطاحة بها، ولا تستسلم إلا للاستهلاك البطيء عبر قرون.

- أنَّ أروع ما تركته قرية هود أنها أرادت أن تقول لنا شيئًا ليس بالكلمة، وإنما بالتأمل في بصمات متروكة فيها منها الأسطورة.

- المراجع:

المراجع العربية:

[1]بامؤمن، كرامة. [١٩٩٨] الفكر والمجتمع في حضرموت.

[2]الدباغ، تقي. [١٩٧٠]. البيئة الطبيعة والإنسان – حضارة العراق. دار الحرية للطباعة.

[3]عبد المنعم، أسامة. [٢٠١٩] العمارة الطينية في وادي حضرموت مزارات قرية شعب نبي الله هود. كلية الآثار جامعة القاهرة.

[4]الحسن، مصطفى. [٢٠١٢] الدين والنص والحقيقة قراءة تحليلية في فكر محمد أركون. الشركة العربية للأبحاث بيروت.

[5]الصبان، محمد. [١٩٩٨] زيارات وعادات زيارة نبي الله هود. ترجمة لندا وعوض عبدالرحيم. المعهد الامريكي للدراسات

[6]الشاطري، محمد. [١٩٩٨] أدوار التاريخ الحضرمي. دار المهاجر المدينة المنورة.

[7]سيرنح فليب. [١٩٩٢] الرموز في الفن – الأديان الحياه، ترجمة عبدالهادي، دردمشق.

[8]وطفة، علي. [٢٠٠١] اتجاهات التقليد والحداثة في العقلية العربية السائدة مضامين الخرافية في التفكير. كلية التربية جامعة دمشق.

[9]كيم نوت [2015] الهندوسية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

المراجع الأجنبية:
References

[1] Japan Consortium for International Cooperation in Cultural Heritage[2010] Flood Damage Assessment Report on

the Cultural Heritage in Hadramawt, Yemen.

[2] Syed Akramulla [2005] islamicoccasions.com Presents Men of God,

[3] A Landscape of Pilgrim and Trade in Wadi Masila, Yemen:The Case of al-Qaisha and Qabr Hud in The Islamic Period. Newton, Lynne S[2007]

[4] Serjeant, Robert Bertram (1954). “Hud and Other Pre-islamic Prophets in Hadhramawt”. Le Muséon. Peeters Publishers. 67:

رسوم هندسية ورفع مساحي: ج.ف. برتو نوس .دار لس ١٩٨٠م.

رسوم اخرى وخرائط الباحث.

50
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

النادي الإصلاحي الثقافي بثبي وطموح التغيير

(١٣٨٠ هـ /١٩٦١م)

صالح مبارك عصبان

أحدثت الإجراءات التي قامت بها السلطنة القعيطية، حراكًا مجتمعيًّا، نزع نحو الانعتاق من التخلف، ساعد على ذلك تغذية وعي النخب المتعلمة والمثقَّفة من مصادر مختلفة، أهمُّها النهوض الفكري، وتزايد الشعور الوطني ضد الاستعمار في البلاد العربية، ونشاط المجدِّدين بما أصدروه من مجلات، ودور الجمعيات الأهلية، وحضور الفعاليات الثقافية.

وفي بلدة (ثبي) الواقعة شمال مدينة تريم بوادي حضرموت ظلَّتِ الحياةُ رتيبةً مع غياب تام للتعليم الحديث، حيث يدفع الأهالي بأولادهم إلى (معلامات) القرية؛ لكي يلمُّون بالقراءة والكتابة، وتعلُّم الوضوء والصَّلاة، وبعض أحكام الإسلام، والأخلاق، وتلاوة القرآن الكريم، وتعد المدرسة العيدروسية أرقى مستوًى، مقارنةً بغيرها من المعلامات الأخرى؛ إذ إنَّ منهجها مقتبسٌ من منهج مدارس جمعية الأُخُوَّة والمعاونة.

وعلى االصعيد العام، أسَّست السلطنة القعيطية المجلس القروي بثبي، كغيرها من القرى الواقعة تحت سلطة السلطنة، وشهدت القرية خلال مراحل مختلفة غرس بذور العمل التطوُّعي والتعاوني، وكان للوقف مكانة لدى المواطنين؛ إذ أوقف المحسنون أموالًا على وجوه الخير، وخاصة المساجد والسقايات والطواحين الحجرية وآبار الغسل والشرب. وفي فترةٍ قامت لجنة من الأهالي بتنظيم توزيع الطعام الذي يَرِدُ إلى البلدة من لجان الإغاثة، وذلك عام ١٩٤٨م حين أنشأت بريطانيا مطاعم للمنكوبين من تلك المجاعة، وافتَتَحَتْ في ثبي واحدًا منها، ومِمَّا ساعد على تنامي فكرة العمل الطوعي وتكوين اللجان والأندية والاهتمام بتطوير التعليم وبث الثقافة، وُجُودُ أسباب متعددة، منها على سبيل المثال لا الحصر، قدوم بعض أبناء البلدة وضواحيها من المهجر، وخاصة المتأثرين بحركة الإرشاد في إندونيسيا، والطُّلَّاب الذين تخرَّجُوا في المدرسة الوسطى والمعهد الديني بغيل باوزير، ثُمَّ توالت المشاريع التعاونيَّة، وانتظم نَفَرٌ من متعلِّمي القرية في جمعيَّاتٍ أهليَّةٍ بتريم، كجمعيَّة الأُخُوَّة والمعاونة، وازدَادُوا وَعْيًا ومعرفة، وشارك آخرون في جمعيَّة المزارعين التي زوَّدتهم بالوقود وقطع الغيار، واقْتَفَوْا حركة الزعيم العمالي حمود باضاوي، ومن اللجان والمشاريع التي تأسَّسَتْ في ذلك الزمن، لجنة المضالع ومجاري السيول، واهتمَّت ببناء المضالع والعناية

بمجاري السيول، وأخذ ضرائب من مالكي النخيل، ومنها أيضًا (شركة الجسَّامات)، وأُسِّسَتْ لتوفير حرَّاثاتٍ ميكانيكية، و(شركة تحسين النخيل) وغيرها.

النادي الإصلاح الثقافي بثبي:

تداعى عدد من رجال ثبي، المهتمين بالشأن العلمي والوطني لتأسيس كيانٍ، يحقِّق طموحاتهم بتقديم خدمات للأهالي في بلدتهم والقرى المجاورة، ومن أجل نشر هذه الفكرة وجمع أكبر عدد من الشخصيات حولها، بعث فيصل العبد بن شيبان التميمي برسالة إلى والديَّ -رحمهما الله تعالى-، بتاريخ الخامس من ربيع الأول ١٣٨٠هـ، الموافق ٢٨أغسطس١٩٦٠م، يقول في مقدمتها: ((نظرًا لحالة الركود الراسب في مجتمعنا، والأخطار المحدقة التي تتماثل أمام أعيننا، رأى المخلصون من أبناء هذه البلدة أن يقوموا على هذا الوضع والركود والجهل الذي تفشَّى في صفوفنا، ومن أجل هذا، قرَّرُوا أن يقوموا ويحوِّلوا هذه الحالة من حالة الركود والجمود، إلى حالة الحركة والعمل، وذلك بقيامهم بنادي وطني يوحد الصفوف)).

وأثمرت هذه التحرُّكات عن تأسيس (النادي الإصلاح الثقافي بثبي) سنة ١٩٦١م، ونشرت صحيفة الطليعة الحضرمية في عددها رقم (٩٣) خبرًا عن النادي بعنوان (ماذا تعرف عن النادي الإصلاحي الثقافي بثبي؟)، وممَّا جاء فيه: ((بناءً على ما تقتضيه المصلحة العامة، ورغبةً في شغل أوقات الفراغ، والعمل من أجل خدمة الأمة، تكوّن ببلدة ثبي نادي يسمى (نادي الإصلاح الثقافي)، ويشمل دستوره على عشر مواد، وقد تألفت هيئته التنفيذية، وهيئات أخرى عامَّة من كافة الأعضاء المنتمين إلى النادي، هذا وقد تقدَّمت الهيئة بطلبها لقائم دمُّون مع صورة من القانون لطلب الموافقة والمصادقة على فتح النادي رسميًا من الحكومة؛ ليقوم بمزاولة نشاطه...)) كتبه، علي بن عيسى الزبيدي (رئيس الهيئة المرشحة للنادي).

قانون النادي

وفي تاريخ ٢٠ شعبان١٣٨٠هـ الموافق ٦ فبراير١٩٦١م، صدر قانون للنادي، لتنظيم أعماله، واشتمل على عشر مواد، وجاء في مادته الأولى: (تكوّن في بلدة ثبي، النادي الإصلاحي الثقافي، لا دخلَ له في السياسة البتَّة، ولا تخرج إدارة أعماله عن حدود الشرع الشريف والسنة المحمَّدية)، وحدَّدت المادة الثانية أهداف النادي، ومنها، نشر الثقافة بين أفراد الأمة ورفع مستوى التعليم، ومحاربة الجهل ومكافحة الأُمِّيَّة، وبثّ روح التعاون والألفة بين كافة المواطنين، وتوثيق الصلات مع إخوانهم أبناء المهجر، والعمل من أجل تحقيق المساواة بين أفراد الأُمَّة، ومحاربة التفرقة والانقسامات، وحل النزاعات والمشاكل الداخلية بالطرق الإصلاحية بعد رضا الطرفين، وتشجيع الزراعة والمزارعين في استغلال الأراضي، وكل ما يؤدي إلى زيادة الإنتاج.

وبالنظر بإمعانٍ إلى تلك الأهداف، نرى مستوى الشعور الوطني لدى أعضاء النادي، وشموليتها لمجالات حياة المجتمع، وأهميَّتها في مجتمع صغير، تَغلِبُ عليه الأُمِّيَّةُ، فمن الناحية التعليمية، يهدف النادي إلى إحداث تطوُّرٍ تعليمي، بنشر التعليم وفتح المدارس لأبناء البلدة وضواحيها، ومحاربة الجهل المتفشِّي بين أوساط النَّاس، والاعتناء بكبار السِّنِّ بمحو الأمية، بل ونشر الثقافة بمفهومها العام، وهي نظرة متقدمة في ذلك الزمان، تَدُلُّ على أنَّ القائمين على النادي يرون أنَّ العلم هو مفتاح النهضة، أمَّا على صعيد مجتمعهم، فهم يطمحون إلى وحدة أفراده وتماسكهم، منطلقين

من تعاليم الدين الإسلامي، التي تنبذ التفرُّقَ والطبقيَّة القائمة على التعصُّب، وتحقيق المساواة بين الجميع، ومن دون ذلك، لن يحدث أي اختراق في المجتمع لبناء كيانه ونهضة أفراده، وتؤكد الأهداف أنَّه لا سبيل لحل النزاعات إلا بالإصلاح بين الناس لينطلقوا مجتمعين إلى البناء، ووضعوا نَصْبَ أعيُنِهم التطوُّرَ في مجال الزراعة بوصفها مهنة أكثر السُّكَّان، ووضعوا لها مسارًا في استغلال الأراضي الزراعية، وتحديث وسائل الإنتاج، ولمْ يَنْسَوْا مَدَّ جُسُور التواصل مع إخوانهم المغتربين، واهتمَّتْ بقيَّةُ موادِّ القانون بالشؤون الإدارية لهيئات النادي وطرق انتخابها، والشؤون المالية، وتحديد مصادر الدخل والإنفاق.

ثمرات النادي

نظرا لفقدان أرشيف النادي، تعذَّر الحصول على معلومات كافية عن نشاطه، وتمَّ جمع معلومات عن ذلك من خلال الجلوس مع بعض أعضائه، وكانَ أهمُّ إنجاز هو افتتاح مدرسة ابتدائية بثبي، وبعدَ مشاورات عِدَّةٍ، اتفق الأعضاء على تقديم طلب لمعارف السلطنة القعيطية لفتح مدرسة لمواكبة التحديث، والانتقال من التعليم التقليدي (المعلامة) التي لا تتعدى معلوماتُها تعليمَ بسيط للقراءة والكتابة، ينتقل التلميذ بعدَها إلى الهجرة، أو العمل مع والده في الزراعة أو البناء، وقد عارض أفرادٌ من ذوي النفوذ فتح المدرسة داخل بلدة ثبي، باعتبارها (حوطة) لا يجوز إحداث شيء فيها -حسب تصوُّرِهم- يَخِلُّ بمكانتها، فالمدرسة الحكوميَّة -كما يُسَمُّونَها- تحتوي على موادَّ غريبة، فضلًا عن لباس التلاميذ، المخالف للعادات المتَّبعة، فبادر فيصل العبد بن شيبان بفتح الصفوف الدراسية في بيته، خارج بلدة ثبي، واقتطع جزءًا من أرضه لبناء المدرسة عليها، وسُمِّيَتْ (مدرسة ثبي الابتدائية)، بتصريح من (معارف السلطنة القعيطية)، ثم سُمِّيَتْ (مدرسة الفقيد فيصل بن شيبان)، تكريمًا ووفاء لهذه الشخصية الوطنية، التي كان لها دور فيما بعد في عدد من المشاريع الخيرية والتعاونية، وافتتحت المدرسة سنة١٩٦١م، ونشرت صحيفة الطليعة الحضرمية في عددها رقم (٣٠٦) في شهر يونيو ١١٩٦٥م نتائج امتحانات إنهاء المرحلة الابتدائية لطلاب المدرسة، ومن ثمار تحرُّكات أعضاء النادي وغيرهم من الشخصيات، تأسيس (شركة تحسين النخيل) سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، و(شركة الجسامات) الحراثات.

إنَّ ظهور هذا النادي في تلك الفترة يدلُّ على وجود رغبة في العمل الجماعي والتعاوني لخدمة الصالح العام، بعيدًا عن رُوحِ الأنانِيَّةِ، والعمل في دوائر ضيقة غير كفيلَة بتطوُّر المجتمع، وإيجاد مشاريع ذات أثر إيجابي، تربويًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، ولعلَّ ما ظهر من مشاريع ومؤسسات في الأعوام التي أعقبتْ تأسيس النادي جاءت متأثِّرةً بنُمُوِّ هذه الفكرة، وعلى سبيل المثال، فقد أسَّس المواطنون سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م (مشروع مياه ثبي وضواحيها)، ووصلت الشبكة الحديثة إلى بيوت المواطنين، بعدَ أنْ كانوا يجلبون المياه من الآبار، وأنشئت مشاريع أهلية للكهرباء، وتشكَّلتْ لجان للمضالع ومجاري السيول والصرف الصحي، وتوالى العمل الجماعي والتعاوني ومشاريع البناء، بعد ذلك.

53
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

د.ثريا بن مسمية
أستاذة فلسفة الجماليات - جامعة تونس

إنّ قراءة الخطاب الشّعري تجعل القارئ في عَوالم فنية ساحرة؛ لأنّه يسير على خطّ رفيع بين الواقع والمتخيّل، فحين يكتب الشّاعر صالح باظفاري لا نجده يكتب عن الأشياء والعالم كما هو في واقع حاله، وإنّما يكتب عن ذلك كما رآه وكما تجسّد في واقع أعماقه ومشاعره ووجدانه. وديوانه «في داخلي فوضى» إحالة صريحة على عوالم الذّات، لذلك قدّم عبارة «في داخلي» ما يُؤكّد الرّحلة الشّعرية في دواخل التّضارب بين الذّات وإيحاءات الوجدان المتعرجة حيث التّقاطع بين الذكرى والحلم، والوجع واللّذة والهدوء والثّورة.

إنّ القارئ لهذا الدّيوان يجد نفسه في حالة توتر إيجابي؛ لأنّ الفوضى المُشار إليها حالة خلّاقة، ومقامٌ إبداعي جذّاب، عبّر عنه الشّاعر بصدق كبير، حاله في ذلك حال الّذي يستمع إلى دقّات قلبه داخل عاصفة هوجاء تُحيط به. وعلى هذه الصّورة خرجت اللّغة عند الشّاعر من مجرّد أداة تواصل إلى عامل تطهّر، وملجأً يُلاذ به، ومرآة تعكس دلالة الحياة وأبعاد الوجود بأسره.

ولا غرابة في ذلك، فالشّاعر يُعيد للشّعر وظيفته الحيّوية، المتمثّلة في إعادة بناء المعنى؛ تخلّصًا من الفوضى القاتلة، ورغبةً في إذكاء الجدل الحاصل بين النقائض سكونًا وحركةً، صمتًا وكلامًا؛ من أجل إرساء القواعد الرّاسخة لعالم الشّعر الطّاهر النّقي.

إنّ التّجربة الّتي تبدو خلال هذا الدّيوان تبدو حائزة على نصيب كبير من الصّدق والرّغبة في تعميم الشفافية والوضوح.

القول على القول

ليست الفوضى انعدامًا لنظام، بل قد تكون نظامًا من نوع آخر؛ فنظام الأفكار ليس هو نظام المشاعر؛ إذ إنّ الشّعور يرفض أن يُختزل في قوالب جاهزة مرتّبة ترتيبًا رتيبًا، بل يرى في الفوضى نظامًا خصبًا لبناء المعنى من خلال الهدم والاختراق، حيث يمتزج الغضب بالسّكينة والحنين بالوجع، والتّعقل بالجنون.

كذا كانت قصائد ديوان «في داخلي فوضى» للشاعر اليمني- الحضرمي صالح باظفاري، مجموعة من القصائد المتناثرة، المتفرّقة بين حنين يُوجع وحكمة تسكن، وأمل يشرق وقلب ينكسر، وهذه الثنائيات ما هي إلّا مرآة وباب مفتوح على عالم ذاتي مليء بالمعنى، يبوح فيه صاحبه بنفَسٍ شعري صادق عن فوضاه الدّاخلية، تتقاطع فيه العاطفة بالحكمة، والوجدان بالخيال.

"في داخلي فوضى» يتجاوز عنوانه معنى الدّيوان الشعري؛ ليأخذ بُعدًا كونيًا فلسفيًا، يرى في الفوضى استبدالًا للنّظام بنظام أعمق، نظام المشاعر الخلّاقة؛ فالشاعر بمزيجه اليمني الحضرمي يحمل تناقضات الجغرافيا والهُوِيَّة التي خلقتْ منه مبدعًا، فالتّناقض البيئي والهُوِيِّي قد يشكّل أهمّ مسارات الخلق في الذّوات، فكأنّنا به في رحلة وترحال دائمٍ بين الأوطان والمشاعر، لذا كانت الكلمة السّبيل الوحيد في مقامها الشّعري للتعبير عن وجدانه، وكأنّه في كل قصيدة يسعى إلى ترتيب داخلي، وخلاص روحي، لذا كانت الفوضى التي أعلنها الشّاعر منذ البداية مدخلَ صِدقٍ إلى وجدانه، الذي يصنع لكلماته خلاصًا وانسجامًا داخليًا، يتجاوز بهما ثقل الخسارات، وصخبَ التناقضات، وبُعدَ المسافات .

في هذا الديوان تتوزَّع القصائد بين عامِّيٍّ وفصيح، وغزلٍ وشجن، وبذلك تقمَّص الشّاعر أدوارًا عدَّةً لينقلنا بشعره إلى مسرح غنائيّ، بَطَلُهُ شخصية تلقائية صادقة، ثُمَّ تُجلّ المشاهد وتترك للإحساس المجال ليقود الكلمة، ويصنع المشهد مشاهد، تتدفَّق فيها الأفكار بسلاسة المفارقات بين وجع وأمل، سكينة وغضب، غزل وكره، وفي هذا تظهر جمالية الإبداع في خلق صور متناقضة ومنسجمة في آنٍ واحدٍ، تعبّر عن حالة الذّات الإنسانية التي لا تتصنَّع الهدوء والاطمئنان، ولا تُظهر القوة، بل تجعل من هشاشتها وبَوْحِها بانكسارها مصادر جماليَّة النص الشعريّ، في صورة شاعرية صادقة، بين ذكريات وصدمات، وحب وهجران، وروحانيات وأخلاقيات .

إنّ هذه المقامات الرّوحية والرّوحانية تتوزّع في فوضى القصائد بلغةٍ تراوح بين التعقيد والبساطة، وكأنّها مزيج من السّهل الممتنع، بحيث تخلع الكلمات زُخْرُفَها اللّغوي، وغُمُوضَها المصطنع لتصنع صُوَرًا من المشاعر المتناثرة لذاتٍ متحوِّلة من عاشق متألم إلى

حكيم ناصح، ثم مبدع متزهد.

وهذا الخط السّردي الوجداني هو الخيط الناظم للدّيوان، فكأننا بفوضاه أمام ظاهر يُخفِي مسارًا منتظمًا في عُمق المسيرة الوجدانية للشّاعر، فبعد الجرح والألم كان التّعافي والتّصالح مع الذّات ليكون الإصلاح والالتجاء إلى الرّوحانيات.

وهذه المسيرة الوجدانية ظهرت جليًّا في قصائده الأولى الّتي توحي بالألم والمعاناة، ودليل ذلك العبارات التّالية: «عسر الليالي»، «لا تعذبني»، «القلب مغلق»... ثم قصائد التّأمل والحكمة «الناس بالناس»، «كثر العتب» «أحضن الماضي»... إلى قصائد المناجاة الروحانية في «قبّلتُ بيتَ الله»، «ابتسم للصبح»، «يكفي..»..

إنّ هذا المسار الأسطواني في مسيرة القصائد يترجم مسيرة وجدان صاحبه في المصالحة مع الذات، بعد مواجهة عذاباتها مع الحب والأصدقاء والأقارب؛ لتلتجئ في آخر المطاف إلى صفاء روحي، فبعد العتاب والوجع في القصائد الأولى كانت حكمة التّجربة مقال القصائد، ثم يختتم الشّاعر أشعاره معبّرا عن بُعدٍ صوفي، وكأن الكتابة الشّعرية أضحتْ عند المبدع الشاعر صالح باظفاري صلاة تطهّر، تختلط فيها مشاعر النّفس بسكينة الروح.

إنّ المجموعة الشّعرية «في داخلي فوضى» قصائد تأسَّست على اعتراف الذات، ومعلى طلب؛ لمشاركة صاحبها أسرار وجدانه، وهذا المشهد المتحوّل المتحرّك بين الشّاعر وعالمه الوجداني، وبين الديوان وقارئه حوّل القصائد إلى رحلة شاعرية، تغوصُ في الذات الإنسانيَّة، وتكشف خباياها بلغةٍ تعتمد إيقاعًا خاصًّا، بين الرمزية التي تحلّق بالقارئ على أجنحة الخيال، ثم الصور الحِسِّيَّة والمشاهد اليومية التي تدخلنا في مشاركة فعلية وخواطر الشاعر وخبايا مشاعره.

فالرموز المعتمدة في الديوان تشكِّل نسيجًا دلاليًّا مترابطًا، يجعلُ من كلِّ القصيدة جُزءًا لا يتجزَّأُ من منظومة شعريّة متكاملة، تنسجها مع بقية القصائد. وكذلك الإيقاع اللّفظي في تواتر الكلمات يخلق نوعًا من

الانسجام والنغمات الخفية، فيعطي للقصائد إيقاعًا لا يعتمد النظام العاديّ، بل يعتمد الفوضى منهجًا للإبداع.

وبهذا يصبح اللّا نظام والفوضى الداخلية في بنية القصيدة منبعًا لجمالها وإبداعها؛ فهي تترجم فوضى روح الفنان، بين صحراء حضرموت ومدينة اليمن، روح تحاول التّصالح مع ذاتها، فتنتج جماليّة خالصة، تُسمَّى جمالية الفوضى وجمالية الصدق مع الذات، أضف إليها جماليَّةً أخرى، هي الجمالية التّشاركية، حين جعل الشاعر نصوصه مفتوحة على التأويل؛ ليتمكن القارئ من مشاركة فوضاه. هذه الفوضى الخاصة التي تلخص معاناة الإنسانية من وجع وهجر وظلم، ثم فهم وحكمة وسكينة، وقد أفلح الشّاعر في تجربة تعمل على استخراج الجمال من القُبح على غرار ما فعل أعلام الرّومنطيقيّة، مثل بودلار في أزهار الألم.

وبهذا يكون الشّاعر صالح باظفاري مرآة للإنسان المعاصر، وكان ديوانه ترجمة لمشاغله وهواجسه، وكان حديثه عن الذّات وجهًا من وجوه الحديث عن الآخر، وبهذا تحوّلت السيرة الذاتية إلى سيرة جماعية وغيْرية، وكلّ ذلك شكّل وحدةً موضوعيةً في ديوان «في داخلي فوضى»، فبطل الديوان ليس بطلًا تقليديًا، يهوى القوالب الجاهزة، ويُخضِع الشعرَ لأنماط مُسيّجة بالتّكلف، تتصنَّع البيان، بل هو مبدع حرٌّ، ترك الإحساس يقود الكلمة، وفتح قلبه ليجعل القصيدة مرآة لفوضاه الداخلية وشهادة على عالم، اختلطت فيه الأصوات؛ ليكون الصدق منهجه في الكتابة والفوضى خلاصه من التقولب.

الخاتمة

على هذه الشاكلة يتسنّى أمام الدّارس أنّ شعر صالح باظفاري يُعيد إلى الذّات استقرارها وانتظامها، في زمن يعجّ بالأصوات وتبدُّل المعاني، وعندئذ يُصغِي المرءُ إلى نداء صادر من أعماقه؛ كيْ يُواجه ذاته من دون قناع. والشّاعر لا يكتفي بتصوير الأشياء والعناصر والحوادث والعلاقات، بل يُحاول تنظيمها وإعادة ترتيبها، فيُغادر تخوم الفوضى والغيبية إلى شواطئ الانسجام والسّلام، فالحياة ذات وجهيْن: وجه الفوضى ووجه الانتظام، ولذلك بُنِيَ الديوان على مبدأ الازدواج: العاطفة والفكر، والأمل والألم، والتّوجع والالتذاذ، الهدوء والتّمرّد. وقد عبّر الشّاعر عن هذه المعاني بلغة سلسة عذبة مفهومة، تبوح بواسطتها الذّات الشّاعرة برغبة جامحة في إعادة البناء بواسطة الكلمة.

ولا غرابة في ذلك، ففي البدء كانت الكلمة، وكلّ الحضارات إنّما بُنيت على الكلمة، وقد قيل: ينفذ الكلم ما لا ينفذ الإبر. والقارئ في كلّ قصائد الشّاعر لا يقف على أي ضرب من ضروب اليأس والقنوط، وإنّما يصحبه شاعر ثائر بمشاعره، يصنع طريقَه نحو الضياء والنور، وإنْ حفّت به شواغل الحياة القاسية.

باحريز
أمير الشعر الشعبي

أ.د. عبدالعزيز الصيغ

الحلقة الرابعة:

أسماء أشخاص

يكثر في شعر باحريز أيضًا استعمال أسماء الأشخاص، ولمَّا كان الجمهور الذي يخاطبه جمهورًا شعبيًا، والمجتمع الذي يمثله شعره أيضًا مجتمعًا شعبيًا؛ فقد كان من الطبيعي أن تكثر أسماء الأشخاص في شعره، وهي ظاهرة ليست مخصوصة بشعره هو فقط، وإنَّما دائرة في الشعر الشعبي بشكل عام.

وأسماء الأشخاص تكسب شعر الشاعر الشعبي خصوصية وهُوِيَّة خاصة، كما أنَّها تيسر له التأثير في الجمهور؛ ذلك أن أكثر أسماء الأشخاص من البيئة المعيشة، وهي تعطي شعره أيضا قوَّة.

وهو لا يذكر الأشخاص إلَّا ليصبغها بنعوت خاصة لكأن أسماء الأشخاص هي صفات عامة، ومن ذلك قوله:

من قال لك: من قال، قل له: لي تكلم بوفرج

وخل بن طاهر يحملنا الجبال الراسيات

وهو يعني بـ (بن طاهر) شخصًا كان يعمل قاضيًا، ولم يقصد بذكر اسمه إلَّا دلالة الوظيفة التي كان يعرف بها؛ بوصفه حاكمًا.

اتكاؤه على المجاز:

المجاز هو لغة الأدب والشعر، والشاعر يلجأ إلى المجاز حتى يتمكن من صياغة أبنيته التعبيرية الشعرية، ويخرج من أسر لغة الكلام المتداول إلى فضاء اللغة الواسع وهو المجاز، ويقيم بناءه الشعري، وعالمه الفنيَّ الأدبيَّ في هذا الفضاء الرحب الواسع، يقول المعري الشاعر الحكيم صاحب اللزوميات، وسقط الزند:

لا تقيد علي شعري فإني
مثل غيري تكلّمي بالمجاز

وليس غريبًا أن يعد المعري اللغة غير المجازية قيدًا؛ ذلك أن الأُفُق الواسع إنما يجده مَنْ كان سابحًا في عالم المجاز الرَّحب الخصْب، وكثيرٌ ممَّن يكتبون الشعر لا يدركون هذه الحقيقة التي عبَّر عنها فيلسوف المعرَّة، ورآها واضحةً جليَّةً شاعرُنا البسيط الذي كان لا يأنس إلَّا إلى هذا العالم الواسع، ولا يلقي أحماله وهمومه إلَّا في وديانه الرَّحبة وآفاقه البديعة.

واللغة المجازية هي وسيلة الشاعر البارع في التعبير عن أفكاره، وصوره، وتوصيل المعاني التي يقصد لها، ومِنْ أدَلِّ أسباب القوة في الأشعار الشعبية هو انتحاؤها منحى المجاز في الصياغة، ومن أسباب الضعف الملحوظ في قسم منها هو ابتعادها عن لغة المجاز إلى اللغة المباشرة، التي تسمي الأشياء بأسمائها، وهي بذلك لا تختلف عن اللغة العادية التي تستعمل المفردات بحسب ما هو معروفٌ لها من معنى.

وباحريز كان شاعرًا فنَّانًا يتحرَّى التعبير الفني في أشعاره، وغالبًا ما يخرُجُ الموضوع الذي يتحدَّث عنه إلى مجالات المجاز الواسعة، ويربطه بقضايا إنسانية عالية، ولذلك تتجسد الموضوعات التي يتحدَّث عنها تجسُّدًا إنسانيًا، تشغل بال جميع الناس، وهو ما يجعله يحقق مشاركة الجميع معه في أشعاره، فحين يستمع المستمع إلى شعره يجده معبِّرًا عن نفسه هو، وهو ما جعل أشعاره تترسَّخ في أنفُسِ النَّاس، ويمكن أن نجد أمثلةً كثيرةً على ذلك.

ففي بيتيه الرائعين اللَّذَيْنِ يتردَّدان على أفواه الناس لجمالهما يقول:

خشم منصوب ما تبرح عليه الذبابة
دقه الوقت واحكام القضاء والمقادير
من رضي بالمحلة وسط ذيك الخرابة
يلقي الكذب قاسم والمحازي تياسير

وانظر روعة المجاز في الشطر الثاني من البيت الثاني، وكيف أمكنه به أن يجعل للكذب قاسمًا، وللمحازي والقصص الفارغة تياسير، والقاسم هو العود الخشبي الضخم المعترض في الغرفة الواسعة، التي توضع عليه الأعواد الصغيرة، التي تمتدُّ من الجدار إلى الجدار لتحمل السقف، وإذا كانت هذه الأعواد واهيةً

ضعيفةً كضعف الكذب والقصص الفارغة فإنَّ السَّقْفَ لا بُدَّ أن يقع على أهله، وهو على أي حال نسج بيته لدلالةٍ أبعد من البناء المادي، وإنَّما أراد بناءً آخر أكثر تهاويًا وضعفًا.

وهو دائمًا ما يبني جُمَلَهُ على المجاز، ولذلك تفاجئ السامع وتدهشه، ومن أجمل شعرِهِ ما قاله في الحافة، وهي التي جاءَتْ سلاماتٍ لها وترحيبًا بها واحتفاءً وحُبًّا فيها، من مثل:

وسلام عا حافة إذا حبتك تعطيك اللبن

وإذا نوتْ مزقلك زقلت بك وقالتْ من يكون

فالحافة هنا في صورة الناقة التي تعطيك اللبن إذا رضيت عنك، وإذا سخطتْ عليك فسرعان ما ترمي بك من ظهرها على الأرض، وهنا صور متعدِّدة للحافة ستأتي في حينها تفصيلًا.

وهذا بيت من أبياته الرائعة حيث وصف الصلة بينه وبين أحد عُقَّال الحافة كالصلة بين الابن والأب، رادًّا فيه على مَنْ أراد أن يُفسِدَ العلاقة بينه وبين هذا العاقل بالإيقاع بينهما، طالبًا منه أن يترك هذا الذي فعل به ما فعل، فقال:

من قال يع من بوه يع منه ومن سالفه يع

ومن عتب اصحابه رجع دار الملامة والعتاب

إن نزلونا با نزل وان طلعونا با طلع

وان قطبونا لحم ولقونا ضيافة للكلاب

وعلى الرغم من كثرة ترداده لكلمة (يع) وهي اسم فعل مثل (أف) وبمعناها، وقد تكررت الكلمة ثلاث مرات في شطر واحد اسْتُعمِلَت استعمالًا في غاية الدِّقَّةِ والتأثير، وليس تكرارها إلَّا تأكيدًا للمعنى الجميل في البيت، وهو الاعتزاز بالصلة النبيلة بين الأب وابنه، التي ينبغي أن تكون، وهو هنا في تكراره يذكر مع الاختلاف ببيت الشاعر الإسلامي الذي رثى نفسه مالك بن الريب، حيث يقول: (ألَا ليتَ شعري)

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا

مزار ولكن الغضا ليس دانيا

وكثيرًا ما يعاب التكرار في الكلام غير أنه إذا استعمل استعمالًا جيدًا أكسبَ المعنى قُوَّةً، وأضاف إليهِ تأثيرًا أقوى وأبلغ، وهو ما نجده في بيت مالك وفي هذا البيت لهذا الشاعر الكبير.

والأمثلة كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى في احتفاء الشاعر بالمجاز، وهو ما يقلُّ عند الآخرين من الشعراء الشعبيين، ويمكن الوقوف أيضًا أمام الأبيات الآتية، وهي نماذج من كثير، يقول:

حقك إذا ما هو بيدك ما معك حجة وحق

يا اللِّي تناوط عالسماء وين السماء منك بعيد

النوب سره في العسل واللحم سره في المرق

والعقل سره في الفوائد والخساره ما تفيد

ومن سر المجاز وسحره أنَّ الشاعر

يقولُ لكُلَّ ما عنده من دون أنْ يكون محتاجًا إلى التصريح بالموضوع الذي يتناوله مع مُنَاظِرِه، كما أنَّ الباب يكون مفتوحًا للقارئ والسامع أنْ يفهما من قول القائل ما يريدان، وأن يعرجا في معارج الفهم كما يريدان، فإذا كان الشاعر قادرًا على صياغة معناه بحيث يوجهه إلى المعاني التي تحملها العبارة ويمنعها من أن تفهم على نحوٍ بعيدٍ غير مرغوب يكون قد بلغ الغاية في التعبير عن المعنى المراد، وهذا الذي يجعل الكلام مقبولًا عند الجميع، مُعبِّرًا عن ما يداخلهم من معنى، ومن إحساس ومشاعر.

ويقول أيضًا:

بغيت الصدق والواقع سبوله خير من مقلع

ونخله ما تعشِّي الضيف قَعَرْها لا تَخَلِّيها

وهي أبيات لها تاريخ، سيأتي تفصيلُها لاحقًا.

ثم لنستمع إليه في أبياته الجميلة هذه، التي قالها في ليلة من الليالي الجميلة، كان الشاعر فيها في أحسن أحواله، ولنتجاوز المقدمة التي قالها الشاعر للدخول فقط للموضوع، وإنْ كانت المقدمة جميلة، فنسمعه يقول:

الموت ما مِنُّهْ مفر، ومن طغا قل له رجع

وان ما رجعْ حسبه إذا ما استدرك التوبه وتاب

يتزود الإنسان مادام الحياه فيها وسع

ويخرج من الدنيا على سنة محمد والكتاب

صلاة ما دامت ودام الذكر فيها ما امتنع

عا طيب الانفاس لي حاز الفضيله والثواب

سلام عالثوره وسِلِّمْ عالعلم لي ما ارتفع

والجيش الاحمر لي نصلح به مكايين الخراب

وسلام عا ردفان واثني عا مطرها والقزع

لي فتحت السِدِّه وقالت ما على السِدِّه حجاب

وسلام ينفع ما يضر عالجمع هذا لي اجتمع

وخرج على ضو الزياره لي شرق نوره وطاب

وسلام عا مخلوق لا شغل افكاره واخترع

صنعه حكم صنعته لو هو قفل وِالَّا هندراب

ويرقع المشعوق لا شاف المخزم مارقع

ولو حب حد جابه وجاب الشيخ من حصن الغراب

ذا فصل والثاني سمعت القربعه ما نا صقع

وفهمت مطلوب الجماعه لي يقرعون البواب

عدتي في داري ولا بغيت الزياره بافقع

ومعاي لي بابيضون الوجه من شيبه وشاب

ولا بدا لي شوف لقيته طريقي والنصع

وان ضاع شهر العيد جبت الشهر من وسط السحاب

نجد شعرَه يُقدِّم القضية التي تدور في حارته ويعيشها هو تقديمًا بليغًا، يدركها المستمع له إدراكًا، ولكنَّه لا يعرف عنها شيئًا بالتحديد، بل يفهم المستمع جملة من الأمور يتألَّف منها موضوع عام، هذا الموضوع

يتَّسم أوَّلًا بالحيويَّة، لكأنَّ الموضوع موضوعُ كُلِّ الناس، أوْ كأنَّهُ موضوع السَّاعة، فالمستمع يستمع إلى بناءٍ لُغَوِيٍّ متماسكٍ شديدِ التماسُكِ، يَطْرَبُ لهذا البناء اللغوي المُحَمَّل بمعانٍ بليغةٍ، يأتي بعضُها في شكل حكمةٍ، وجميعُها تتَّسم بالقوَّة والتماسُكِ الفنيّ.

إنَّ الشاعر يجعلُ المجاز دائمًا عبارته التي يصوغ منها شعرَهُ، وهي سمة بارزة عنده، وهو يستعمل المجاز في صوره المختلفة، حتى أن الموضوع يكون موضوعًا حريزيًا خالصًا.

والشاعر يبدأ أبياته بموضوع يثير الانتباه حين يبدأه بهذه الجملة التي تُقدِّم قضيَّةً كبيرةً، تجعلُ المستمِعين ينشدون إنشادًا، يقول:

الموت ما منه مفر، ومن طغا قل له رجع

وان مارجع حسبه إذا ما استدرك التوبه وتاب

فإذا كانت البداية عن شخص طغا وتجبَّر، ولجَّ في طغيانه، ولمْ يستدركْ ولمْ يَتُبْ فإنَّ هذا يكفي ليجعل المستمع له ينتبه إلى حديثه، وهو لا يفصح عن هذا الشخص ولا يحدِّدُه، وهو ما يجعل السامعين أكثرَ إنصاتًا وانتباهًا لقوله، وهو يزيد الموضوع إثارةً ببيته الثاني:

يتزود الانسان مادام الحياه فيها وسع

ويخرج من الدنيا على سنة محمد والكتاب

ولأن باحريز مقتدرٌ في الصياغة فأبياته تأتي في قلب الحكمة دائمًا، وهو فنَّانٌ كبير في إخراج المعنى وإلباسه لباس الحياة الزاخر.

وقبل أن يدخل في موضوع يقدم سلاماته، وهي عادةً ما تكون بعيدةً عن الموضوع المراد الحديث فيه، وهي عادةً ما تكون مجرَّدَ سلامات خالية من الحياة، ليس فيها إلَّا ما في سلام النَّاس الدائر، وهنا يحضرني تعليق الشاعر الكبير حافظ إبراهيم على أحد الشعراء، حين استمع إلى شعره، فقال: إنَّ شعرَهُ مثل السلام عليكم، أي ليس فيه شيءٌ، وظَنِّي أنَّ شاعر النيلين لو استمع إلى سلامات باحريز لغيَّر رأيه في السَّلام.

إنَّ باحريز شاعر يعلم جيِّدًا أنَّ حلبة الشِّعر هي حلبةُ سباقٍ كما يفهم غيره من الشعراء، ولكنَّه هو يستعد لهذه الحلبة بكل أدواته، وكان حريصًا على أن يحمِّل كلامه كله قيمة إنسانية ومعاني كبيرة، وأنْ لا يجعل شِعرَهُ باردًا ليس فيه روح، ولذلك التفتَ حتى إلى السلامات التي هي مجرَّد سلامات، غير أنَّه كان يوقد فيها شعلة الشعر، وكان يحرِصُ على أنْ يستولي على الباب السامعين، بتحريك مشاعرهم، وتغذية عواطفهم، في السلامات أيضًا، وهو يعرف كيف يوجه سلامات بعضها يأتي سلامًا ، وبعضها يأتي رسائل قويَّة مُحَمَّلة بأريج عطر، ومعانٍ خالدة تبقى وتؤثر في الناس لفترات طويلة كما نعلم، وحين نتأمل سلاماته في هذه الأبيات نجدها:

سلام على الثوره وسلم عالعلم لي ما ارتفع

والجيش الاحمر لي نصلح به مكايين الخراب

وسلام عا ردفان واثني عا مطرها والقزع

لي فتحت السِّدّه وقالت ما على السِّدّه حجاب

وسلام ينفع ما يضر عالجمع هذا لي اجتمع

وخرج على ضو الزياره لي شرق نوره وطاب

وسلام عا مخلوق لا شغل فكاره واخترع

صنعه حكم صنعته لو هو قفل والّا هندراب

ويرقع المشعوق لا شاف المخزم ما رقع

ولو حب حد جابه وجاب الشيخ من حصن الغراب

نجدها أربعة سلامات، واحد للثورة والعلم، وواحد لردفان، وواحد للجمهور، ثم سلام لشخص لا يُحَدِّدُه ولا يُسَمِّيه، وإنَّما يصفه فقط بقوله: (مخلوق لا شغل فكاره واخترع، صنعه حكم صنعته لو هو قفل والّا هندراب، ويرقع المشعوق لا شاف المخزم ما رقع، ولو حب حد جابه وجاب الشيخ من حصن الغراب)، هذه الوصوف تثير السامع؛ فهي وصوف الشخص المثال، الذي يسعى أكثرُ النَّاس إلى أن يكوِّنُوها أو أن تكون في مَنْ يُحِبُّون، وهي ذات صلة وثيقة بموضوعه، بل هي الموضوع.

وبعدَ أنْ يُسَلِّم على هذا العزيز الذي له هذه الوصوف، وله المعزَّة الكبيرة عند الشاعر، يأتي ليرسل كلامًا يعني به الشعراء الذين أتوا ليصطادوا في مياهه التي عكَّرَتْها الأيَّام، وهو لذلك ينبّههم وينصحهم أنْ لا يحاولوا معه، وهو يقدم نفسه في لُغَةٍ لبقةٍ ليس فيها الاعتداد الفارغ بالنفس، وإنَّما الثقة المحبَّبة التي تجعلك تتعاطف معه، فيقول:

ذا فصل والثاني سمعت القربعه ما نا صقع

وفهمت مطلوب الجماعه لي يقرعون البواب

عدتي في داري ولا بغيت الزيارة بافقع

ومعاي لي با يبيضون الوجه في شيبه وشاب

ولا بدا لي شوف لقيته طريقي والنصع

وان ضاع شهر العيد جبت الشهر من وسط السحاب

ويختم مقدمته هذه بأبياتٍ قويَّة، فيها القوة والاعتداد بالنفس، وهي أبيات لطيفةٌ، تستهوي المُستَمِع، وتُجْبِرُهُ على أن يردِّدَها باستمرار، وهو هنا يفخر بنفسه ولكنَّه فخرٌ محبَّب، ليس فيه شيءٌ من التَّعَدِّي على الآخر، والتَّعالي عليه، وإنَّما فخر بالقيم العالية، وهي عادته، وهي طريقة في الفخر لا يَعرِفُها كثيرٌ من الشعراء، الذين يفخرون بالقُوَّة، والمقدرة على النيل من الآخرين.

خصائص شعر باحريز المعنوية

المعنى له مكانة كبيرة عند باحريز، وهو إحدى السمات البارزة في شعره، وهو شاعر عُنِيَ بالمعاني عناية كبيرة، وكان التأمُّل أبرز صفاته، وهو يذكر التأمُّلَ في أشعاره كثيرًا، ويحاول أن يستنتج من كثير من الأحداث التي تمرُّ به عبرةً، أو معنًى، بل هو شاعر المعاني، وهو بذلك يُذَكِّرُنا مع الفارق بشعراء العربية

الكبار في الفصحى، مثل المتنبي وأبي تمّام.

والواقع أنَّ المعنى له مكانة كبيرة في شعر شعراء العاميَّة لدينا، وعلى وفق ذلك تربَّعَ جملةٌ من الشعراء على عرشه، ويُعَدُّ العطيشي وزحفان وعبدالله سواد والمحضار ومجموعة من الشعراء هم الراسون المؤسسون لمدرسة المعنى في الشعر الشعبيّ.

ومدرسة المعنى تُعنَى كثيرًا باستخراج المعاني الدقيقة من الحدث، وصوغِهِ صياغةً مُحكَمَةً، والذي لا شكَّ فيه أنَّ المعنى هو الوجه الآخر للعبارة الأدبية، ومتى كانت العبارة تعتمد المجاز في الصياغة كانت قادرة على أنْ تحمل المعنى بصورةٍ أكثر اتساعًا وعُمقًا، وهؤلاء الشعراء كانوا يتوسَّعون في المعنى باتخاذِهِمُ المجازَ وسيلةً للتعبير.

ونحن نجد ذلك كثيرًا في أشعارهم، يقول زحفان:

ذا خرج فصل ان السلطنة بالمعزة

احيي نفسك وموتها عزيزة

لاجل يدعونك السلطان في كل برزه

واحذر الكبر يظهر عالقزازه

تشتعر والذباله في خطر هي وِيَّا القاز

وقد كان باحريز أستاذًا في فن استخراج المعاني، وإخراج الموضوع من إطاره الواضح المعروف الذي يعلمه الناس ويدركونه إلى معنى أوسع، وأفقٍ أكثرَ اتساعًا من الموضوع ذاته والحدث ذاته.

وهو يدرك ذلك أدراكًا واضحًا، ويعرف كيف يصل إلى معناه المبتغى، وهدفه المقصود، يقول عن نفسه في مساجلةٍ:

شاعـــــــر وله في المعاني كلها قدرة

دون الملامـــــــــة لي ما يجي حواليها

فهو يصف نفسه ـ وهو صادق ـ بأنه شاعر له عناية بالمعنى، وهذا واضح من أشعاره وتأمُّلها.

قُوَّة المعاني:

ليس صدفة أن يتربَّع شاعر ما على عرش الشعر، وأنْ يحتلَّ من مملكته رتبة عالية، فذلك أمرٌ له مفاتيحه وأسسه ومسبّباته، وباحريز بوصفه شاعرًا نابهًا جاءه هذا التقدُّم بسبب عنايته الخاصة بشعره؛ ولأنه استطاع أنْ يعدَّ نفسه بأدوات التقدُّم اللازمة، وأبرز ذلك عنايته بالمعنى والبحث عنه، وصوغه، وليس بعيدًا قول الفرزدق إنَّه يأتيه وقت نزع ضرس أهون عليه من قول بيت من الشعر، فذلك تعبير عن المعاناة التي يعانيها الشاعر في صوغ أشعاره، والبحث عن معانيه.

وقد تقدَّمتْ إشارة باحريز في بيته الآنف الذكر إلى عنايته بالمعاني والبحث عنها، في قوله:

شاعـر وله في المعاني كلها قدره دون الملامـــــــه لي ما يجي حواليها

64
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

فطم العيدروس..

شكري نصر مرسال

الأخيرة

في الثلث الأول من عام ١٩٨٣م أصيبت السيدة الحضرمية فطم العيدروس بوعكة صحية، دعتها عاجلًا لفحوصات دقيقة، أظهرت نتائجها بالفعل أنَّ قلبها الكبير قد طاله المرض وأعياه، فتقبلت الأمر بمزيد من الصبر محتسبة، تأثر الأستاذ علي عقيل بن يحيى بسماع الخبر وأقلقه أمرُها، وتوسعت عيناه في دهشة، ودخل في نوبة من البكاء المرير كأنه يشفّعها أن لا تفارقه حتَّى لا تحل به مجدَّدًا انحناءات الحزن كحزنه على فراق حلمه العربي الذي تفاجأ ذات ليلة بسقوطه مغشيًّا بين يديه الأمينة حينما نخر بذلك الجسد العربي دبيب من حال أمراض المتغيرات السياسية المتأزمة، وكيف لإنسانية علي عقيل أن لا تصاب بكدر الأحزان في مرض السيدة فطم ولديهِ ترجمان حال لسان الوفاء من عينيه يقول: إنْ لمْ يبكِكِ قلب أم العباس الذي ظللْتَ مطويًّا في أعماقه فمتى ولمن تبكي يا علي عقيل؟! وقد عادت به الذكريات إلى الوراء في تلك اللحظة ليقرأ من (كتاب الوفاء)، لأم العباس، فصولًا من لطائف العطاءات ظهرْت أمامَه متجلِّية بصُوَرِها الجميلة في مواقف الحياة المختلفة، قدَّمَتْها هذه الروح الطيبة، وظلَّت تظلّلُه بأشجار النخيل، وتزرَعُ في طريقه الأعنابَ، ودامت تدور في فلكه بمحبة لمْ تخذُلْه، وبإحدى يديها في تواصلٍ ترفع علم أسمى أمانيه، وبالأخرى تحتضنُه بروح الفداء محبَّةً في علي عقيل، وببطن كفِّها تربَّت على كتفه مبتسمةً، تغسل عنه عناء الرحلة بمزيد من دعوات الرضاء والمساندة.

ولحظة استكمال ملف المعاينة الطبية، وتأكَّد للجميع أنَّ قلب السيدة فطم العيدروس، حَرَم المفكّر الكبير علي عقيل، يشكو ضعفًا في نبضاته، وقصورًا متطوِّرًا في عدم قيامه بوظائفه، وقد أصبح يحتاج في عجل لتدخُّلات جراحية نوعيَّة من قبل المختصين في دوائر الطب الجراحي، سافرت المرأة الودودة (أمُّ الجميع) في رحلة علاجية خارجية، تحمل بين أضلعها قلبًا أرهقتْه أحداثُ المراحل جريحًا، صابرًا، من دون شكوى، استقرت بها في الجمهورية الفرنسية، وعند معاينتها مجدَّدًا في مستشفى (Longjumeau)، من قبل الدكتور الفرنسي (لا كتينو) تأكَّد له أنَّ السيدة فطم تعاني من ضعف شديد في نبضات القلب، فارتأى ضرورة إجراء العملية، فأوصاهم بالذَّهاب إلى طبيب آخر فرنسي من أصول تونسيَّة يعمل جرَّاحًا بمستشفى (شارميلس)، اسمه الدكتور (طويل).

وصلت السيدة الحضرمية فطم العيدروس صاحبة الملامح الأرستقراطية إلى مستشفى شارمي لس (charmilles) بمدينة (أر بي جون) (Arpajon) القريبة من العاصمة باريس، وكان الدكتور (طويل) في مستشفى شارميلس، ولحسن الحظ أنَّه يحمل تفاصيل الدكتور (لا كتينو) نفسها من حيث أخلاق المعاملة الإنسانية الجيدة والبشاشة واحترامه الكبير للسيدة الفاضلة فطم العيدروس،

فأجاز في التوِّ عملية التدخل الجراحي من خلال اطّلاعه على كامل ملف الحالة المنظورة أمامه، فقرَّر إجراء العملية الجراحية لها، من خلال جهاز (البسميكر)، الذي رُكّب لها ليحل محل القلب، فأجرى لها عملية التدخل الجراحي في ظروف صحية في غاية التعقيد، وفي علم الدكتور (طويل) ربما يتوقَّف القلب عن العمل في أثناء العملية، وفي هذه الحالة لا يستطيع أن يعمل لها شيئًا حسب قوله، ولكنْ شاء القدر بلُطفِهِ أنْ تنجح العملية الجراحية. وظلَّت السيدة العيدروس تحت مجهرية المراقبة الصحية. وقد عادت للسفر في ما بعد إلى فرنسا لمرَّاتٍ عدَّة في فترات متفاوتة لدواعي المعاينة أُخضِعت خلالها لعمليتين جراحيتين لتبديل جهاز القلب، وظلت تتعايش مع مشكلتها الصحيَّة صبورةً لسنواتٍ طويلة امتدَّت لأكثر من ستة عشرة عامًا بفضل جهاز (البسميكر)، الذي وضع لها مكان قلبها الضعيف النبضات، وكانت أُمُّ العباس على علم بخطورة العملية التي تستغرق في مرَّةٍ أكثرَ ساعاتِ اليوم، ولكنها كانت مؤمنة، يستهويها الهدوء، وفي حالة نفسية متوازنة «كما وصفتْها إحدى الفرنسيات بالقوة الهادئة؛ لما لمستْهُ منها من تسامح وعفوية وحنان يفوق المألوف». كما حظيت أُمُّنا فطم في رحلتها العلاجية بمحبَّة كبيرة من قبل الدكتورة (موتيكا)، التي عملت على معاينة صحَّتها منذ أنْ وطأتْ أقدامها الديار الفرنسية، والتي تُوُفِّيَتْ قبل أسابيع قليلة.

وبعد هذه الحياة الطويلة الحافلة بالأحداث آن الأوان لهذا القلب المنهك أن يستريح، ويحظى بقسط كبير من الهدوء والراحة، بعيدًا عن التزامات الحياة ومسؤولياتها وهو أساس السلامة، الأمر الذي جنحتْ إليه بالفعل من خلال عودتها إلى حضرموت؛ لتعيش حياة هانئة هادئة مع نجلها الأستاذ القدير عباس بن علي عقيل - رحمه الله - ومع أحفادها وأبناء الأحفاد؛ إذ عاشت معهم كصديقة مخلصة، كما تفرَّغت من جديد لصداقة الكتب وصحبتها في ألفةٍ، كقارئة ممتازة تقرأ في جميع المجالات، وما إن يحل كتابٌ ضيفًا بين يديها إلا وتنتهي من قرأته، ومن ثَمَّ تشرع في نقده ومناقشته بفكر حُرٍّ في مجالس أُسريَّة، تمتلك علاقة أزليَّة في مصاهرة الكتاب والمكتبات، كما كانتْ مُكثِرَةً من وجودها بين رفوف الكتب تحديدًا في أواخر حياتها، قبل أن تغمض عينيها لحظةَ موتها في يوم السبت الـ ٢٨ من ربيع الأول الموافق ٩/ يناير ٢٠١٦م.

ففي هذا اليوم تُوُفِّيت السيدة فطم العيدروس، وحُمِلت على أعناق الرجال، ووُورِي جثمانُها الطاهر في مقبرة (الشيخ علوي)، بعد أن صُلِّي عليها بمسجد طه بن عمر، القريب من منزلها بمدينة سيئون بحضور حشد كبير من الناس، بعد حياة مترفةٍ بالعطاء الإنساني والاجتماعي والثقافي والتربوي والتعليمي.

وفي ختام هذه المادة المثقلة بالحزن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لكل من أشار إليَّ بمعلومة عن هذه الشخصية الفذَّة، ويُعزَى الفضل كل الفضل للأستاذتين الفاضلتين الدكتورة عزة والدكتورة ليلى ابنتي القيادي الكبير والمناضل العربي الجسور الأديب المؤرخ علي عقيل بن يحيى اللتين نصبتا لي جسرًا لوجستيًا من المعلومات، سرَتْ عليه في رحلتي البحثية الممتدَّة من أوله بداية من فرنسا، إلى آخره في أمريكا الجنوبية.

فيا أُمَّنا فطم.. لكِ مِنَّا تحيَّةً وسلامًا، ومن الله جنَّات تجري من تحتها الأنهار.

66
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

عن الديوان الموسوم "بشير القوافل" للشاعر سالم زين باحميد

صالح سالم عمير

استهلال:

في عالم الشعر، لا يندر أن نجد شاعرًا يُخلد ذاته في قصائده، لكن ما أندر ذلك الذي يُخلّد الآخرين، لا حُبًا في الخلود بل وفاءً لهم، والشاعر سالم زين باحميد جعل من بيانه منبرًا لتكريم المبدعين، ومن دمعة القصيدة نداء وفاء لا يغيب، من خلال ديوانه الموسوم «بشير القوافل»..

فقد حمل في قلبه حضرموت بكل ألقها، واليمن بكل توهّجها الثقافي، وراح يرثي أعلامها كحسين البار والزبيري ولطفي أمان وباكثير وسعيد عوض باوزير، كأنما يُتمم ما بدأوه، ويزرع الورود على أطلال غيابهم.

ولم يقف عند حدود الجغرافيا، بل وسّع رقعة الوفاء لتشمل أعلام الأدب العربي الأوسع: العقاد، حسين مروة، ميخائيل نعيمة، جبران، العلائلي، الجواهري، ونزار قباني وغيرهم.. كأن كلمات الشاعر باحميد تلك تفتح باب الخلود في قلوبٍ أحبتهم وتُعيد إلى الأذهان بهاء عطائهم، حتى بعد أن سكنهم الصمت..

سالم زين باحميد شاعر لا يرثي الموتى، بل يرثي غياب الضياء في عيونهم، ويرمم الغياب بالذكريات، فهو شاعر جعل من الرثاء فنًا سامقًا، ومن الوفاء قضية شعرية قائمة بذاتها رحمة الله تغشاه..

وسأحاول أن ألقي بعض الضوء على هذا الديوان «بشير القوافل»[1] الذي أكثر قصائده في الرثاء، في شخصيات

---

١ صدر الديوان الموسوم – بشير القوافل – للراحل سالم زين باحميد سنة ٢٠١٠ ، يقع في ١٦٥ صفحة مقاس الصفحة ١٤ × ٢٠ منشورات مركز عبادي للدراسات و النشر ، وعنوان الديوان (بشير القوافل) عنوان قصيدة الرثاء في بامطرف .

عربية ووطنية معاصرة، والقسم الثاني من الديوان عنوانه – سبعون وقصائد أخرى – .

أولا: قصائد الرثاء:

قيلت في الكثير وسأذكر أسماء بعضهم، مثل «حسين محمد البار صاحب ديوان من أغاني الوادي» ومثل «الشهيد محمد محمود الزبيري ٣٠ مارس ١٩٦٥» و منها:

نبأ يزلزلُ في النفوس كيانها
ياهول ما حملوا..من الأخبارِ
قالوا قضَى محمود.. لا لم يمت
بل باقيا في أنفس الثوّارِ
بل باقيا في الفكر في آدابِنا
في كلِّ بيتٍ لاهبِ الإصرارِ
صوتٌ يجلجلُ في الأثير مزمجرا
ينسابُ في الأعماقِ في الأغوارِ
ياثورة فوق المنابر تاركا
في كُلِّ نفسٍ موجة من نارِ !

و يقول أبو نزار في رثاء لطفي جعفر أمان:

أبو هديل غابَ عن مسرَحِنا
عن مسرح الكلام
من بعد أن كان هنا
من صانعي الأنغام ..
ما أثقل الآلام !!

و في رثاء علي أحمد با كثير :

أنت غادرتنا ففي القلبِ حزنٌ
و اكتئابٌ، و الدمع في الآماق

و في رثاء : سعيد عوض باوزير :

للغيل تحنُّ ضمائرنا نحيا في حبٍّ، في تحنان
نشتاق إلى صوتٍ عذبٍ أحلى من إيقاع الألحان
فإذا بالموتِ يسابقنا ونعيدمواويل الأشجان!

و منها :

وطني أحمله بفؤادي
لا أغلى منه في الأوطان
أفديه بروحي..
و بدمّي
أفديه بما هو في الإمكان
وطني سيظلّ
و في ألقِ
كالطَّود شموخا في الأزمان
و بنوه مناراتٌ كبرى
تعلو في آلاف الشطآن
أوّاه الموتُ يلاحقنا
ما أتفهه عيش الإنسان !

و في رثاء سعيد مبارك مرزوق الشاعر والملحن والمغني:

في لحظةٍ غادرتنا من عالم الشقاء
من عالم الأحقادِ.. و البلاء
ما فيه من سلوى
بغير الشعر..
و الغناء !!
نروّح النفوس بالآمال بالرجاء
عفوا
أبا الدان
أبا الغناء !!

و يقول في رثاء أستاذ الجيل محمد شيخ المساوى:

أنت عرّفتنا الحياة نضالا
و كفاحا لا ينثني لصعابِ.

وفي الديوان أيضا رثاء في باحريز وحسن بن

عبيدالله وبامطرف ومبارك سالم النهدي (أبو بشر) شاعر الكسر، منطقة غنيمة:

صوتٌ يجلجلُ كل ناحيةٍ بين الجموع مميّز النبر
من بعد تسعين مضيتَ بها ألقيتَ رحلكَ.. يا أبا بِشْرِ

ورثاء في خميس كندي (اكتوبر ١٩٩١) وعلي عبدالرحمن السقاف بنقاله (فبراير ١٩٩١).

ويقول باحميد في رثاء أبي بكر بن عبدالله باحميد:

نمضي ذهولا
والحياة تشدّنا
شوقا ، كأن الموت.. ليس بآتِ
فالعيشُ محبوبٌ برغم تألّمٍ
نحن أسارى الوهمِ..
واللّذاتِ!!

ومن العرب رثاء العقاد ١٢(مارس ١٩٦٤) وحسين مروّة (الذي اغتيل في بيروت ١٧/ ٢ / ١٩٨٧) ورثاء ميخائيل نعيمة، وبمناسبة مرور مائة عام على ميلاد جبران خليل جبران يكتب الشاعر:

قرنٌ من الميلاد يا جبران
مرّ.. و ما زالت أمانينا كما كانت
حروفا لم تزل تزحف باستحياء
لم تتعدَّ القول !!

و منها :

حاضُرنا، واقعُنا ملئ بالمآسي
نحيا زمان الدجل..
و الخرافة
نضحك و الأحقاد في أعماقنا
تصارع الحب.. في شراسة !

وما أبهى هذه المقاطع وما أعمق رؤاها كما سنلاحظ، فهي لا تأتي من شاعر يكتفي بتأبين الرموز، بل من صوتٍ يُجدّد رسالتهم، ويُسائل الواقع من خلال مرآة مآثرهم.

ففي قوله على سبيل المثال في رثاء جبران:

«قرنٌ من الميلاد يا جبران
مرّ.. وما زالت أمانينا كما كانت»

نرى حسرةً وجودية مغلّفة بالحكمة، إذ يعاتب الزمان من خلال جبران، لا جبران نفسه. إنه استدعاءٌ لرمزٍ نهضوي كي يشهد على خيبة عصرٍ لم يحقّق ما حلم به جبران من انعتاق وتجاوز، بل بقيَت «أمانينا تزحف باستحياء»، أي أننا ما زلنا نراوح في دائرة القول دون الفعل، وهي مفارقة موجعة..

ثم في قوله:

«نحيا زمان الدجل.. والخرافة
نضحك والأحقاد في أعماقنا
تصارع الحب.. في شراسة!»

يبلغ الشاعر ذروة جرأته الفكرية، فيفضح الزيف الاجتماعي والازدواج الأخلاقي الذي يعيشه الإنسان العربي، هذه ليست مجرد مرثية، بل تقريع ناعم، ومساءلة للذات الجماعية في حضرة من كان طليعة الحالمين والناقمين على الركود، مثل جبران.

إنّ الشاعر سالم زين باحميد في ديوانه الموسوم «بشير القوافل» لا يضع الرثاء كقفص من الحزن، بل كمِرآة يرى فيها واقعًا خَذَلَ الرموز التي كانت تنادي بالحُلم. قصيدته هنا تشبه عزفًا داخليًّا على وتر الضمير الجمعي، تارة بالحنين، وتارة بالغضب النبيل..

على كل حال أعتقد من نافلة القول الإشارة إلى أن منجز الشاعر سالم زين باحميد الشعري معروف للمهتمين وأن دواوينه الشعرية تتعدد رؤاها وموضوعاتها وأغراضها، وقد تغنَّى في بعضها بالعروبة وبالوحدة العربية واليمنية والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص ،

وظلت عيناه لا تخطئ مواقع الجمال في المدن

التي أحبها وفي محطات حياة أصدقائه الذين كتب أشعاره عنهم، ولم أشر هنا إلى مواقفه الاجتماعية وأدواره الوطنية.. إلخ

كتب الأستاذ عبدالقادر محمد الصبان عن أبي نزار في وقتٍ مبكر من أوائل السبعينيات[٢] وأورد له نصوصا مُرسَلة، وأشار إلى أنه (أحد الأفراد الذين تأثروا بمدرسة الشعر الجديدة) وأشار إلى أنه (يعتبر في طليعة رجال النهضة الأدبية المنتظرة) وأنه (ساهم في التحضير للاستقلال بقلمه وبعد الاستقلال) ثم قدّم له أربعة نصوص كلها من الشعر المرسل وختم مقاله بقوله «هذه نماذج قدّمناها من شعر الشاعر الشاب سالم زين باحميد».

ا.هـ

رحم الله أبا نزار، الإنسان النبيل والشاعر الأصيل وكأن الشعر الذي كان يكتبه مبعث الطمأنينة التي كان يتمتع بها وسبب شعوره بالرضا وراحة البال ومحبة الجميع!.

فاصلة

وبمناسبة أربعينية أبي نزار -طيّب الله ثراه- شاركتُ بمرثية شعبية أظن لا بأس أن أختار منها بعض المقاطع:

لما أتَى هذا الخبر
في نشرة الأخبار
هَجَمْ على قلبي الكدر
و دار حِسِّي دار
أوّاه من دنيا الندم
تتخيّر الأخيار

***

مكتوب قاسي.. كالحجر
قَسَا تمادَى.. جار
رحل عن الدنيا عَبَر
نِعم الصديق البار
أوّاه يالمكتوب تقسُو عندما تختار

***

سَالت مآقي بو عمر
(كُنية نجله نزار)
واخوَان طوال أعمار
على الأب الغالي الأبَر
اللي عليه البار
المخلص الشهم الوفي.. العالي المقدار
(توفِّيَ بصنعاء وكانوا بجانبه)

***

الدمع في صنعا انهمر
على الخدود .. أنهار
حتى السما صَبّت مطر
دمع السما.. أمطار
ياللمُصاب الشاق..
عالذريّة الأبرار

***

لأبي نزار المُعتبَر
باتشهد الأقدار
غير المحبةْ ماضَمَر
والخير .. والإعمار

٢ انظر كتاب الصبان «الحركة الأدبية في حضرموت» الناشر مكتب وزارة الثقافة حضرموت المكلا الطبعة الأولى ٢٠٠٣. وهو يتحدث عن ذكرياته عن الشاعر علي أحمد باكثير عندما زار سيئون في ابريل ١٩٦٨م كتب: (لقد عشنا أياما سعيدة وخالدة معه وأفدنا الكثير منه – عشنا مع هذه العبقرية بعد أن قرأنا وسمعنا عنها الكثير لقد كنت أتردد عليه أثناء إقامته القصيرة ببيت أخيه عمر – وقدمت إليه بعض قصائدي وقد قام بقراءتها جميعا وعندما التقيت به بعد ذلك طلب مني الجلوس بجانبه مباشرة وأخذ يستعرض القصائد واحدة واحدة ويدلني على بعض الملاحظات وقد وضع تحت بعض الكلمات خطا ولا زلت احتفظ بهذه النسخة ثم قال لي: لولا أن قصائدك اعجبتني لما كلفت نفسي قراءتها جميعا إنني اتمنى لك التوفيق وأرى أنك في الشعر المرسل أحسن منك في الشعر العمودي واعجبتني بشكل خاص قصيدتك في المتنبي هكذا قال لي بالحرف.

الحب طبعهْ
و الوفاءْ و الودّ.. والإيثار
***
شاعرْ يسرّ القلب سَر
محبوبْ أنَّى سار
شاعر زَرَعْ حَرفُهْ.. ثَمَرْ..
من أجود الأثمار
ماغتر بالدنيا ولا بالفلس .. والدينار
***
على المتاعبْ كم صبر
دايم قوي صَبَّار
فيها جرى فيها شَجَرْ
ثابت كما الأشجار
من أول المشوار حتى آخِر المشوار
***
في النثر في رَوْعَة نثر
على المَساوي .. ثار
بكلِّ شِي حَس أو شَعر
سَجَّل .. أرق أشعار
بكلّ فن يرسم صُوَرْ.. كأنها الأزهار
***
في عشق سيئون ابتكر
مُعلّقات أَبكار
أحلى القصائدْ.. كالدُّرر
مِنها ابتهج كُلْ دار
تشبه ترانيم الوتر أو نغمة الأطيار
***
ينظُم ويكتُب بالبصر
و العزم والإصرار
للنصر يدعو للظفر
ولكلّ مقصد سار
يشدو لحريَّة وطن.. و يمجّد الأحرار
***
يَشجُب.. يُندِّد لو نظر
لأمرْ .. موذي ضار
في يَمّ إبداعه بحر
و أتقن الإبحار
غَنَّى وأنشد للضياءْ والنور والأنوار
***
في سارقي القدس انفجر
في زُمرة الفُجَّار
في أهل باطل.. أهلْ شَر
الزُّمرَة الأشرار
لي دنّسُوا الأقصَى وعاثُوا فيه.. ياللعار
***
وقلت في ختامِها:

الموت مامنُّه مفر
يارب ياغفّار
فاجعل له الجنّةْ مقر
يا عالم الأسرار
في جَنّة الفردوس تجري تحتها الأنهار
***
مامات شاعر فذ.. أغَر
جدير بالإكبار
مامات مَن خَلَّفْ.. أثَر
من أروع الآثار
هل مات بامطرف، أو الكندي، أو المحضار؟!

الماضي الثقافي لحضرموت

ميخائيل أناتوليفيتش راديونوف

ترجمة د. مراد محمد باعلوي

ملخص:

هذا البحث يُناقش الخطوات الأولى للإثنوغرافيا الميدانية الأوربية في جنوب شبه الجزيرة العربية، وتحديدًا في حضرموت، حيث اشتهر سكان المنطقة الحضارم في حوض المحيط الهندي ملّاحين وتُجّارًا ومُلّاك أراضي، إضافة إلى أنّهم دعاة وناشرون للإسلام الصحيح. ويعد وادي حضرموت - الوادي الرئيس في المنطقة؛ إذ كان يُحظر دخول الأشخاص غير المؤمنين إليه، لذلك كان أوّل أوربي حاول اختراقه والدخول إليه لأغراض علميّة عام ١٨٤٣م، هو فون فريدي، الذي تظاهر بأنه مسلم، لكنْ تمّ كشفُه في بداية رحلته، ففي أوربا تمّ التشكيك فيه، ثُمّ تمّ لاحقًا التأكد من دقة البيانات الرئيسة. أدّى الباحث الهولندي المتخصص في البحوث الإسلامية ڤان دن بيرغ دورًا رئيسًا في إعادة تأهيل فون فريدي، إذ يُعد كتابُه «حضرموت والمستعمرات العربية في الأرخبيل الهندي» مثالًا بارزًا على الإثنواغرافيا الميدانية عن بُعد[1].

ثُمّ واصل هذا التقليد مواطنه وناقده المستعرب سنوك هيورغرونيه، الذي درس المنطقة أيضًا، مُستخدِمًا الأساليب الميدانية الخارجية (عن بعد). وقد نجح في لفت انتباه ڤ. أ. كراتشكوفسكايا لهذا الموضوع، التي أصبحت مؤسس للإثنوغرافيا الوطنية الروسية لحضرموت. كاتب هذا البحث يجمع بين الاهتمام بالإثنوغرافيا الميدانية عن بُعد لحضرموت واليقين بوجود هُوِيَّة إثنو- ثقافية حضرمية خاصَّة، إضافة إلى نهج إثنولغوي، وإهتمام بإثنوغرافيا النص، والاستعداد للعمل مع المشاركين في البحث خارج نطاق المجال المدروس.

الكلمات المفتاحية: جنوب شبه الجزيرة العربية، حضرموت، الهُوِيَّة الإثنو ثقافية، الإثنوغرافيا الميدانية والخارجية.

للإقتباس: روديونوف م. أ. إثنوغرافيا ميدانية عن بُعد في سياق البحث عن الهوية في جنوب الجزيرة العربية. كونستكاميرا. ٢٠٢١. ٣(١٣): صـ ٢٠٦-٢١٣

الحضارم في الوطن وفي حوض المحيط الهندي

تكمن خصوصية حضرموت الطبيعية في تنوعها: الشريط الساحلي، سرعان ما يتحوَّل إلى هضاب يصعب الوصول إليها، وهي تتحوَّل إلى شبكة متشعبة من الوديان الخصبة. هذه المناطق الجغرافية يحدُّها بحر العرب جنوبًا، وصحراء رملة السبعتين الحارَّة شمالًا. وعلى مدى التاريخ الطويل لحضرموت تبدَّل حُكَّامها وأشكالُ الحكم فيها، غير أنَّها حافظت على فكرة كونها إقليمًا واحدًا وأرضًا واحدة باسم ثابت لم يتغير، والذي يفسره علم اللغة وأصولُ الكلمات بـ«حضر الموت {لأعدائنا}». ومن هنا تأتي خصوصية تاريخية - مزيج خاص من عوامل تكامل وتمايز، في مفارقة تتجلّى في التشتت

١ الإثنوغرافيا الميدانية عن بُعد – هي منهجية بحثية، يتوصل من خلالها المتخصصون إلى نتائج علمية من دون العمل مباشرة في المجال المدروس. يتضمن هذا المنهج على سبيل المثال، دراسة الثقافة العرقية من خلال اللغة (الأدبية، العامية، الشعرية، أو التعبيرية)، وتحديد النصوص الرئيسة المتعلقة بالموضوع المدروس وتحليلها، إضافةً إلى الاستعداد للعمل مع مصادر معلومات من خارج المجال المدروس.

مقابل التطلع إلى الوحدة.

إن سكان المنطقة الحضارم مقسَّمون اجتماعيًا، أي إنَّ في مجتمعهم كان يوجد وما يزال موجودًا تسلسلٌ هرمي وراثي صارم من الطبقات الاجتماعية التقليدية (الطبقات) - هي سمة تتميز بها كل مناطق جنوب الجزيرة العربية.

يعتمد هذا التسلسل الهرمي على:

١) مبدأ التوافقات الزوجية، التي ينظمها في حد كبير (الهايبرغامية) - أي أن يختار الشخص زوجة من مكانته الاجتماعية نفسها أو أقل، والزوجة تختار شخصًا من المكانة نفسها أو أعلى.

٢) نظام الأنساب المعلن.

٣) التقسيم الطبقي للوظائف والأنشطة الاجتماعية.

يتبادر إلى الذهن التشابه مع الطبقات الهندية (الكاست)، غير أن عدم وجود سندٍ ديني واضح للطبقات الاجتماعية في جنوب شبه الجزيرة العربية، إلى جانب ما يتسم به المجتمع من مستوى معين من الحركية الاجتماعية المتأصلة فيه، تَحُولَانِ دون مساواة هذه الطبقات بالكاست الهندية (راديونوف ٢٠٠٧: ٢ - ٣، ١٩ - ٢٩، ٤٢).

كان التنظيم الاجتماعي للمجتمع الحضرمي يأخذ شكلًا قبليًا، غير أن المؤسسات الاجتماعية التقليدية للسكان المستقرِّين من غير القبائل - كالمناطق الإنتاجية وغيرها أدَّتْ هي الأخرى دورًا مهمًا، وقد وصل بعضُها إلى عصرنا الحالي من حضارات جنوب الجزيرة العربية القديمة. وفي المقابل، أقرَّتِ المؤسسات الإسلامية بترسيخ القواعد الشرعيَّة وصيانتها. وعلى هذه الأسس الثلاثة، وفي ظل غياب سلطة مركزية، تشكَّلت آلية نظام محليٍّ لتنظيم العلاقات الاجتماعية وضبطها.

وقد تشكَّلت الصورة الإثنو- قبلية المعاصرة في الإقليم قيد الدراسة قبل نحو مئةٍ إلى مئتي عام تقريبًا. وقد أدَّت حركات التنقل الداخلية، وكذلك هجرات الحضارم إلى الخارج، في الغالب إلى تغيُّر المكانة الاجتماعية للمهاجرين، وفي أحيانٍ أخرى إلى تبدُّل انتمائهم الطبقي (روديونوف ٢٠٠٧: ٣٩ - ٤٣).

لقد جذب سكان حضرموت انتباه الباحثين لقدرتهم على التنقُّل والمغامرة: في كل أنحاء المحيط الهندي (من مدغشقر إلى تيمور، ومن زنجبار وكينيا إلى شرق الهند، وجاوة وسنغافورة)، كما قدَّم الحضارم أنفسهم كملّاحين وتجار وملاك أراضي، إضافةً إلى كونهم دعاة وناشرين للإسلام الصحيح (المذهب السني الشافعي).

وفي الوقت نفسه، ظل الوصول إلى وادي حضرموت - الوادي الرئيس بروافده، مُغلَقًا أمام غير المؤمنين حتى أواخر القرن التاسع عشر.

من أدولف فون فريدي إلى لودوفيك فان دن بيرغ

يعد أدولف فون فريدي (١٨٠٧ - ١٨٦٥)، أوَّل أوربي حاول الدخول إلى المناطق الداخلية من حضرموت؛ لأغراض علمية، وهو مواطن من سُكَّان وستفاليا؛ إذ وصل إلى ميناء المكلا في حضرموت في يونيو ١٨٤٣م، وتمَّ ترحيله من البلاد في أغسطس من العام نفسه. وقد قدم نفسَهُ أنه مسلم، ينوي القيام بزيارة قبر النبي هود عليه السَّلام، الذي يزعم أنه شفاه من مرض خطير، لكنْ تمَّ كشفُ حيلته في بلدة صيف، في الطريق المؤدِّية إلى الوادي الرئيس. أثارت صحة قصصه ومذكرات سفره شكوكًا لدى عدد من الخبراء، ولكن لاحقًا تمَّ التأكد ميدانيًا من دقة أكثر معلوماته، باستثناء بعض البيانات الاستقصائية (كراتشكوفسكايا ١٩٤٣: ٣٢: راديونوف ٢٠٠٧: ٥ - ٦).

وفي عام ١٨٧٠م نُشرت مُذكرات رحلات فون فريدي، عندما كانت الإثنوغرافيا قد بدأت تنشط وتتطوَّر كتخصص مستقل في العلوم الإنسانية، ولذلك فإن ناشر الكتاب عالم اللغة والرحالة الألماني غ. فون مالتزان وبروح

العصر كان يبرز المادة الإثنوغرافية في العناوين الفرعية، وفي مقدمته للكتاب يستخدم تعريف «الإثنوغرافي»، لكشف المخادع دو كوريه الذي يزعم أنه زار المناطق الداخلية لحضرموت في عام ١٨٤٤م (فريدي ١٨٧٠: ٩).

في المذكرات تم وصف خصائص المظهر الخارجي الديكورات الداخلية للمساكن المحلية التقليدية (فريدي ١٨٧٠: ١٠٢ - ١٠٤، ١٩٣). كما تضمنت معلومات عن نشاط السكان، مثل زراعة التمور وتحصيلها (فريدي ١٨٧٠: ٥٢، ١٨٤ - ١٨٦)، وزراعة المحاصية الصناعية: مثل التبغ (فريدي ١٨٧٠: ٦٠، ٢٢٨)، السمسم (فريدي ١٨٧٠: ٦١، ١٧٠، ١٨٤، ٢١٣، ٢٣٢)، الأنديكو (نبته تشبه الحناء)، (فريدي ١٨٧٠: ٦٣. ١١٢، ٢٠٣ - ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٦٨). كما تناول في مذكراته نظام الري، وأنواع الآبار وأحواض تجميع المياه (الكريف)، والري بالغمر (فريدي ١٨٧٠: ٨٨، ٩٠، ٩٥، ١٠٥ - ١٠٦، ١٣٧، ١٤٢ - ١٤٣، ١٧٢، ٢٦٧ - ٢٦٨). كما لم يتجاهل الأزياء التقليدية وأَوْلَاهَا اهتمامًا: مثل الزي البدوي (فريدي ١٨٧٠: ٩٠ - ٩١، ١٧٠ - ١٧١)، والزي الخاص بالسكان المستقرين (فريدي ١٨٧٠: ١١٠ - ١١٢) - والفولكلور الموسيقي (فريدي ١٨٧٠: ٩٤، ١١٩، ١٣٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٧، ٢١٩).

كما تمَّ التطرق لبعض جوانب التنظيم الاجتماعي لبدو حضرموت، على سبيل المثال، المجلس القبلي (فريدي ١٨٧٠: ١٩٦)، والمراسيم المرتبطة ببداية الصراع بين القبائل وعادات المصالحة (فريدي ١٨٧٠: ١٩٨ - ١٩٩)، وثأر الدم (فريدي ١٨٧٠: ٢٢٦ - ٢٢٨)، والطقوس: مثل الزواج عند السكان المستقرين (فريدي ١٨٧٠: ٢١٧ - ٢٢٠)، وعند البدو (فريدي ١٨٧٠: ٢٦٢ - ٢٦٣) - والجنازة عند السكان المستقرين (فريدي ١٨٧٠: ٢٣٤ - ٢٣٥)، وعند البدو (فريدي ١٨٧٠: ٢٣٩ - ٢٤٠): وكل ما يدور من عادات يومية على الغداء عند البدو (فريدي ١٨٧٠: ٩٣ - ٩٤).

كان تصوُّر الحضارم عن العالم الخارجي كما يصوِّرُه مؤلِّف المذكرات بالمثال التالي: «أن آراءهم رائعة وأكثر إثارة للإعجاب حول الشعوب الغربية. هم يعتقدون أن قيصر الأرض روسي - وهو ملك يبلغ طوله سبعة أذرع، وأن حراسته تتألف من سبعة آلاف من آكلي لحوم البشر، يفوقون سيِّدَهُم طولًا وقُوَّةً جسديَّة، ولكل واحدٍ منهم لديه عينٌ واحدة فقط على جبهته (مثل السيكلوب - شخصية من الأساطير اليونانية القديمة، عملاق ذو عين واحدة)».

هناك أيضًا قصة بدوية عن سلطان عثماني قيل إنه كان مُعجَبًا بجمال ملكة إنجلترا، لدرجة أنه أدخلها إلى الإسلام، وضمَّها ضمن ما يسمى «حريم السلطان»، حيث أنجبتْ له سبعة أبناء (فريدي ١٨٧٠: ٧١).

ويولي الكاتب اهتمامًا خاصًا بتسمية القبائل وحجم السكان (فريدي ١٨٧٠: ١٠٢، ١٦٩ - ١٧٠، ١٨٥ - ١٨٦، ٢٥٣ - ٢٥٦). إذ أبرز ناشر الكتاب فون مالتزان جزءًا من هذه المعلومات في ملحق خاص (فريدي ١٨٧٠: ٣١٣ - ٣٢٣). في الملاحظات أعطى الناشر شرحًا لغويًّا وتعليقاتٍ حول أصول الكلمات، وغالبًا ما كانت مرتبطة بالحقائق المتعلقة بأسماء الأعلام (فريدي ١٨٧٠: ٢٧٥ - ٢٩٣). وقد شكلت خريطة المناطق الداخلية لحضرموت التي جمعها فون مالتزان عن بُعد، رغم عيوبها نقطة انطلاق نحو مزيد من البحث الخرائطي، تمامًا مثلما عُدَّتْ ملاحظات فون مالتزان نفسها مصدرًا لمزيد من البحث الإثنوغرافي.

وأدَّى الهولندي لودوفيك ويليم كريستيان فان دن بيرغ (١٨٤٥ - ١٩٢٧)، المتخصص في الشريعة الإسلامية (على المذهبين الحنفي والشافعي)، ومسؤول في الإدارة الاستعمارية في

جزر الهند الشرقية الهولندية، دورًا رئيسًا في إعادة تأهيل فون فريدي. إذ كان كتابه «حضرموت والمستعمرات العربية في الأرخبيل الهندي»، الصادر عام ١٨٨٨م، مثالًا بارزًا على الإثنوغرافيا الميدانية عن بُعد؛ إذ يعكس اهتمام الإدارة الاستعمارية في جاوة بالمهاجرين من جنوب شبه الجزيرة العربية، الذين ينحدر أكثرُهم من حضرموت.

وفي الجزء الأول من عمل (بيرغ ١٨٨٦: ٩ - ١٠٣)، وبعد تقديم لمحة جغرافية وتحليل البيانات المستخلصة من مذكرات الرحالة، تمَّ تقديم بيانات حول الهياكل السلطوية في حضرموت، عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية على وجه الخصوص، تحت عناوين: (المدينة والريف، المواد الغذائية، الأسرة والعبيد، التجارة، الحرف، الزراعة، الصيد، المعتقدات، العلوم والفنون، نسل النبي (صلّى الله عليه وسلم)، مكانة المرأة، والزي).

أما الجزء الثاني من العمل (بيرغ ١٨٨٦: ١٠٤ - ٢٣٠)، فهو مخصص للمستعمرين العرب في جزر الأرخبيل الهندي، من تاريخ الهجرة، ومهن المهاجرين، ومعتقداتهم ونظامهم التعليمي، وعواطفهم السياسية، والاختلافات بين أولئك الذين بقوا في وطنهم والمستعمرين، وتأثيرهم في المنطقة.

في حين كان الجزء الثالث (بيرغ ١٨٨٦: ٢٣١ - ٢٩٠) يستعرض اللغة العامية الحضرمية مقارنةً باللغة الكريولية التي يتحدث بها عرب الأرخبيل، ونصوص المراسلات بينهم. والكريولية في علم اللغويات تعني «اللغة التي تشكلت نتيجة خلط مفردات وقواعد نحوية للغتين أو أكثر وتستخدم في منطقة معينة». الملحق رقم (١ - ٧) يحتوي على خريطة حضرموت، ونماذج للعمارة التقليدية (مسجد، مبنى سكني، قلعة برجية)، وملابس رجالية ونسائية لسكان حضرموت والأرخبيل.

ومن المهم أن فان دن بيرغ، الذي لم يسبق له أن زار حضرموت، استطاع تحليل مذكرات سفر فون فريدي، وأدرك القيمة العلمية لملاحظاته (بيرغ ١٨٨٦: ٥).

من كريستيان سنوك هيورغرونيه إلى فيرا ألكسندروفنا كراتشكوفسكايا

أبدى المستعرب وعالم الإسلاميات الهولندي كريستيان سنوك-هيورغرونيه (١٨٥٧ - ١٩٣٦) (المتخصص في الدراسات الإسلامية والحديث) اهتمامًا بحضرموت وبطرق دراستها الميدانية غير المباشرة؛ إذ زار مكة المكرمة عام ١٨٨٤م، وهي المدينة التي يحظر دخولها لغير المسلمين، حيث التقى هناك ببعض الحُجَّاج القادمين من حضرموت لأداء مناسك الحج والطواف بالكعبة. وفي الفترة من ١٨٩١م إلى ١٩٠٦م عمل مستشارًا للحكومة في شركة جزر الهند الشرقية الهولندية. وقد أسهم سنوك-هيورغرونيه في اللسانيات الإثنولوجية (الإثنولغوية) والإثنوغرافيا النصِّيَّة في جنوب الجزيرة العربية، بعد صدور كتاب فان دن بيرغ الذي درسه بعناية ودقَّة نقديَّة (سنوك هيورغرونيه ١٨٩١: ٢٠ - ٣٠).

في مقال له عام ١٨٩١م، اعتمد سنوك هيورغرونيه على المادة الفلكلورية اللفظية ليُظهر الفوارق بين بعض اللهجات في حضرموت، خاصةً بين اللهجات المنطوقة في سيئون وتريم في وادي حضرموت[١].

وفي مقال له عام ١٩٠٥م، تناول عادةً قبليَّةً، كان بموجبها يمكن للقبيلة القويَّة حال نشوب نزاع أن تفرض حظرًا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان التابعين لها، وتُوقفها تمامًا

١ يقدم سنوك-هيورغرونيه تفسيرًا أكثر دقة للمثل القائل: «بعير يعصر وبعير يأكل الطخ»؛ إذ فسر سنوك هذا المثل كالتالي: «بعير يعصر زيت السمسم، والآخر يأكل المعصور»، فتفسير سنوك أكثر دقة من تفسير كاتب هذا المقال راديونوف الذي فسر هذا المثل كالتالي: «بعير يعصر زيت السمسم لذلك الجمل يأكل المعصور».

(سنوك هيورغرونيه ١٩٠٥: ٩٢ - ٩٩). أمَّا في منشوره عام ١٩٠٦م، فقد تحدَّث عن قبيلة الشعراء آل باعطوة، وهي قبيلة من الشعراء يَنظِمُ أفرادها القصائد باللهجة المحلية ويحفظون في ذاكرتهم التراث الشعري لأسلافهم عن ظهر قلب. وفي مقاله الأخير عام ١٩١١م تناول شخصية الزاهد الصوفي الشيخ سعد بن علي بن عبدالله بامذحج التريمي المعروف بـ(سعد السويني)، حامي المزارعين والذي نُسبت إليه عدد من الكرامات والأشعار باللهجة العامية.

كان سنوك-هيوغرونيه شغوفًا جدًا بإثنوغرافيا حضرموت، التي أدَّى أهلها دورًا مهمًّا في حياة جزر الهند الشرقية الهولندية [٢]، وقد كان يتفاعل بحيويَّة مع كل ما يُنشَر عن هذا الإقليم. وقد تمكَّن من نقل اهتمامه هذا بحضرموت إلى الزوجين كراتشكوفسكي، عندما كان إغناتي يوليانوفيتش وڤيرا ألكسندروفنا في هولندا خريف عام ١٩١٤م، قبيل الحرب العالمية الأولى. وكثيرًا ما كانا يلتقيان «في بيت سنوك»، حيث كانوا يناقشون موضوعات تتعلق بالاستشراق والمستشرقين، ويستمعون إلى التسجيلات الفونوغرافية التي أعدَّها سنوك-هيورغرونيه للأغاني العربية والمواد المسجَّلة باللهجة العربية العامية، وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى قدم المستعرب الهولندي سنوك-هيورغرونيه المساعدة للزوجين كراتشكوفسكي للعودة إلى روسيا (دولينينا ١٩٩٤: ١٣٢ - ١٣٣).

أصبحت ڤيرا ألكساندروفنا كراتشكوفسكايا (١٨٨٤ - ١٩٧٤) المؤسسة الأولى للإثنوغرافيا الروسية الخاصة بحضرموت. وقد افتتحت سلسلة منشوراتها بمقال عن تاريخ دراسة الأقليم، الذي نُشر في مجلة إزڤيستيا التابعة للجمعية الجغرافية السوفيتية عام ١٩٤٣م، بمناسبة الذكرى المئوية لرحلة أدولف فون فريدي إلى المنطقة. بعد ذلك عملت ڤ. أ. كراتشكوفسكايا على موضوعين أساسيين في أبحاثها، هما:

١) المساكن التقليدية في حضرموت (كراتشكوفسكايا ١٩٤٤: ١٩٤٧ أ، ١٩٤٧ ب).

٢) الملابس النسائية التقليدية في حضرموت (كراتشكوفسكايا ١٩٤٦: ١٩٤٦).

وقد ساعدتْها قدراتُها الفَنِّيَّة في أبحاثها «الخارج-ميدانية» (الإكزو-فيلدية)؛ إذ مكنتها من التعامل والتنقل بحرية وسهولة بين المواد الميدانية والمتاحفية الأجنبية، وتحديد عناصر نمطية منها. فعلى سبيل المثال، في قائمة الجرد رقم ٥٧٥٢ في متحف الانثروبولوجيا والإثنوغرافيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية، التي تضم ١٤ قطعة من الملابس العربية الرجاليَّة والنسائيَّة، اقتناها المتحف عام ١٩٣٩م، نجد تعليقات تفصيليَّة للزوجين كراتشكوفسكي، وردت في مقال أ. بولانوفا (١٩٧٠: ٢٦٢ - ٢٧٧).

وفي أحاديثها مع المستعربين في سانت بطرسبورغ (بمن فيهم كاتب هذا المقال)، كانت كراتشكوفسكايا تذكر مرارًا أن الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسيَّة كانتْ قد خطَّطتْ في منتصف القرن التاسع عشر لإرسال بعثة إستكشافية لحضرموت، والتي ألغيت آنذاك بسبب حرب القرم. ولا شك أن هذا الحدث أثَّر في اختيار المجال البحثي عام ١٩٨٢م، عندما أسَّس ب. ب. بيتروفسكي (١٩٠٨ - ١٩٩٠) و ب. أ. غريزنيفيتش (١٩٢٩ - ١٩٩٤) البعثة السوفيتية-اليمنية المشتركة التابعة لأكاديمية العلوم الروسية.

الهُوِيَّة الحضرميَّة والإثنوغرافيا غير الميدانية (عن بعد)

من المثير للاهتمام لدينا أن الباحثين الاثنوغرافيين من فون فريدي إلى كراتشكوفسكايا كانوا يعدُّون حضرموت منطقة مستقلة ثقافيًا وجغرافيًا في جنوب الجزيرة العربية، وليستْ جزءًا من اليمن. كما كانوا يعدُّون الحضارم ضمنيًا جماعة إثنية خاصة ضمن الهُوِيَّة العربيَّة العامة. ولا

٢ للإطلاع على التأثيرات المتبادلة الاثنية ثقافية الحضرمية-الإندونيسية انظر: (رادیونوف، شوينيج ٢٠١٠)

يَعُدُّوْنَهم جزءًا أساسيًا من الشعب اليمني.

يمكن بسهولة تصوُّر مكوِّنات الهُوِيَّة الحضرميَّة بأنَّها مستويات متعددة من التضامن، وفقًا لروح المثل العربي الشهير: «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على ابن قبيلتي، وأنا وابن قبيلتي على الغريب». وتتمثل مستويات التضامن الأساسية في النحو الآتي:

- القرابة/ الطبقية.
- يليه المستوى المحلي (من البيت والوطن الصغير إلى الإقليم).
- ثم مستوى الانتماء اللغوي (لغتنا العربية).
- وأخيرًا المستوى المذهبي (نحنُ سُنَّةٌ على المذهب الشافعيّ).

غالبًا ما كانت السلطات المركزية في الدول التي حكمت حضرموت تنظر بارتياب إلى الحضارم، معتبرةً إيَّاهم ميَّالين للنزعة الانفصاليَّة. ففي عهد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية جرتْ محاولة لطمس الأسماء التاريخيَّة للمحافظات، واستبدالها بأرقام من ١ إلى ٦، وكانت حضرموت تحمل الرقم ٥.

يتجلى حب الحضارم لأرضهم في نظرتهم القدسيَّة إلى طبيعتها؛ إذ يرون فيها أرضًا مباركة تحتضن قبور الأنبياء ما قبل الإسلام والأولياء والزُّهَّاد المسلمين. وفي أقصى شرق حضرموت تقع بئر برهوت، التي يُروى أنَّها المكان التي تمكث فيها أرواح الموتى قبل أن تُرسل إلى الجنَّة أو النَّار (رودیونوف ٢٠١٠: ٣٤١ - ٣٤٥).

كما تشمل الهُوِيَّة الحضرميَّة الإيمان بأنَّ حضرموت هي مركز العالم، الذي يعيش فيه أبناؤها المنتشرون في المهجر، وأنَّ أحفادهم يحلمون بالعودة إلى وطنهم التاريخي وأرض الأجداد، التي لمْ يَرَوْهَا يومًا، لكنَّهم تخيلوها في مخيلتهم باستخدام أساليب تقترب من المنهج الإثنوغرافي (عن بُعد)[1].

ما الذي يجمع ويوحد علماء الإثنوغرافيا الذين تناولتْهم المقالة، إلى جانب اهتمامهم بالدراسة الميدانية عن بُعدٍ لحضرموت، وإيمانهم الراسخ بوجود هُوِيَّة إثنوثقافية حضرمية خاصة؟

أولًا: دراستهم لثقافة إثنية محددة من خلال اللغة - سواء كانت الفصحى أو العاميَّة أو الشعريَّة أو التعبيريَّة، أي اتباعهم المنهج الاثنولغوي.

ثانيًا: سعيهم إلى تحديد النصوص الأساسية وتحليلها قدر الإمكان، وتحديدًا تلك المرتبطة بموضوع البحث، في إطار ما يُعرَف بإثنوغرافيا النص.

ثالثًا: كانوا مستعدين للعمل مع أشخاص من خارج المنطقة التي يدرسونها.

يملؤنا الأمل بأن يُسهم تراكم الخبرة والأدوات التي استُخدِمَتْ في الإثنوغرافيا الميدانية عن بُعد في القرنين التاسع عشر والعشرين، إلى جانب الإمكانات الهائلة التي تُتِيحُها التقنيات الحديثة في فتح آفاق جديدة أمام الباحثين.

١ للمزيد عن العلاقة بين الهوية الحضرمية والشتات الحضرمي، انظر: (حضرموت ٢٠١٧)

REFERENCES

1. Berg L. W. van den. Le Hadramout et les colonies arabes dans l'Archipel Indien. Batavia: Imprimerie du gouvernement, 1886. (In French).
2. Bulanova L. A. Arabskie etnograficheskie kollektsii MAE [Arab Ethnographic Collections of the MAE]. Traditsionnaia kul'tura narodov Perednei i Srednei Azii. Sbornik MAE [Traditional Culture of the Peoples of Western and Central Asia. Collections of the Museum of Anthropology and Ethnography], 1970, vol. 26. Leningrad: Nauka, pp. 262–281. (In Russian).
3. Dolinina A. A. Nevol'nik dolga [The Servant of Duty]. St. Petersburg: Peterburgskoe vostokovedenie, 1994. (In Russian).
4. Hadhramaut and its Diaspora: Yemen Politics, Identity and Migration. Ed. by Noel Brehony.

11. Rodionov M. The Western Hadramawt: Ethnographic Field Research, 1983–1991. Orientwissenschaftliches Hefte. Martin-Luther-Universitaet. Halle-Wittenberg, Bk. 24, 2007, p. 307.

12. Rodionov M. Wādī Ḥaḍramawt as a Landscape of Death and Burial. Death and Burial in Arabia and Beyond. Multidisciplinary perspectives. Ed. L. Weeks. BAR International Series 2107, 2010, p. 341–345 (Society for Arabian Studies Monographs, no. 10. Eds. D. Kennet and St. J. Simpson).

13. Rodionov M., Schoenig H. The Hadramawt Documents, 1904–51: Family Life and Social Customs under the Last Sultans. Orient-Institut Beirut: Ergon, 2011. (Beirutes Texte und Studien 130).

14. Snouck Hurgronje C. Enkele zegswijzen en een raadsel der Hadhramieten. Festbundel aan Prof. M. J. de Goeje. Leiden: Brill, 1891, pp. 19–31. (In Dutch)

15. Snouck Hurgronje C. L'Interdit séculier en Hadramaout. Revue africaine, 1905, no. 256, pp. 92–99. (In French)

16. Snouck Hurgronje C. Zur Dichtkunst der Ba Atwah in Hadhramot. Orientalische Studien Th. Noldeke. Gieszen, 1906, vol. 1, pp. 97–107. (In German)

17. Snouck Hurgronje C. Sad es-Suweni, ein seltsamer Wali in Hadhramot. Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete. Strassburg, 1911, vol. 26, pp. 221–239. (In German)

18. Wrede A. von. Adolph von Wrede's Reise in Hadhramaut, Beled Beny Yssa und Beled el Hadschar. Hgb. H. von Maltzan. Edited by H. von Maltzan Braunschweig, 1870. (In German).

London: I. B. Tauris, 2017.

5. Krachkovskaia V. A. K stoletiiu izucheniia Hadramauta: 1843–1943 [100 Years of Research in Hadramawt: 1843–1943]. Izvestiia Vsesoiuznogo Geograficheskogo Obshchestva [Proceedings of the All-Soviet Geographical Society], vol. 75, no. 3. Moscow; Leningrad: Izdatel'stvoe Akademii nauk SSSR, 1943, pp. 31–45. (In Russian).

6. Krachkovskaia V. A. Zhilishche i zhilishchnyi vopros v Khadramaute [Dwelling and the Problem of Habitat in Hadramawt]. Academiku Krachkovskomu ot Moskovskoi gruppy Instituta vostokovedeniia [To Academician Krachkovski from the Moscow Section of the Institute for Oriental Studies]. Moscow: Institut vostokovedeniia, 1944, pp. 1–13. (In Russian).

7. Krachkovskaia V. A. Zhenskii kostium Khadramauta (Iuzhnaia Araviia) [Women's Costume of Hadramawt (South Arabia)]. Nauchnaia sessiia. Tezisy dokladov po sektsii vostokovedeniia [Academic Session. Abstracts of Papers Presented at the Section for Oriental Studies]. Leningrad: [Leningrad State University Publications], 1946, pp. 25–26. (In Russian)

8. Krachkovskaia V. A. Zhilishche v Hadramaute [Dwelling in Hadramawt]. Sovetskaia Etnografiia, 1947, no. 2, pp. 167–186. (In Russian)

9. Krachkovskaia V. A. Istoricheskoe znachenie iuzhnoarabskikh arkhitekturnykh pamiatnikov [The Historical Significancy of South-Arabian Architectural Monuments]. Sovetskoe vostokovedenie, 1947, no. 4, pp. 105–128. (In Russian)

10. Krachkovskaia V. A. Zhenskaia odezhda Khadramauta [Women's Clothing of Hadramawt]. Issledovaniia po istorii stran Vostoka [Studies on the History of Oriental Countries]. Leningrad: Nauka, 1964, pp. 129–157. (In Russian)

78
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

حضرموت
الرياضة والطرب
بين سقاف وعبدالرب

غالب صالح الحامد

ونحن أطفال في الصف الرابع الابتدائي بالنهضة، ونحن ندرس مادة التاريخ إذ تتناول الشحر والمكلا وسلطنة الحبوظي والكثيري وابن بريك والكسادي والقعيطي، وما قاله الشاعر باعطوة:

(على خازوق بارودنا بيّت وظلّا ونفّقنا البضاعة
وسلّمنا المكلّا)

كانت حضرموت دولة واحدة، وكانت هدية من يأتون من المكلا لنا ذلك الزمان درزن أو نصف درزن من الموز الأخضر، ومعها كزابة، وقصعة من حلوى السيّد ملفوفة بأوراق، ملفوفة بخيط سوتري.

تأتي المكلا بعد الشحر بالميناء، ولنا بالساحل أقارب، ولنا بها زملاء دراسة، وملاعب، وهوايات، وأصدقاء.

حاول السلطان الكثيري استعادة الشحر (سعاد) عام ١٢٦٥هـ (١٨٢٨م) غيرَ أنَّه لم يتمكن، وردَّ عليه الشاعر ربيع بن سليم، وهو شاعر علي ناجي بن بريك سلطان الشحر، بقصيدةٍ يقول فيها:

(سعاد ما هي رخيصه ياعبود)

عبود بن سالم الكثيري قائد لآلاف من عسكر الكثيري، أعدَّهم لاقتحام سعاد الشحر، وسانده حاكم مكة، وردَّ عليه شاعر آل كثير سعيد بن علي باجراد بقصيدة قائلًا فيها:

(سعاد فاطر ولقّحها القعود)

وتقاربت الأمور فيما بعد بين الكثيري

والقعيطي، حتَّى وصلت حد التفكير في الوحدة فيما بينهم؛ لاستعادة حضرموت.

الصورة المرفقة تجمع سلطاني حضرموت بمصر

وسبقهم من باب الفكاهة ممزوجة بالسياسة قول أحد الشعراء:

(ضيّعت راس المال عادك كيف تبغى الفائده ..
وايش لامّك تذكر الوحده لعلّك واحده)

(ذا سيل لأهله يرعضونه ماتخيّل
راعده .. كلّك سمك خلّ السياسه للعقول
الراشده)

قبل ثمان وخمسين عامًا، عام ١٩٦٢م وصل إلى المكلا طلّاب أول دفعة المدرسة الوسطى بسيئون في أول رحلة لهم إلى المكلا، يرافقهم الأستاذ السوداني حسن جاويش.

طلبة الدفعة الأولى لوسطى سيئون عام ٥٨ – ١٩٦٢م
أول مدرسة متوسطة فتحت في الوادي

وتم إسكانهم بإحدى المدارس المطلة على البحر، بالمساء كان صوت هدير أمواج البحر واصطدامها بالجدران مثارَ إزعاج للطلبة القادمين من الداخل، مما اضطرَّهم للذهاب لمنطقة الجابية، وحضور حفل فني ساهر، تسمى بالمكلاوية (مَخْدَرَهْ)، في ذلك الحفل شاهد الطالب سقاف بن أحمد السقاف ولأوَّل مرة في حياته الفنان الكبير محمد جمعة خان على خشبة المسرح مغرِّدًا، وهي أمنية تحقَّقتْ له؛ إذ كان يحلم بها سقاف. وفي زيارتهم للمدرسة الوسطى بغيل باوزير لأول مرَّة، وهي أول أكبر صرح علمي بحضرموت، شاهدوا مسرحيَّةً قام بتمثيلها – منْ كانوا طلَّابًا حينها – أحمد بن غودل، ويحيى بن علي الحاج.

وبعد عام، أي في عام ١٩٦٣م ذهب طلاب السكن الداخلي بثانوية المكلا، وهم طلاب الدفعة الأولى هذا العام، منهم (محمد عبدالرحمن السقاف، أمين عاشور الكثيري، عبدالله حسين الكثيري، عمر صابر، محمد جعفر الحبشي، يسلم صابر)، ومن بينهم سقاف بن أحمد، وزميله سعيد عمر فرحان (أبو عمر) وهو ابن

الديس الشرقية،

الاستاذ عمر صابر والدكتور محمد السقاف

طلبة ثانوية المكلا منتصف الستينات

ذهبوا لحضور حفل ساهر يحييه زميلهم اللاعب الفنان عبد الرب إدريس،

د. عبدالربّ إدريس

فريق كرة القدم لنادي الشاب الرياضي في المكلا

الواقفون من اليمين : أحمد سعيد العقربي – عباد بن دحمان – حسين ناجي بن بريك – عبدالله خميس بازومح (عصام) – صلاح مرسال – علي محفوظ وحدين – عبد الله بانوبي .

الجالسون من اليمين : عبدالعزيز فرج باخريبة – صالح عوض باعوم – عبدالله سالم الخياط – العبد محبوب سعد الله الجابري (صاروخ) – عبد الرب ادريس

توثيق رياضة حضرموت
HADHRAMOUT SPORT DOC

لاعب كرة قدم مشهور، بفريق شباب المكلا، وهو فنان ناشئ محبوب، والدكتور عبد الرب إدريس من أبناء المكلا، من مواليد عام ١٩٤٦م (يحمل الآن الجنسية السعودية)، لاعب بكرة القدم بفريق شباب المكلا بالستينيات، رغم صغر سنه وجسمه، ويتصف بجمال أخلاقه واستقامته ووداعته، وهو جميل وأسمر، لطيف الطباع، جمع بين الهوايتين: حبّه للفن، وعشقه لكرة القدم، غير أنَّ حادثة ما تسببت في إعاقته عن استكمال مشواره الرياضي، والتفرغ للفن، والذهاب إلى دولة مصر لدراسة الموسيقى. ويعد عبد الرب موسيقارًا عربيًا مشهورًا،

أتى الفنان عبد الرب إدريس إلى سيئون بالستينيات كما روي لي، فأحيا سهراتٍ خاصَّةً، ومنها ما كان في بيت سالم بن علي الحامد، غنَّى فيها أغنية (من شعاب الخضر يا ظبي الشمال)، ويقال إنه أحيا سهر أيضًا في حفلة زواج بالقطن.

كان الفنان عبد الرب إدريس يتيح للجمهور ترشيح الأغنية المطلوبة، بكتابة اسم الأغنية على قصاصة وَرَق تُقدَّم له على المسرح، عندها تسلَّم الفنان عبد الرب ورقة مكتوبًا عليها الأغاني المطلوبة، التفت للجمهور باحثًا لمعرفة المرسل إليه فتعرَّف عليهم، فكانت تحيَّتهم له بالأيدي من بعيد، وابتسم بعد أن عرف أنها مبعوثة من زميله سقاف بن أحمد، وزميله سعيد فرحان (أبو عمر)، طلبوا أغاني صنعانية وخليجية وعربية للفنان عبد الحليم وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وغيرهم؛ لعلمهم المسبق بإجادة الفنان عبد الرب لتلك الأغاني. كان ذلك عام ١٩٦٣م، وهو عام افتتاح ثانوية المكلا، وفي هذا العام توفي محمد جمعة خان، فحزنت عليه المكلا والبنقلة والسوق كما قال المحضار.

ما جمع بين ابن ساحل المكلا الدكتور الفنان الكبير عبد الرب إدريس وابن الداخل الأستاذ الكابتن الرمز الوطني الرياضي سقاف بن أحمد السقاف ليست الرياضة وحدها وعضوية فريق شباب المكلا، بل الفن أيضًا فسقاف السقاف هاوٍ ذوَّاق للفن والموسيقى العربية بشكل عام،

ويعزف بالمسرح على آلة الطرمبه بعد تشجيع الفنان علي بنقاله له بعزفها، وهو بالوسطى طالبًا، وله بها مشاركات، وينتسب من حيث الخؤولة لآل الحامد، المعروفين بميولهم الفنيّة وعزفهم على الآلات الموسيقية.

بل إن خاله سالم حسين الحامد (والد الأستاذ الإعلامي كمال سالم وعلي وحسين وأبي بكر) كان عازفًا على العود ومُغَنِّيًا.

كان سقاف طالبًا بالمكلا يأتي إلى أخواله يوم الجمعة؛ لاستضافته إلى بيوتهم بديس المكلا ماهناك مباريات، كالفنان شيخ بن أحمد الحامد وأخيه عطاس، بل حتى الآن لا يزال بيت شيخ الحامد وأخيه مفتوحًا له ويكنُّ لهم الأخ سقاف كل تقدير.

يشكّل داخل حضرموت وساحلها وحدةً مجتمعية متكاملة لا تنفصم عراها ثقافيًا وتاريخيًا واجتماعيًا وتربويًا ورياضيًا وفنيًا... إلخ؛ فوسطى غيل باوزير أول وأكبر صرح تعليمي بحضرموت (١٩٤٤م)، يقال إنَّ فكرة إنشائها كانت بسيئون، كانت هي السباقة لولا أصوات محليَّة دينيَّة حالت دون ذلك، أدّت إلى تأخير افتتاحها بالداخل إلى عام ١٩٥٨م، فصادف تخرج أول دفعة من وسطى سيئون مع افتتاح ثانوية المكلا ١٩٦٣م ليلتحق عدد منهم بثانوية المكلا. علمًا أن أعدادًا من طلاب الداخل سبق وإن التحقوا بوسطى الغيل (التي كان تأسيسها عام ١٩٤٤م) ودار المعلمين بالغيل، من بينهم النوابغ: عبد الرحيم محمد السقاف وأخوه عقيل، وعبدالله محمد بارجاء، وأحمد محمد بن صافي، ومحمود سعيد مدحي، ومصطفى عبود، وسالم وعلوي عبد الرحمن، وفاروق بن علي الكثيري، ومحمد حسين الكثيري، وخالد وأحمد فدعق، وغيرهم. وكان المستوى التعليمي هو المقياس للقبول لا غير (محمد علي باحميد، التعليم الحكومي بالدولة الكثيرية ١٩٦٧م/ ١٩٤٩م).

كانت رياضة كرة القدم في أوج ازدهارها في تلك الفترة بحضرموت ساحلًا وداخلًا، شكّل قدوم الطلاب للدراسة بثانوية المكلا من كل نواحي حضرموت تعزيزًا ودعمًا للفرق الرياضية بالمكلا. وقد اشتهرت من بين هؤلاء أسماء، منهم: صلاح مرسال، سقاف بن أحمد السقاف (رمزنا الوطني الرياضي)، الدكتور محمد عبد الرحمن السقاف (أسمول)، والأعجم، وعقيل مسلم، وجعفر بن يحيى وغيرهم.

فريق الاحرار بالمكلا١٩٦٦م

جالسون الاول من اليمين صلاح احمد مرسال
واقفون العقربي حسين بن بريك سقاف احمد

التحق سقاف بفريق شباب المكلا (١٩٦٣) وكان الشباب يعج باللاعبين البارزين من بينهم الفنان الدكتور عبدالرب إدريس والعقربي وصلاح أحمد مرسال (وهنا نشأت العلاقات الأخوية بين هؤلاء اللاعبين من الداخل والساحل) قبل أن يلتحق اللاعب سقاف وآخرون بفريق أحرار المكلا مع مجموعة من بينهم العقربي.

رمزنا الوطني الرياضي سقاف بن أحمد السقاف قامة تربوية تشهد له المنشآت التعليمية والصفوف والقاعات الدراسية، وهامة رياضية، تركت أقدامه آثارها على جميع ملاعب المحافظة،

وصالات ألعاب القوى، شخصية بحجم ذاك الرمز ألقت بظلها على حضرموت منذ بداية الستينيات، كان اسمه محفورًا منقوشًا على كرة قدم حضرموت. عندما أتى للمكلا زائرًا بداية السبعينيات ليستقدم فريق شبيبة عدن إلى سيئون، ضيفًا على نادي الأحقاف فتحت له جميع أبواب دوائر المحافظة ومؤسساتها، فمن لا يعرف اللاعب سقاف بن أحمد، فهو شخصية اجتماعية عامة، منفتحة على الجميع، يجلّها الجميع.

لا يمكن أن ننسى خروج الجماهير الرياضية بسيئون هاتفة عام ١٩٦٢م (قد قلت لك، يا الكوكب، لاتباري الأحقاف، شف معهم أبو أنور وعلوي وسقّاف، والحارس حسين حامد كما الديك النقّاف)

فريق الاحقاف بالمكلا ١٩٦٣م

الصيعري سقاف بن كده بوانور جنيد والجنيد بن خبران بن شملان المشهور علوي والجابري

وظلت تلك أهزوجة نرددها منذ أن كنا أطفالًا.

لقد كانت أغنية (طائر بلا ريش بلا ريش عامل من الشوق ريشي) من أحب أغاني عبد الرب إلى قلبي، وكانت من جميل الصدف مفاجآتها، حينما طار الدكتور الموسيقار عبد الرب إدريس ليواصل تأهيله الأكاديمي بمصر مبعوثًا من دولة الكويت، كان الأستاذ الكابتن المدرب سقاف بن أحمد السقاف قد طار هو الآخر إلى مصر في طريقه مبتعثًا إلى دولة الجزائر للتأهيل في مجال التدريب الرياضي من قبل دولة اليمن الديمقراطية عام ١٩٧٢م وعودته إلى مصر قادمًا من الجزائر بعد التخرج عام ١٩٧٤م، وكان قد مكث بمصر فترة من الزمن مُجبَرًا بين ظهراني أصدقاء وزملاء وأقارب له، كانوا يعيشون بمصر للدراسة، في عزبة تسمى عزبة آل قاضي، وعزبة جديد السقاف، أحدهم هو من يحمل اسم سقّاف أيضًا ولكنه ابن الحبيب علوي بن عبدالله السقاف القاضي، أصبح الآن دكتورًا مشهورًا، اسمه يملأ الآفاق بالإمارات.

كان متقد الذكاء كما وصفوه، المذكور الدكتور سقاف علوي ليس بعيدًا عن تلك الأجواء لقد درس بوسطى سيئون، وكان ترتيبه الثاني على الدفعة، وكان الثاني أيضًا على ثانويات بغداد (زملاؤه الدكتور هاشم محمد شيخ المساوى والدكتور عبدالله حسن الكثيري) فالتحق بطب القاهرة، وكان لاعبًا بالفريق الأول لوسطى سيئون حينما نجحوا ولأول مرَّة من انتزاع النصر من الأحقاف في مباراة مشهورة كانت حديث المجالس والأندية حينها. والحادثة المشهورة التي ظلت بذاكرة الكثيرين التي قام فيها حارس مرمى الأحقاف حسين حامد المشهور أشهر حارس مرمى بالوادي بمطاردة أحد لاعبي فريق المدرسة الوسطى بالملعب لتسجيله هدفًا استفزازيًا، الطالب هو (الدكتور محمد الحبشي سكرنو أطال الله عمره

من أبناء الحوطة).

لقد كانوا بمصر قعودًا يجترون تلك الذكريات الجميلة في مسامرهم، ومن بينها أن الدكتور سقاف علوي تمكن من التهديف بتريم من كرة ركنية في مباراة جمعت وسطى سيئون وأهلي تريم متسبّبًا ذلك الهدف في انفضاض المباراة. وذكر تردُّدَه على بيت الأديب علي باكثير بالقاهرة.

وصولًا في استعراض الذكريات إلى الدكتور عبدالرب إدريس، وما حققه من نجاحات فنيّة، كفنَّان وملحِّنٍ وموسيقارٍ ومدرِّسٍ للموسيقى على مستوى الوطن العربي، فقاطعهم أحدُهم بنبأ وجود الفنان عبد الرب بالقاهرة، وهنا كان الأستاذ الكابتن سقاف بن أحمد السقاف حريصًا على لقائه كزميل قديم، وحَرَصَ الآخرون على سماع غناء الدكتور عبد الرب. فذهبوا إليه فوجدوه مرحِّبًا بهم في موقع سكنه أجمل ترحيب. كذا هم الحضارم عند لقائهم بالمهجر تتقارب القلوب، وتمَّ تذكُّر السهرة التي أقامتْها مدرسة وسطى سيئون خلال رحلتهم إلى المكلا في ديسمبر ١٩٦٤م التي أحياها الفنان عبد الرب إدريس والفنان عيدروس بن سعيّد الكاف.

وغنّى حينها الفنان عبدالرب إدريس أغنية: تعبنا والتعب راحة معاكم ياحبايب.

فما بين سقاف وعبد الرب حضرموت رياضة وطرب، فهل أن الأوان لتكريم الدكتور عبدالرب إدريس من الساحل، وتكريم رمزنا الوطني الرياضي سقاف بن أحمد من الداخل، التكريم اللائق بالفن والرياضة الحضرميه.

لقد سموا منشآتٍ تحمل لهم أسماء نعتز بها، وليس كثيرًا علينا.

رمزنا الوطني الرياضي

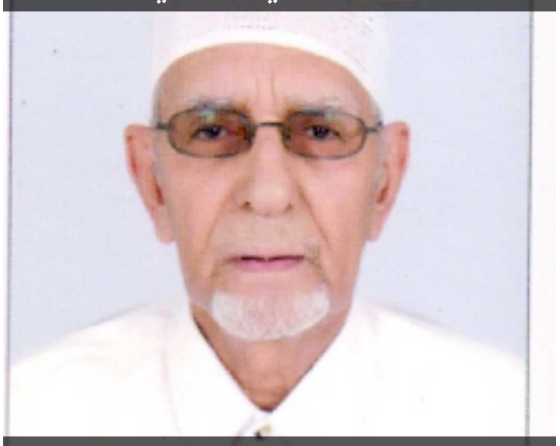

الاستاذ الكابتن سقاف احمد السقاف

فريق ثانوية المكلا١٩٦٥م عند افتتاح ملعب
طى الغيل المعشب(سقاف الثاني من اليسار)

الضليعة

حاضرة ريدة الدِّين

طريق التجارة وبوابة حضرموت الغربية ... من عكرمة إلى بامعرمة

استطلاع وتصوير
يوسف عمر باسنبل

الموقع والتسمية

عندما قرَّرْنا زيارة حاضرة مديرية الضليعة أو ما يسمى بـ(ريدة الدّين) منطقة الضليعة لعمل استطلاع لمجلة حضرموت الثقافية عن المنطقة، كان علينا التحرُّك باكرًا لأخذ جولة في سوق السبت بعد صعود عقبة بضة، ثمَّ المرور ببعض المناطق الواقعة في الهضبة والتابعة إداريا لمديرية دوعن، حتى ودَّعنا حدود دوعن بمنطقة السوارقة، ليظهر لنا جولٌ فسيحٌ يسمى (العبلاء)، تبدأ معه مديرية الضليعة (ريدة الدّين)، التي تبعد عن مدينة المكلا عاصمة محافظة حضرموت حوالي ٢٧٠ كيلومترًا، يحدُّها من الناحية الشمالية مديرية عمد، ومن الجنوب مديريتا يبعث وحجر، ومن الشرق مديرية دوعن، ومن الغرب مديرية الطلح بمحافظة شبوة ومديرية رخية، حتَّى وصلنا لمنطقة الضليعة مقصدنا؛ كونها العاصمة الإدارية لمديرية الضليعة، وأكثرها كثافة سكانيَّة، ويوجد بها سوق السبت حاضن أبناء المديرية والمديريات الأخرى داخل المحافظة وخارجها، وزيارة واحدة للمنطقة لا تكفي لتشفي غليلك.

(الرَّيْدَة) بسكون الياء وهاء مهملة وجمعُها ريد. وجاء في هذا السياق أنَّ ريدة: من الرَّيْد، أي ورود المكان والاستقرار فيه، وهي عبارة عن مسطَّحات هضبيَّة فسيحة، ذات جيلان ومنخفضات زراعية تُقَام حولها القرى، وتندر بها الشعاب إلا من أطرافها. والرَّيْدَة لا تدُلُّ على مصطلح السَّوط كما يتوهَّم البعض؛ فالسَّوط أقلُّ مساحةً من الرَّيدة، وتقلُّ به منخفضات التُّربة الزراعيَّة مقارنةً بالرَّيدة، وتظهر في السَّوط الأشكال الحجريَّة المتراصفة، والمنحدرة؛ لما يتخلَّله من شعاب، وللدلالة على ذلك فإنَّ مفهوم - رَيْدَة - يوحي بالمحلَّة والسُّكنَى والتوطُّن أكثر مما يدل عليه مصطلح السَّوط؛ ومنه جاءت التسميات مختلفةً، ولو كانتْ على هضبة واحدة كالرَّيدة، التي تجاورها أربعة سيطان. والدّيْن هم تحالفٌ قَبَليٌّ يَسكُنُونَ الرَّيْدَة، التي سُمِّيَتْ باسم نازليها وهي ريدة الدّيْن، في حين قال البعض عكس ذلك؛ إذ قال إنَّ تسميتهم جاءت نسبة للأرض التي سكنوها، وهي رَيْدَة الدّين.

وسُمِّيت الضليعة بهذا الاسم نسبةً لموقعها على تلٍّ مرتفع، مقوَّس نسبيًّا، يُشبِهُ الضِّلعَ، يقعُ في الوسط بينَ أضلاعٍ عدَّةٍ، فسُمِّيت لهذا السبب بالضلاعة، ثُمَّ ميلت الألفُ إلى الياء فسيق

اللفظ إلى الضليعة. ويروى في تسميتها وتحديد موقعها أنه تمَّ بمشورة الشيخ عمر بامخرمة، الذي يُنسَب إليه بناء أول مسجد فيها يقع بجوار المعصورة.

مسجد بامخرمة

ويقال إنَّ سعيد بن مسدوس (الثاني)، الذي بنى حِصنَه أمام قبلة مسجد الشيخ بامخرمة على الضلع الآخر الأكثر تقوُّسًا كضلع، ولتشابه الأسماء ومواقع بناء الحصنين يوهن البعض صحَّة ما هو سائد أنَّ نسبة اسم الضليعة جاء نسبةً لموقع هذا الحصن الذي عُرِف والحَيِّ المجاور له بدار سعيد (المنسوب للشيخ سعيد بن مسدوس الثاني ١١١٦هـ)، وهو يتنافى وما سبق تفصيلُه سابقًا بأنَّ موقع بناء الحصن القديم (المعصورة) في عهد سعيد بن مسدوس الأول وإنْ لم يكن موضعه أكثر تقوُّسًا كالضلع مقارنةً وموقع الحصن الذي بناه سعيد الثاني.

المعصورة

وجاءت التسمية ربما نسبةً إلى شكل العروق الأرضية، التي تظهرُ على السطح، وتُعْرَفُ بالأضلاع. وتُقَسَّم مدينة الضليعة على أضلاعٍ عدَّةٍ.

سكان الضليعة:

يسكن منطقة الضليعة عددٌ من القبائل، منهم آل بامسدوس، وباعبد، وباحنحن، وبن سلمان، وباسويدان، وبارباح، وباجاهر، وغيرهم من القبائل الأخرى، منذ القدم قبل مئات السنين، وتعد قبيلة البامسدوس أبو الدّين من أوائل سكَّان منطقة الضليعة، وقد كانت الريدة قبل القرن العاشر الهجري تسمى ريدة البامسدوس، حسب ما جاء في مخطوطة النزهة للجرموزي، ويظهر على عتبات باب حصن الضليعة المسمَّى المعصورة اسم عمر بن سعيد بن مسدوس بامسدوس، ووالده سعيد بن مسدوس بامسدوس هو مؤسس الضليعة كقاعدة لمشيخة الريدة؛ لأنه كان شيخًا زاهدًا عادلًا في أحكامه، وإليه يعود تأسيس حلف مشيخة الدّين، والذي بموجبه حكمت الرَّيدة بالأعراف القبلية لأكثر من أربعة قرون من الزمان، وقد قام ببناء المعصورة عام ٩٧٠هـ الموافق ١٥٦٣م، ويقيم في الضليعة الحَكَمُ من آل بامسدوس، وهم الذين يتداولون الزعامة في الرَّيدة وراثيًا. ويعود تأسيس الضليعة إلى نهاية القرن التاسع مطلع القرن العاشر الهجري بعد نهاية دور عكرمة بسنوات؛ إذ بنيت الضليعة بجوار محلَّة تعرف بالجثوة (الخرابة)، التي يسكنُها آل باعبد، وتقع إلى الشرق من الضليعة القديمة.

ويعد البامسدوس من أهم قبائل الرَّيدة عامَّةً،

والضليعة على وجه الخصوص، ويرجع نسبهم إلى حمير؛ إذ السائد عنهم في هذا الشأن هو أنَّ دم المسادسة (ذيبي) أي من ذيب سعد العشيرة من حمير، ويقال إنهم أتَوْا من الشق الأعلى جنوب اليمن ووسطه، وهي المناطق التي تسكنها قبائل ذيب سعد من حمير. ويتفرع آل بامسدوس إلى مجموعة أسر؛ إذ نزلتْ جماعة منهم الرَّيدة في الجفوة فوق قارة المكراب، وسُمُّوا مؤخَّرًا مسادسة المكراب، أو آل بامكراب حاليًّا، ومنهم خرج رجل إلى موقع بالضليعة، وينسب إلى هؤلاء بناء الحصن الأول بالضليعة – تقريبًا – والذي يُعرَف بالمعصورة، وهم مسادسة الضليعة، وجَدُّهم سعيد بن مسدوس، ثم مسادسة الثجرة وهم على قرابة بمسادسة الضليعة، لا تتجاوز عمومة النسب ونحوها، ومسادسة الضليعة هم الأكثريَّة والمعنيُّون بزعامة مشيخة الدّين، التي تتناوبها ديارُهُم وراثةً، ويحتفظون بسلسلة نسبهم للشيخ سعيد بن مسدوس، الذي تولَّى زعامة الدّين عمومًا، وأخذ في شراء ممتلكات من أبناء عمومته آل بامسدوس، الذين انتقلوا للشجرة، مُخَلِّفين منازلهم وأموالهم باينةً وظاهرةً كشواهد تاريخيَّة واضحة، تدلُّ على ما كان لهم من أملاك بالضليعة، وبذلك أصبحت الضليعة للأخيرين من آل بامسدوس في جوار مع آل باعبد.

ومن سكان منطقة الضليعة أيضًا، ويشكلون أكثريَّةً بعدَ آل بامسدوس آلُ باعبد، ويسكنون الضليعة مع المسادسة وآخرين، ولهُمْ شروحٌ زراعيَّة، ويعتقد أنَّهم من عكابرة المقد، الذين رحلوا عنها إلى حجر، ومنها إلى عكرمة بالرَّيدة، حيث اشتروا لهم أملاكًا حولها، ثُمَّ سكنوا الجنوة بالضليعة في مطلع القرن العاشر الهجري، وينضوي تحت آل باعبد خمس ديار، وذُكِرَ أنَّهم كانوا على صلة بسكَّان عكرمة، أو بمن استخلفوهم على بعض ممتلكاتهم حولها، بحسب ما دلَّت عليه ممتلكاتهم فيها وما تضمَّنتْهُ مخارج الأموال التي بحوزتهم، ويتبيَّن منها ما كان لهم بالشراء من بقايا سكان عكرمة، مثل بارحيم، باخلس، بامشموس بن واصل، بن مدوخ، وغيرهم ممَّن لم يعد لهم وجود بالريدة، وبذلك يكون آل باعبد من أقدم المكوِّنات القبلية برَيْدَةِ الدّين، مقارنةً بالفخائذ الوافدة إليها مؤخَّرًا، بل ولهم فيها بقايا مبانٍ في عكرمة تُعرَف بـ (سرين باعصوبي).

عكرمة

ويسكن في الضليعة المشائخ آل باسودان، وهم مشايخ علم وأئمة مساجد والقيام بإجراء عقود النكاح والمعاملات التجارية، واشتهر منهم محمد سالم باسودان، وعبدالله بن محمد باسودان، واحتفظوا بهذه المرتبة وراثيًا، ويوجد منهم في مناطق أخرى من الريدة ويحظَوْنَ بالتقدير والاحترام.

ويبلغ عدد سكان الضليعة حوالي أكثر من ٦٠٠٠ نسمة، يشتغلون بعددٍ من المهن المختلفة، منها مهنة تربية النحل؛ إذ تمثل مهنة

تربية النحل رافدًا اقتصاديًا مهمًّا للنحَّالين من خلال المتاجرة بمنتوج العسل في السوق المحليَّة، ويعد سوق العسل الأهمَّ رواجًا في سوق السبت الأسبوعي بالضليعة، كما يتمُّ بيعه في الأسواق المحلية الأخرى، ويُصَدَّر بعضُه إلى خارج الوطن، كما يمارس البعض التجارة التي ازدهرت مؤخَّرًا داخل سوق المنطقة اليومي وفي سوق السبت الأسبوعي أيضًا، إضافة إلى أن البعض يمارس مهنة تربية الأغنام وبيعها في ظل الحركة الشرائية الكبيرة للأغنام المحليَّة بعد أن أصحبت تباع بأسعار عالية جدًا، وهناك من اتجه منهم للتوظيف في مرافق الدولة المختلفة، وكان لقطاع التربية النصيب الأكبر من ذلك.

وأبناء الضلعية مثل غيرهم في مناطق حضرموت اتخذوا الهجرة سبيلًا لتحسين أوضاعهم المعيشية، فهاجر عددٌ منهم إلى المملكة العربية السعودية وإلى دول الخليج الأخرى؛ طلبًا للرزق، ولتحسين ظروفهم المعيشية، ولا تزال الهجرة مستمرة إلى يومنا هذا سواءً الهجرة الخارجية، أو الداخلية إلى مدنية المكلا أو المديريات القريبة للاستقرار فيها.

الضليعة تاريخيًا:

قديما كانت الريدة ملتقى طرق القوافل، وهي منفذ حضرموت وطرفها من الناحية الغربية، التي تمكنها من التواصل بمناطق شبوة، وقبل الوصول إلى منطقة الضليعة بكيلومترات قليلة على يسار الداخل إلى المنطقة توجد كومة من الأحجار والتراب اشتهرت يومًا من الأيام باسم مدينة عكرمة، وكانت مدينة تجارية وسوقًا مشهورًا؛ لأن المنطقة منطقة عبور، وعكرمة بموقعها المتوسط تُشرِفُ على الحقول الزراعية، التي تعد من أعمق تجمُّعات التربة الزراعية وأوسعها بالهضبة، ويعتقد أنها فقدت مكانتها في منتصف القرن العاشر الهجري لتنتهي بحملة بوطويرق وحصاره لها وتخريبها عام ٩٤٩هـ لتنتهي بذلك المرحلة الزمنية الثانية من مراحل رصد حركة الاستقرار السكاني بالريدة، لتأتي بعد ذلك منطقة الضليعة قاعدةً جديدةً للريدة، وتقع إلى الغرب من عكرمة، وتُشرِف على الأمكنة والحقول نفسِها، وأخذت الضليعة مكانتها التجارية من سوقها الذي لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا تحت مسمَّى سوق السبت، ويقام في أطراف الضليعة، ويعد امتدادًا لنشاط عكرمة التجاري؛ إذ كانت مركز تحكُّم سياسي واقتصادي كمحطَّةٍ وسوقٍ تجاريٍّ وملتقى القوافل، ومن مآثر ذلك النشاط التجاري مما هو سائد إلى وقتنا الحاضر الكيلُ (بالمُصرى العِكرمي) نسبةً لها، في أثناء التبادل التجاري بالحبوب فيها، وإن كانت وحدات الوزن والكيل الحديثة قد غلبتْ عليه سمة التعامل به عند الكثير، والمُصرى أداةُ كَيلٍ خشبيَّةٌ، مثل الصاع.

يروى عن الشيخ سعيد بن مسدوس حاكم الضليعة وأعقابه التزامُهم بالدِّين والعدل في أحكامهم التي نالت شُهرَةً بين قبائل المناطق المجاورة لهم، مِمَّا دفعها للاحتكام إليهم في قضاياهم، ورُوِيَتِ الأمثالُ والحِكَمُ التي تُعَبِّرُ عن نزاهة الاحتكام إليهم، ومِمَّا قيل في هذا الشأن (الديني ثالث الدول)، و(الريدة كنان مِنْ ما له كنان)، وتنصيب بامسدوس شيخًا

للديـن كان بتأثـير العلامـة بامخرمـة، وبتفويـضٍ مـن ابـن طالـب الواحـدي حاكـم بئـر عـلي، الـذي كتـب لـه المسرحـات وفـق الشريعـة الإسـلامية، وأضفـى عليـه وعـلى أسـلافه مـن مقادمـة الديـن صفـة النائـب عنـه، ويتضـح ذلـك مـن بعـض المراسـلات، ومنهـا (بروشـورة مخطـوط)، صـدرت مـن حوطـة عينـات، توحـي إلى وجـود تلـك العلاقـة مـع حاكـم بئـر عـلي، وهـو ابـن طالـب الواحـدي، المقرَّب مـن آل الشـيخ أبي بكـر بـن سـالم، مـولى عينـات، كمناصب لهـم، فالرسـالة الموجهـة للشـيخ نـاصر بـن عـلي بامسـدوس في القـرن ١١هـ تتعلَّـق بأمـوال الأوقـاف (الصدقـات) وهـي «قطعـة سـتين مطيرة بالريـدة، وأنكـم وكلاء عليهـا يـا محـب، وتحفـظ حصادهـا، وعنـد وصـول خـادم ميفعـة تطلقونـه عليـه؛ فهـي أوقـاف نـذر للوظائـف والمكاليـف بعينـات». ومـن هـذه الإشـارة يتبـين أن آل بامسـدوس كانـوا في ارتباطهـم أقـرب بميفعـة حجـر، مـن الارتبـاط بعينـات؛ فقـد كانـوا تابعـين لعامـل ميفعـة بالسـاحل، ومـا والاهـا مـن مناطـق تلـك الجهـات. وهنـاك مخطـوط آخـر يتضمـن «الصلـح بـين الديـن، وذييـب وهـو سـنة، أولـه رمضـان وآخـره شـعبان أمـان للحوطـة... سـنة ١٢٦٤هـ»، والمَعْنِيُّ بالحوطـة هنـا حوطـة الفقيـه عـلي وذييـب، وهـم سُـكَّان بئـر عـلي ومـا والاهـا.

كـما أن مدلـول المثـل السـائد عنـد الديـن هـو .... حكـم ابـن طالـب، ويقـال هـذا المثـل عنـد مـا يتسـيد شـخص في أمـر معـين عـلى جماعـة أو قافلـة أو رحلـة مـع امتعاضهـم لتأمـره عليهـم، فيُعَبِّرون عـن تهكُّمهـم وامتعاضهـم بهـذا المثـل. ويـدل هـذا المثـل عـلى مـدى ارتبـاط ريـدة الديـن بـآل ابـن طالـب، وأنهـم هـم مـن كتـب لبامسـدوس السـوارح وفـق الشريعـة الإسـلامية ، فجـاءت أحكامهـم دينيـة.

وبعـد قيـام السـلطان بـدر بوطويـرق بمضايقـة الشـيخ عمـر بامخرمـة، ونفيـه مـن دوعـن إلى سـيئون، ثـم هينـن، التـي أسـس بهـا مسـجده، ثـم آل بـه المقـام فـترة مـن الزمـن في الضليعـة، حيـث اسـتجاره فيهـا بامسـدوس، وفيهـا بنـى بامخرمـة مسـجده، فأطلـق اسـم الحوطـة، حوطـة الشـيخ عمـر عـلى الحصـن والمسـجد ومجموعـة البيـوت (حافـة)، التـي بجـوار مسـجده، المعروفـة مؤخَّـرًا بـدار سـعيد. وقـد أورد الشـيخ بامخرمـة البيتـين الشـعريين الآتيـين في ذلـك فقـال:

سرحنـا قـل لحـلان مـن حاطـة زبينـة ** وهـي حاطـة عمـر وأهـل الرمـاح السـنينة

ويـا ويـل كل مـن أسـاء فيهـا بدينـه ** في الدنيـا وفي الآخـرة تكثـر ونينه

وهـذه هـي أول إشـارة لامتـداد الفكـر الدينـي الصـوفي إلى الريـدة، فقـد كان العلامـة بامخرمـة يبحـث عـن مؤيديـن لـه وأتبـاع، وسـعى لتأسـيس مـكان معـارض لسياسـة الدولـة الكثيريـة، يثـير بـه صـف المناهضـة للسـلطان بوطويـرق.

وظهـرت صـورة رسـمة لمصنعـة بامسـدوس، قـام بالرفـع الهنـدسي لهـا في الثمانينيـات المعـماري الـروسي في البعثـة اليمنيـة الروسـية المشـتركة للآثـار والأبحـاث الأثريـة والتاريخيـة والأنثروبيولوجيـة (يـوري فيودروفيتـش كوجـين).

مشيخة آل بامسدوس:

سـاد في مشـيخة الدّيـن حكـم عـرفيٌّ وقبـليٌّ،

امتدَّ منذ تأسيس هذه المشيخة في مطلع العقد الثامن من القرن العاشر الهجري، ٩٧٠ هـ الموافق ١٥٦٣م إلى نهاية الحكم القبلي بالريدة في عام ١٣٤٢هـ الموافق ١٩٢٣م. غير أن التنصيب استمر - شكليًّا لمنصب المشيخة ومقادمتها، كعرف قبلي اجتماعي، درج عليه المجتمع إلى عام ١٩٦٧م، وقد تولى هذا المنصب خلال هذه المدة حوالي ١٤ مقدّمًا، برتبة (الأبو) أو شيخ مشائخ، منهم:

سعيد بن مسدوس بامسدوس (الأول): وقد تولى هذا المنصب في النصف الأول من القرن العاشر هجري، وإليه ينسب تأسيس حلف الدين، بحكم علاقته بالشيخ عمر بامخرمة، وفي عهده سميت الضليعة بهذا الاسم؛ لأنه بنى حصنًا على ذلك الضلع بمشورة بامخرمة رغم وجود مبنى سابق بها، وفي عهده اتخذ هو وأسلافه ضمن حكام عكرمة وما حولها موقفًا معارضًا لحملة بوطويرق على الريدة عام ٩٤٩هـ الموافق ١٥٤٢م، وفي مخطوط يعود لعهده يعكس العلاقة مع آل كثير بتحالفه سنة ٩٧٧هـ مع بدر بن علي بن عمر الكثيري ضد آل العمودي، ويعتقد أن تفسير هذا التحالف في آخر عهده وتولي ابنه عمر بن سعيد بن مسدوس المشيخة، الذي قبل هذا التاريخ ٩٧٠هـ الموافق ١٥٦٣م أصبح شيخًا، وبنى بهذا التاريخ معصورة الضليعة على الحصن كما هو منقوش على باب المعصورة.

عمر بن سعيد بن مسدوس (الأول): وهو الذي بنى معصورة الضليعة ٩٧٠هـ الموافق ١٥٦٣م وهو منقوش على بابها.

مسدوس بن سعيد با مسدوس: يذكر أنه تزعم الدين في نزاعهم مع آل الجعيدي، بسبب قيام الجعدة في وادي عمد بالاعتداء على بابحري المشمول بحماية بامسدوس.

علي بن حمد بامسدوس: وقد تولى مشيخة الدين منتصف القرن الحادي عشر الهجري. وكان موقفه مقاربًا من موقف العمودي، المتعاون مع الحملة الزيدية على حضرموت في عام ١٠٧٠هـ الموافق ١٦٥٩م، وقد وُصِف بالسلطان بامسدوس، وأنه لاقى الجيش الإمامي بمائتين من رجاله، على كريف ملاح، وقد تزوَّد الجيش وأراح بهذه الريدة. وكانت علاقته بحوطة عينات قوية كما يتضح من سجل مراسلات آل الشيخ أبي بكر الكبير إليه، بما يعني استمرار لنهج سلفه مع سادة عينات.

ناصر بن علي بن حمد با مسدوس: وقد تولى حكم المشيخة في الفترة ١٠٧٥هـ - ١١١٥هـ الموافق ١٦٦٤م - ١٧٠٣م. وقد تلقى رسائل عدة من حوطة عينات في التعازي والأوقاف ونحوها.

سعيد بن مسدوس الثاني: وقد تولى المشيخة بحلول عام ١١١٦هـ الموافق ١٧٠٤م. وفي عهده التقى في الضليعة بالشيخ عمر بن صالح بن هرهرة اليافعي، وآل مطهر العمودي وتحالفهم مع الدّين ضد آل جعفر الكثيري، غير أنه وبعد دخول يافع في الصراعات الكثيرية وتنافرهم مع الأمير محمد المردوف الكثيري، تغير موقف مشيخة الدّين إلى التحالف مع آل عمر بن جعفر الكثيري، كما يتضح من مخطوط ونصه : «هذا حلف الدين وعليهم الشيخ سعيد بن مسدوس مع آل عمر بن جعفر في [جبوح] وادي عمد ومن حيث يصل

نفع الدولة». ويذكر ابن عبيد اللاه السقاف في كتابه (إدام القوت) تعليقًا على ذلك، وكل حين لهم موقف. وينسب له حصنه الواقع أمام قبلة مسجد بامخرمة المعروف وما حوله من بنايات بدار سعيد.

عبود بن سعيد بن مسدوس: واسمه (عبدالله)، وردت إليه رسالة في آخر عهده من الأمير الكسادي، حاكم المكلا - لعلَّه - صلاح سالمين الكسادي، جاء فيها: «إلى الشيخ عبود ابن المرحوم الشيخ سعيد بن مسدوس». وتعود فترة عهده إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري تقريبًا.

سالم بن عمر با مسدوس: وقد تزعم الدين في ما عرف تاريخيًا بـ(وعيدة قده) ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م مع المشاجرة.

سعيد بن سالم باغشمي با مسدوس: في عهده وقعت حادثة - هذه الحيلة - مع جيش القعيطي في الريدة عام ١٣٤٢هـ الموافق ١٩٢٣م؛ وذلك بسبب إجارته لباعقيل مناهضًا للدولة القعيطية، وتعد هذه الحادثة نهاية الحكم القبلي بالريدة. وتوفي ١٩٢٥م.

عبدالله سالم بالحمر بامسدوس: وهو الذي تزعم الدّين في نزاع المدلاة مع المشاجرة عام ١٩٦٤م، وقام بالتوقيع عن الدّين على وثيقة الحكم الصادر فيها من قبل الدولة القعيطية. كما أن له موقفًا في قضية نزاع العيينة بحجر مع آل بارشيد.

وأصبح بمحل وكيلٍ للريدة من قبل الدولة القعيطية، فتمرر رسائل المسافرين ومعاملاتهم بتزكية منه إلى لواء دوعن، وكان قُبَيل الثورة وبعدها في المساندة مع الكندي أوَّلَ محافظ لحضرموت، وبعد الانقلاب اليساري ١٩٦٩م، تمَّ تسليم كل ممتلكات مركز النجيدين بالرَّيْدة، التابع لجيش البادية الحضرمي للشيخ بالحمر، ثم جُمِّدَتْ مهمة شيوخ القبائل وتشكيل لجنة وطنية محلية؛ للقيام بالمهام المتعلقة بكل شؤون المجتمع في الريدة.

التعليم في الضليعة:

ذكر الأستاذ محمد سالم باكرشوم في رسالته عن ريدة الدين أن للتعليم أثرًا وأهمية بالغة في تثقيف المجتمع والارتقاء به؛ لبناء الحضارة الإنسانية، فهو مطلب شرعي بتكليف رباني وبمدى وجوبه - قدر المستطاع - على كل مسلم ومسلمة، ولكن فيما يتعلق بوضعية التعليم في هضاب حضرموت خصوصًا، لا توجد جهود تذكر، قبل القرن العشرين، بقدر ما ساد من الجهل والأُمِّيَّة، في تلك المناطق؛ لانعزالها عن المدن، وخضوعها بطابع الحكم القبلي، وقلة عدد سكانها، وعدم خضوعها لأي نظام سياسي، إلا ما كان من جهود بعض المصلحين من السادة أو المشائخ العائدين من المهجر، ممن اقتصر جهدهم على تعليم القراءة والكتابة لبعض الناس، وتحرير مكاتبات البيع والشراء في الأموال والأراضي والحصون ونحوها. وهي مساع لا تكاد تذكر في الوسط القبلي في ظل سيادة الأمية في هذه المناطق، وفي الضليعة ساد دور العمل بالتوجيه والإرشاد الفردي منذ تأسيس جامع الشيخ عمر بامخرمة فيها؛ بحكم صلاته وتأثير علماء آل بامخرمة في مقادمة الدين، ويتضح ذلك الدور من سجلات المراسلات الفقهية الموجَّهة لهم

بخصوص الأوقاف المستمرَّة من فترة لأخرى.

وبنهاية الحكم القبلي وسيادة الحكم القعيطي في تلك الجهات عملت السلطة على ربط أبناء البادية بالتعليم والجندية، ولهذا الغرض تم أخذ عدد من أبناء الريدة للتعليم بمدرسة أبناء البادية بالمكلا، منهم المعلم سالم سعيد باشطح باقهيم، والذي عمل فيما بعدُ مدرِّسًا بمدرسة عتود وإمامًا بمسجدها في الريدة، كما سعت الدولة لبناء عدد من المدارس بالريدة، ورغم ما أبدتْهُ القبائل من امتعاض وتمنُّع خوفًا من ان تمد الدولة مرافقها إلى مناطقهم لتسيير شؤون الحكم فيها، يُعد من المحامد والإيجابيات التي تقدمها الدولة في سعيها لإنشاء مدارس لأول مرة في هذه المناطق، لتعليم أبنائهم و إذابة هذا الامتعاض القبلي، وخاصة في عهد الشيخ سالم بالحمر بامسدوس؛ إذ سعى جاهدا لنشر التعليم في الريدة عبر نداء – في صحيفة الطليعة – لكل سكان الريدة بمن فيهم المغتربون دعا فيه إلى المشاركة في بناء أول مدرسة ابتدائية بالضليعة، وبذلك نجح في تأسيس هذه المدرسة، التي سُمِّيت بمدرسة الطليعة بالضليعة، نسبةً إلى صحيفة الطليعة الحضرمية، التي حثَّتْ سُكَّان الريدة على الإسهام في هذا المشروع الخيري، ولا تزال هذه المدرسة تحتفظ باسمها إلى هذا التاريخ مع بقايا بعض بناياتها.

وبعد نشر الإعلان بالضليعة، وبجهود فردية، ورغبة جامحة في المبادرة التي تبدي حرصًا على نشر التعليم بالريدة، فقد تبرع أحمد عوض بن عواضان باعبد الدَّيني ببيته؛ ليكون مدرسة مؤقتة لتعليم الطلاب إلى حين بناء المدرسة المعلن عنها. وفي بيته بدأ أوَّل عام دارسي عام ١٩٦٠م/ ١٩٦١م بواقع ٣٢ طالبًا، وقد قام المعلم/ شيخ سعيد العمودي بدور تسيير التعليم وتبديد مخاوف الامتناع لدى الوجهاء المعارضين للأسباب المذكورة قبل قيام الشيخ بالحمر بإعلان ندائه بهذا الشأن في صحيفة الطليعة.

ومن أبرز من قام بعملية البناء في مدرسة الطليعة سعيد ظفر بامسدوس، وسالم بادخن باعبد، وحمد باشيبة باعبد، وآخرون. ومن العمال المساعدين: عبد الله سعيد باقعيش، وناصر علي بامكراب بامسدوس، وسعيد على جرمة باعبد، وغيرهم، وقد أجزل الشيخ بالحمر لهم جميعًا أجرة عطاء بواقع عشرة شلنات (للمعلم)، وخمسة شلنات للعامل.

وقد بدأت فيها الدراسة في العام الدراسي ١٦٦٢/ ١٩٦١م، وفي عام ١٩٦٥م أكملت اول دفعة دراستها في هذه المدرسة، وتم نقل المتخرجين منها إلى وادي دوعن للالتحاق بالدراسة الإعدادية في مدرسة رباط باعشن، وبتخرجهم منها بعث الشيخ بالحمر برسالة إلى المحافظة في حدود عام ١٩٦٨/ ١٩٦٩م طلب فيها توظيف الخريجين من أبناء الريدة مدرِّسين في مدارسها للحاجة الملحَّة لهم، وهم على دفعتين، من الدفعة الأولى عبد الله علي سالم بامكراب بامسدوس، وحمد سعيد جرمة باعبد، وعبيد سالم باعبد، وسالم أحمد بوسليم بامسدوس، وسعيد سالم باشيبة باعبد، ومن الدفعة الثانية عبد الله أحمد بانمر بامسدوس، وعوض عمر باعبود الدم، وعمر سالم باعبد، وعبدالله سالم باعبود باعبد.

ويشكل هؤلاء الرعيل التربوي الأول الذين

رفدوا عملية التعليم بمركز الضليعة، الذي كان تابعًا لوادي دوعن في بداية العهد الجمهوري، كما كان لهم أثر في توسع عملية التعليم، داخل الريدة ليشمل أكبر مناطقها، التي أقيمت فيها مدارس إضافية أخرى، واليوم أصبح للضليعة إدارة للتربية والتعليم تتبع مكتب الوزارة بساحل حضرموت، ويوجد في مدينة الضليعة مجمَّع أساسي وثانوي للبنات ومدرسة الطليعة وثانوية محمد الدُّرَّة للبنين وروضة للأطفال.

عمارة القرف وطبيعة المباني في الضلعية:

تنفرد مناطق ريدة الدين عمومًا والضليعة خصوصًا - بحكم طبيعتها الجغرافية - بنوع معين من العمارة المبنية من مادَّة القرف، فحافظت بذلك على طابعها المعماري المغاير نسبيًا، عن الطابع المعماري في بقية مناطق الهضاب الأخرى. ويعد البناء بالقرف فنًا معماريًا فريدًا من نوعه في الشكل والتصميم، ويختلف عن فن العمارة الحضرمية الطينية السائدة في الوادي، أو عن فن عمارة الحجر والجير والإسمنت السائدة في الساحل.

وفي السابق كان البناء يتم بالأحجار وهي مرحلة كان تمَّ فيها الاستقرار في الشعاب التي وجدت فيها مواقع أثرية بالرَّيدة، كما توجد أنقاض لبعض تلك المواقع الأثرية ما يعود تاريخه إلى فترة ما قبل الإسلام، وهي تحتوي على بنايات حجرية عُثِرَ في بعضها على تماثيل وأبواب حجرية وقطع من صفائح الحجر عليها كتابات، كما عثر فيها على بلاطات حجرية، منعمة سطوحها ومغرية بجص وياجور.

لقد كانت مرحلة ظهور عمارة القرف لتمثل مرحلة جديدة وتطورًا جديدًا، ولم يذكر تاريخ محدَّد، ومن المواقع الأولى لعمارة القرف بالريدة مدينة عكرمة، التي يرجع تاريخها إلى ما بين القرنين ٨ - ٩هـ (الموافق ١٣٠٠ - ١٤٠٠م).

ويعد البناء بالقرف والطين الأبيض تطورًا ملحوظًا لحركة الاستقرار والنشاط الإنساني في الريدة في مجال البناء المعماري وبناء المعالم التاريخية - الحصون العالية -، التي تحكي عن مقاومة الزمان والثبات في المكان، وتعد بنايات هذه المرحلة خير شاهد على ذلك، حيث توجد على أبوابها كتابات في معصورة الضليعة عام ٩٧٠ هـ.

والقَرَف (بفتح القاف والراء) في اللغة من قَرَف يَقْرف، فيقال: قَرَفَ الجُرْحُ: أي اقتلع قشرته، إذا جفَّ، والقرف من الأرض، هو قلع أو نزع قشرة منها، ومنه قلع الألواح (الصروف)، وهي صفائح حجريَّةٌ كِلْسِيَّةٌ شِبْهُ صلبة، بُنِّيَّةُ اللَّوْنِ غالبًا، وذَاتُ ألوانٍ متعدِّدة، تُسْتَخْرَجُ مِنْ أَمَاكِنَ عِدَّةٍ في المنطقة، فسُمِّيَت صروف القرف أو ألواح القرف؛ إذ المادة المستخرجة هي القرف، والأرض (المنجم) المستخرجة منه مواد القرف سمي مقرافًا.

وفيه القرف: هو مادة من الأحجار الكلسية المتحجرة، الأقرب لصلابة الحجر الجيري، أو ما يُعرف بحجر الشيل (SHEEL). وهو ألواح عريضة يتمُّ تكسيرها، وتطويعُها للبناء ويُرَصُّ بعضُها فوقَ بعضٍ بخليط طِيْنِي ماسِك، يَتِمُّ خَلْطُهُ بـ (الذياد والتبل)، وهما مِنْ مُخَلَّفات المحاصيل الزراعيَّة، مثل حبوب الطهف، والقمح؛ لتعطي متانةً وقُوَّةً للمبنى. وتعد مادة القرف من أجود مواد البناء في الطبيعة الهضبية

على الإطلاق؛ فهي مادة لا تكتسب الحرارة، كما لا تكتسب البرودة، فضلًا عن أنها غير قابلة للاشتعال؛ فهي طينية التكوين في بنيتها، وتمتزج بالطين الأبيض عند بنائها.

وتبدأ عملية البناء بالقرف من فوق القواعد، برص صفائح القرف بعضها فوق بعض، مع الطين الأبيض، وتشييد الجدران، ويسمى الجدار القائم بـ (الفنّة)، ويكون عرض الجدار المعلوم ذراعًا واحدًا، وقديمًا كانت عملية البناء تكون بنظام الطرحات المتتالية فكل طرحة ذراع، وبتطور العمارة واتساع العمالة فيها، أصبحت هذه العمليَّةُ غيرَ مُجدِيَةٍ، فابتكروا عملية السقالة، وهي اصطفاف أكثر من معلم في عرض الجدار المزمع بناؤه، فيتداخل البناء، ويتراصف ويتماسك أكثر مما هو بالطرحات، وعند وصول ارتفاعه مترًا إلى مترين تكون النوافذ (اللهوج) والخلف غير النافذ من اللهوج. وعلى ثلاثة أمتار تطرح أعمدة السقف (العود)، ثُمَّ يسقف بألواح القرف الودف قبل أن يتم استخدام ألواح الخشب (الطبق) المستورد. وبعُلُوِّ السقف يكون سطحه (الريم)، وهي مرحلة نهائية تختتم بعمليتين، هما (الجفو) بفرش الطين الأبيض خامًا (عفر) على السطح بسمك كفِّ الإصبع، وقد يضاف له محضة بالطين المخلوط وعملية (الجبو)، وهي بناء جدار بمقدار ذراع، على جنبات السطح تتخللها (مراعيض)؛ لتصريف مياه الأمطار منها، وبتمام مرحلة البناء تبدأ مرحلة التشطيب، بثلاث مراحل متتالية، هي:

1) مرحلة التوجيه: ويعني به طلاء (محض جدران البناية من الخارج بالطين) الأكثر بياضًا بسمك إصبع ونحوها، ليغطي صفائح القرف، لكن هذا الطين يتآكل بعد سنوات عدَّة مع طبقة التوجيه؛ بفعل زخَّات الأمطار القوية بالهضبة.

2) مرحلة التلييس: وهي عملية محض البنايات من الداخل، وتستلزم دقة في التعديل والتسوية للجدران بطين أبيض أو من الزبر (اللبن). تمهيدًا لعملية الخشع.

3) مرحلة الخشع: وهو تنعيم الجدران بالطين الأبيض الناعم (نخالة الطين)، وهي عملية رقيقة جدًا، وتغطي عملية التلييس، وبها يصبح الجدار ناعمًا بفعل الفرك الذي تتطلبه هذه المرحلة. ولكل مرحلة من مراحل البناء بالقرف فئة معينة من المعلّمين والعمال، لكل منها تخصصه ومهنته.

وتحمل المكونات الداخلية للمنازل تسمياتٍ، منها:

- المكنّ: وهو غرفة كبيرة تكون في زاوية المبنى (البيت)، وقد يكون أكثر من مكن في زوايا البيت. وهو مجلس يجتمع فيه أهل البيت.
- الصبل: وهو غرفة صغيرة، غالبًا ما تكون للأفراد، وقد تستخدم كمخازن (وضيع)، وتكون أقلَّ سعة من المكن.
- السقفة: وهي سقف بسيط، يتراوح عرضه بين ٢-٢٫٥ متر، وتكون في الواجهة التي بها بوابة الصبل أو المكن، وتأخذ معنى البرندة نفسه.

معالم الضليعة:

تمتاز منطقة الضليعة ببعض المعالم التي اشتهرت بها واصبحت رمزا من رموزها، مثل الحصون القديمة التي صارت معلمًا بارزًا في المنطقة، ومن أهمها حصن بامسدوس (المعصورة).

حصن بامسدوس: بنِيَتِ القلاع المحصَّنة المستقلة نظرًا للظروف السياسية والاجتماعية القائمة في السنوات الماضية. وتتركَّز المباني السكنية للقرية حول هذه التحصينات، ويُعَدُّ الحصنُ رمزًا للقبيلة، ومصدرَ فخرٍ لها، وتشاركُ جميعُ أُسَرُ القبيلةِ الواحدةِ في بناء الحِصْنِ بِمَالِهَا، وجُهْدِ رِجَالِهَا، والحِصْنُ يُعَدُّ أيضًا مكانًا لحفظ احتياطيِّ موادِّ المعيشة من الحبوب وغيرها، وأدوات العمل.

وتتميَّزُ الحصونُ بأنظمتها الدفاعيَّة في شَكْلِهَا من خلال الأسوار العالية، والفتحات الضيِّقة، والأركان المُدَوَّرَةِ، وغُرَفِهَا الصغيرة. أوْ في وظيفتها. فإلى جانب الحماية تُعَدُّ أيضًا مكانًا لحفظِ احتياطيِّ موادِّ المعيشة من الحبوب لأعوامٍ طويلة. وتُستَخْدَمُ أربعةُ طوابقَ من الحصن لحفظ المُؤَنِ، والطوابقُ التي تَلِيْهَا للسَّكَنِ، وتتميَّزُ بمخطَّطاتها الكبيرة، التي قد يصلُ طُولُ واجهاتِها إلى ١٠ أمتار.

تتكوَّنُ حُصُونُ الهضبةِ غَالِبًا في مخطَّطها العامِّ من مَبَانٍ مُرَبَّعَةِ الشَّكل، أطْوَال أضْلَاعِهَا تتراوح مِنْ ٥ إلى ٩ أمتار، وارتفاعها من ١٠ إلى ٢٥ مترًا، ويُسْتَخْدَمُ عادةً الجزءُ الأسفل من الحصن – الذي قد يتجاوز الأربعة الأدوار – مكانًا لخزن الحبوب، والطعام، والمواشي، والطوابق العلوية للسَّكَنِ المؤقَّتِ أثناءَ المعاركِ القبلية. وقُبَّةٍ مربَّعةِ الشَّكْلِ (بِعَرْضِ مِتْرَيْنِ، وطُوْلِ ثلاثة أمتار تقريبًا) في سطح الحصن.

يعد حصن بامسدوس من المباني الدفاعية والتحصينات العسكرية المهمَّة في هضبة حضرموت الجنوبية؛ وبني عام ٩٧٠هـ الموافق ١٥٦٣م، وأصبح بمثابة دار الحكم والمحكمة لمشيخة الدين، وتوجد بها السجون ومواقع الترقيد وغرف المراقبة وفتحات إصدار الأحكام وكثير من مسمَّيات المحال التي بداخلها، وللحصن مدخلان، الأول خارجي يؤدي إلى الساحة، وآخر يؤدي إلى الدور الثاني من الحصن، وهو عبارة عن (مصنعة)، تتكوَّن من حصنٍ، وأسوارٍ ملتصقةٍ به، بها قلاعٌ مُدَوَّرَةٌ في الزوايا، وساحةٌ صغيرةٌ يبلغُ عرضُها من ٤ – ٥ أمتار، تقع بين الأسوار، تُطِلُّ على غرفةٍ مستطيلةٍ متعامدةٍ مع السُّورِ، تُسْتَخْدَمُ كمَخَازِنَ لحفظ المُؤَن، وسلالمَ داخليَّةٍ مفتوحةٍ تصلُ بين الساحة الداخلية والأسوار، وكذا ممرَّاتٍ تربطُ الحِصْنَ بالساحات العلوية للأسوار.

ويتميَّز (حصن بامسدوس) بأنَّ أماكنَ خَزْنِ المُؤَن والحبوب تحتلُّ الجُزْءَ الأكبرَ من مساحة الحصون كغالب حصون الضليعة، ونجدُها في حصن بامسدوس قدْ شغرتْ أربعة أدوارٍ، وخُصِّص الدور الخامس والأخير للسُّكْنَى، ويكادُ حصنُ بامسدوس أنْ يكونَ الحصنَ الوحيدَ في منطقة الهضبة الجنوبية، الذي

يتميَّزُ بوجود قلاع دائريَّةٍ في أركانه الثلاثة (معاصير)، حتى أُطْلِقَ عليه اسْمُ (حصن المعصورة)، وتحتوي كل معصورة على عدد من المشاويف، وهي فتحات مثلَّثة الشكل في جميع واجهات الحصن، وتكون مائلة من الداخل إلى الخارج، حتى لا يرى الواقف خارج الحصن مَنْ بداخله، والهدف منها مراقبة الأعداء، والحماية بتصويب البندقية من خلالها إلى جانب صورتها الجمالية للبناء.

يتميز سطح حصن بامسدوس بزيادة إلى الخارج، تبنى على دعائم خشبية، تمتدُّ من سطح جدران الطابق الأخير، ولذلك توضع في محيط الدعائم التي تقع تحت الحواجز أعمدة طويلة، وتعطي شكلًا جماليًا، وتكون أساسًا لبناء السقاطات، ويتميز أيضًا السطح بوجود القُبَّة، وهي غرفة مربَّعة الشكل، تتوسَّط سطح الحصن، ويُحَاطُ السطح بجدارٍ بارتفاعِ مترٍ تقريبًا، تتخلَّلُه السقَّاطات أو النتوءات الخارجية، وهي فتحات إلى الأسفل نحو البوابة مباشرة، وفي كل جهات المبنى، وسقاطة أخرى للحمام.

سوق السبت:

للحركة التجارية في الضليعة والريدة بُعدٌ تاريخيٌّ منذ القدم؛ إذ تعود جذور المقايضة التجارية بالحبوب إلى ما قبل القرن الثاني عشر الهجري، وذلك في بساطة تامَّةٍ، تعبِّر عن بساطة حياة البداوة في تلك الجهات، وبتحوُّل الضليعة منذ القرن العاشر الهجري إلى قاعدة للريدة ومقر للمشيخة القبلية الحاكمة بالريدة نشأ فيها سوق تجاريٌّ قديم، لا تزال شوارعه ومبانيه قائمة إلى اليوم، وقد حل هذا السوق محلَّ عكرمة وشهرتها التجارية سالفة الذكر، وكانت تباع في هذا السوق الحبوب والقرض والصبر والملح والفحم، وبتوسُّع الضليعة خارج الأحياء القديمة بني سوق الرمض القائم فيها إلى اليوم منذ مئات السنين، وقد زادت فيه الحركة التجارية بحيث لم يعد التسوق في شوارعها الضيقة والعشوائية ممكنًا، ففرضت الحاجة إخراجَ السوق إلى ضاحية المنطقة، وذلك يوم السبت من كل أسبوع، فسُمِّي بسوق السبت، وأصبح اليوم قوَّةً استهلاكية لأكثر مديريات دوعن وعمد ورخية ويبعث وحجر والطلح وشبوة، ومَعْبَرًا، وتبدأ الحركة فيه من بعد الفجر مباشرة إلى وقت الظهر، ويفتقد السوق لعملية تنظيم الباعة، مع أنه يبدو فيه التوزيع بحسب نوع البضاعة، حيث يوجد سوق الأغنام، وسوق العسل، وسوق العلف، وسوق السلاح، وسوق الخضروات، وسوق الأسماك، ويفصل الخط الأسفلتي السوق قسمين، ويوجد غالب الباعة من مساء يوم الجمعة.

سوق السبت

ويَعُدُّ الأستاذ صالح سالم بامقدم مدير مكتب الثقافة بمديرية الضلعية - وهو أحد رُوَّاد السوق بشكل أسبوعي وينقل بعدسته فعاليات السوق على مواقع التواصل الاجتماعي - السُوقَ تظاهرةً اقتصاديَّةً لسُكَّان مديرية الضليعة والمديريات المجاورة من خلال التبادل التجاري والبيع والشراء لمختلف السلع والبضائع، وأصبح قِبلَةً للمتسوِّقين، ومُلتَقًى أسبوعيًا اجتماعيًا للقاء بين أبناء المديرية من مختلف المناطق؛ ليكون حاضنًا شعبيًّا لهم، وفُرصةً لتبادل الأحاديث الوُدِّيَّة بين المواطنين.

المياه:

ما أن تعتلي منطقة الضليعة بقليل إلا ويظهر لك كريف ماء أشبه ببحيرة صغيرة جميلة، ذات لون أزرق، تُسمَّى الكريف؛ إذ يعتمد سكان منطقة الضليعة مثل بقيَّة سكان المناطق الأخرى في المديرية على مياه الأمطار؛ للحصول على المياه وتخزينها في الكرفان (جمع كريف، وهي حفر كبيرة لحفظ المياه، كخزَّاناتٍ أرضيَّة من الحفائر)، حيث لا توجد آبار بسبب عمق المسافة، لكن الآن توجد دراسات لاستخراج المياه الجوفية، كما لا توجد سدود صالحة للشرب، وعند شِحَّة المياه في موسم الجفاف يتم نقل المياه من مناطق مجاورة (بالوايتات) بمبلغ يثقل كاهل الكثير من الأسر المحدودة الدخل، ويرتفع السعر كلما اشتدت شحَّة المياه، ومنطقة الضليعة معتمدة فقط على كريف الضليعة، الذي يحفظ الماء لأشهرٍ عدَّةٍ، من ٥ إلى ٧ شهور، وتعد الأمطار المصدر الوحيد للمياه، مع الأخذ بتفاوت هطولها من موسم لآخر في فصلي الصيف والخريف، وطريقة حفظها في الكرفان غير مُجدِية لتوفير ما يكفي للمنطقة؛ لعدم قدرتها على حفظ المياه لأكثر من ستة أشهر، إلَّا فيما ندر؛ بسبب تعرُّضها لعوامل التعرية، كالجفاف والرياح وحرارة الشمس التي تبخِّرُ نسبًا عالية من المياه، إضافة إلى عدم ترشيد استهلاك الماء، وتزايد عدد السكان في المنطقة.

كريف الضليعة

-المراجع

1) السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٢ م
2) باكرشوم، محمد سالم، الهضبة الغربية الوسطى من حضرموت (ريدة الدين دراسة تاريخية)، دراسة ماجستير، ٢٠٢٠م.
3) الرباكي، أحمد صالح، التحصينات العسكرية في هضبة ووادي حضرموت، عمارة القرف والطين: دراسة مقارنة، مجلة حضرموت الثقافية العدد ١٠، ٢٠١٨م.

97
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

قبلة المشتاق

يعقوب بلسعد

إنِّي إليكَ، تَهزُّني أشواقي
يامصطفى ياقبلةَ المُشتاقِ

ياسيِّدَ الأكوانِ يابحرَ النَّدى
يابلسمًا يابسمةَ الأحداقِ

ذكراكَ في قلبِ المتَيَّمِ لمْ تزلْ
يصفو بها في الصُّبحِ والإشراقِ

نورُ الهدايةِ والأمانةِ والتُّقَى
ومُتَمِّمٌ لمكارمِ الأخلاقِ

وتفاخَرَتْ بقدومِكُم أرواحُنا
ومنابرُ الإيمانِ والأعراقِ

إلهٌ خصَّك ذو الجلالِ بِقُربه
في ليلةِ التَّمكينِ والميثاقِ

أُسْرِيتَ للقدسِ الشريفِ مكرَّمًا
وشقَقتَ أفْقًا في السما بِبُراقِ

وعَرجْتَ نحوَ الإلهِ في أكوانهِ
لا شكَّ أنَّكَ أجملُ العُشَّاقِ

وأتيتَ من فيضِ الكريم مُحَمَّلًا
بمواسمِ الرَّحماتِ والأرزاقِ

وبِكَ اسْتنارَ الكونُ وارْتحلَ الدُّجَى
والأمنياتُ تَطِيرُ في الآفاقِ

لولاكَ مَا كُنَّا ومَا كانَ الهوى
ولَمَا اكْتستْ بِضيائها أعماقي

أنتَ الرَّبيعُ بزَهْرِهِ وبعطرِهِ
وبِلُطْفِهِ وبِحُسْنهِ البرَّاقِ

مَنْ ذاقَ نهجَكَ في الأنامِ بهِ انْتشى
وبهِ اعْتلى عن سائرِ الأذواقِ

اخضَوْضَرَ الكونُ البَدِيعُ بِحُبِّكُم
و اخْضوضرتْ مِنْ حُبِّكُم أوراقي

لنْ أرتضي خِلًّا سِوَاكَ فأنتَ لي
نِعمَ الخليلُ، وحُبُّكُم تِرياقِي

يامَنْ تَجُودُ على النبيِّ مُصَلِّيًا
ستحِلُّ في حوضِ النبيِّ الرَّقْرَاق

البراق:

شعر

د. أبوبكر محسن الحامد

مهداة الى شقيقي الشاعر الشعبي معلِم الانجليزية عمر بعدَ حادثٍ مروري فغيابه طويلًا للعلاج ..
ومهداة أيضًا إلى أهل وُدِّي جميعًا أينما كانوا!

يا(ابنَ أُمِّي!) وبي إليكَ اشتِيَاقُ!
حملتْهُ القلوبُ والأحداقُ!

يا (ابنَ أُمِّي!) ولِلْهَوى خفقاتٌ!
وحنينٌ، ولَوْعَةٌ، وفِرَاقُ!

كيفَ (سيئُونْ!) والصَّبَابَاتُ فيها،
فَبِقَلْبِي لِوَاؤُها خفَّاقُ!

أينَ مِنِّي مجالسُ الشِّعرِ تَرْوِي،
قصصَ الوَجْدِ، وَالهَوَى دَفَّاقُ!

كَمْ لَنَا مجلسٌ طروبٌ، شَجِي،
مجلسٌ حافلٌ، وكأسٌ دِهَاقُ!

نَتَرَعُ الشَّايَ: خمرَ (سيئُونْ)، أُنسًا،
فإذا الأنسُ مبدعٌ خَلَّاقُ!

* * *

يا (ابنَ أُمِّي!) وكيفَ تَحْيَا بَشُوشًا،
أو مَا زلتَ والمَغَانِي الرِّقَاق!

تارةً تَغزِلُ الأماني سحابا،
تارةً أنتَ والأماني عناق!

وأنا الأُمنِياتُ يملأْنَ قلبي،
وهو قلبٌ، على المدى، إشراقُ!

ونُغَنِّي لِمَنْ نُغَنِّي شُجُونا،
أَوَ تدري بشدونا الآفاق!

أينَ صوتي! يرنُّ نشوي بشعري!
ولك الرُّوحُ، مُطلَقٌ سبَّاقُ!

لي (صراعٌ)* يمضي إلى (الكُنهِ)** غَوْرًا،
أيُّ كُنْهٍ مَسَارُهُ أعماقُ!

* * *

حاصرتْنِي دوائرُ التِّيهِ لُغْزا،
حارَ فيهِ الدهاةُ والحذَّاق!

يَا لِهَذِي القُيُودْ تَلوِي جناحي،
وأنَا الحُرُّ، دَأْبُهُ الانطلاقُ!

كَلَّ هذا البراقُ يَا (إبْنَ أُمِّي!)؟
فمتى يَستَرِيحُ هذا البراق!

أَلَهُ عَوْدَةٌ إلى سَفحِ (ليلى!)
فَهُنَاكَ الصِّبَا! هُنَاكَ الرِّفَاق!

عَلَّهُ يَستَرِيحُ بَينَ مُحِبِّيهِ،
تخفُّ الجِرَاحُ، والإرهاق!

وتَطِيبُ الحَيَاةُ بَعْدَ اضْطِرَابٍ،
فَحَيَاتِي مَدٌّ وَجَزْرٌ: لِحَاق!

. . .

---

*(صراع) عنوان قصيدة من (بواكير) الشاعر، حصدت الجائزة الثانية في (مسابقة شعراء سيئون)، نوفمبر ١٩٧١، ومنشورة بمجلة اتحاد الأدباء، (الحكمة)، الصادر ٢٧ شوال ١٣٩١ هج، ديسمبر ١٩٧١م. ص ٩-١٢. مطلعُها:

في خلوتي تنتابني الأفكار،
تعصف بي، مكاني!

** (الكُنْهُ) هو عنوان أحد دواوين الشاعر الستة: البواكير، أمل الوميض، الكنه، حالات وأحلام، سعادة الروح/ الجسد، مطبوع اكتوبر ٢٠٢٤م، ومن الحصاد.

وفي مساجلة شعرية، ببريطانيا ١٩٨٧ في أثناء الدراسة العليا بمجال الترجمة واللغويات مع الصديق العزيز محسن أحمد بن شملان، إشارةٌ إلى السعي نحو «الكنه» جوابًا على قصيدته «تساؤلات إلى أبي بكر!» لعلنا ننشر المساجلة كاملة قريبًا:

ومَا العُمْرُ! يا شملانْ بحرٌ نَجُوبُهُ،
ونسبُرُهُ غَوْرًا فيَرْتَدُّ ساحل!
أَنَقضِيهِ في صندوقِ حلمٍ وحولَنا مَجاهِلُه،
إنِّي إلى «الكنهِ» رَاحِل!
لنا كُلُّ هذا الكون، والبُعْدُ بَعْدَهُ،
لنا اليومْ، والأخرى، وقَبلٌ، وقَابِل!

. . .

100
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

- نطفةٌ، ثُمَّ مراحلُ عدَّة، حتَّى يتخلَّق الشخص أنثى كان أو ذكرًا...

وتلك النظرة كالنطفة الأولى للحُبِّ في قلب كليهما ربما، وربما قلبها فقط وقد يتلظَّى قلبُه فحسب، الحرف الأول يستطيع فعل ذلك أيضًا..

الإحساس..

الشعور..

الانطباع..

كُلُّ هذا يتكوَّرُ كنُطفَةٍ في العقل في هيئة تفكير.

ليصل مرحلة النُّضج في القلب، تاركًا العقل جانبًا بعد ذلك

العقل أيضًا يمكنه أن يكون حاضنًا لأوَّل نُطفةٍ!

ثَمَّةَ أشخاصٌ يَغِيبُ العقلُ في التعامل معهم، وآخرونَ القلبُ.

لسْنا بقاصرين ولسْنا أطفالًا... نمتلكُ حواسَّ تفوقُ حواسَّ النَّاس الطبيعيين، أي إنَّنا ننتقي من حولنا بحذر.. أعترِفُ أنَّنا نقعُ في فَخِّ بشاعتهم مرارًا..!

وليستْ نتاجَ تجاربَ سابقةٍ؛ لأننا لا زلْنا نخوضُ معهم كما خُضنَا كأوَّل معرفة..

لا شَيْءَ يتغيَّرُ..

نَعِيشُ ردَّةَ الفعلِ نفسَها..

الصدمةَ نفسَها..

ويسكنُنَا الحزنُ ذاتُه.. وتتملَّكُنا الدَّهشةُ ذاتُها لكل الأسئلة التي تُترَكُ من دون أجوبة..

لها الأجوبة الكافية إنْ أردْنا ذلك

لقد بترْنا الرغبةَ في العودة إليهم..

- ترتدي كعبًا عاليًا، يُصدِرُ صوتًا بارزًا عند خطواتها نَحْوَه

الخطوات الأولى لا تَخلُو من عدم التوازن

أَتُحِبُّه..!

لدرجة أنَّها تُخفِي خَفَقَانَ قَلبِهَا بكعبِهَا!

وترى خُطوَاتِهَا متباعدةً متسارعة..!

تَلهَثُ..!

تِلكَ المسافةَ ما بينَ قدمَيْهَا الاثنتين، أَهِيَ القدر ذاتُهُ ما تحتاجُهُ من الأكسجين للتنفُّسِ وتُوَارِي خَجَلَها منه..!

تَضَعُ يدَيْهَا بعضَها فوق بعضٍ مرَّاتٍ كثيرةً، أهِيَ كالإشارة إليه لاحتضانها؛ ليُهَدِّئَ من ارتباكَتِهَا؟

ذلك الحضن هو كإثباتٍ دامغٍ لمحبَّتِهِ لها...

- الحُضنُ أمانٌ لا يُخَالِجُهُ خوفٌ للأنثى..

إنْ كانتْ تُحِبُّهُ سيُغنِيها عن العالمين، سَتَسْرِي في جَسَدِهَا عافيةٌ..

وتَسكُنُ أعماقَها سَعَادَةُ يعقوبَ حِينَ رأى يوسف..

أضلاعًا من عظمٍ!

ليِّنَة المَلمَسِ للقلب، جَنَّة الدنيا فيها تُلَمْلِمُ الأنثى شتاتَ احتياجِها، ركنُها الشَّدِيدُ الذي تأوي إليه

وتَصِلُ به لمرحلة الدَّلال، وكأنَّها الأنثى الوحيدة في الكون بأسره... استثنائية ويليق بها ذلك..

- سقفُ أُمنِيَاتِ تلك الأنثى مُغلَقٌ

لا تُرِيدُ أنْ تُحَلِّقَ دائمًا في سماء الأرض، فقط في دواخل قلبِهِ كرَجُلٍ.

ستكونُ وَتَدَهُ إنْ نصبَ خِيَامَ هُمُومِهِ، محبَّتُها نارٌ تُدفِئُه، وغَيْرَةٌ تُحرِقُهُ إنْ مَالَ نظرةً لغيرها..

متناقضة... حكيمة... عاقلة... أنثى

له كما يُحِب وأحبّ.. وكما يَجِبُ أن تكون إنْ كان لها..

- أيحب أن يكون نُقطةً تنتهي حولَها مواقفُه معَها.. تلك النُّقطَةُ قد تُمَثِّلُ النهايةَ أحيانًا.

تَضَعُهَا بكثافةِ دَمْعِهَا... خُذلَانُهُ لها سيَتَمَحْوَرُ حول أعيُنِها

سيسردُ ذلك السَّوادَ الكثيرَ من الأحداثِ لنْ يُخرِسَهُ كَرِيمُ أساسٍ أوْ فيلر

سيرسُمُ الحنينُ على أَكُفِّهَا ووَجْهِهَا تجاعيدَ عددَ اشتياقِهِ له..

ذاتُ لونٍ شاحبٍ.. لمْ تَرْتَوِ مِنْ دِفْءِ حُضْنِهِ

قُربِهِ

والكَثِيرِ منه

سيسمَعُ تهشُّمَ كِبرِيَائِهِ مِرَارًا، وسيَصِلُ حَدَّ الاندهاشِ مِنْ قُوَّتِهَا في المُحَاوَلَةِ لِتُثْبِتَ حُبَّهَا لَهُ

102
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

تبكي

تسامح

تغفر

تعمى عيناها عنِ النَّقْصِ لِتَراكَ رَجُلًا.. ستكُونُ آخِرَ مُحَاوَلَةٍ

يأتي بَعدَها إشراقَتُها وشَرْنَقَتُهَا كفراشَةٍ لا تَهرَمُ أبدا

قمرًا يَكسِرُ مَرَاحِلَ عُمْرِهِ وَلا يَظَلُّ إلَّا بَدْرًا..

ستكونُ بَذْرَةً تَزْرَعُ نفسَها وستكونُ هي التُّرابَ، الماءَ، والمُزارِعَ أيضًا إمَّا تثمر..

وإمَّا....!

استثنائيةٌ لا مَحَالَة.

- اختصارًا لها ...

تخلقُ النظراتِ حُبًّا من دُونِ لقاء... ولنفسِهَا قد تكون.

إلى سرِّكَ الغامض

إيناس بارجاش

أكتبُ رسالةً خفيةً لن يراها أحدٌ سواك، وأدسُّها في جيبك قبلَ بزُوغ الفجر، ومطلع الذُّعر في عينيك.

اسألُكَ باللهِ.. مِنْ ماذا تخافُ؟

أمِنَ المرَّاتِ التي ضحكْتَ فيها بكامل أساريرك وشيءٌ فيكَ مُمَزَّقٌ؟ كُنتَ حينًا تبحثُ عن قطعةِ قماشٍ وخيطٍ خفيٍّ تُطرِّزُ فيه جُرحَك القديم، لكنَّك لا تُجِيدُ غَرزة التثبيت لتختبئ أنت وسِرُّك -على ما أظنُّ-، أمْ مِن نواقصك الجمَّة التي تهابُ كشفَها أمامَ الملأ؟ أمْ من الرُّضوضِ المطبوعة على جبينك، والتقرُّحاتِ التي تتوسَّطُ عقلَك المُشتَعِل؟

يتراءى لك أنَّ الجميعَ يتكوَّن من لحمٍ وعظمٍ وحظ، إلا أنتَ من ذُعْرٍ ونقصٍ وظلٍ ركيك.

وخريطةُ ذكرياتكَ كلوحةٍ أصيلةٍ زاخرةٍ بالتفاصيل، ساحَ منها الطِلاءُ فلم تَذَرْ منها سوى لونَيْنِ واجمَيْنِ، أمَّا البقيَّةُ منها فتزهو خارجَ اللَّوحة، زحفًا على الطُّرُقات تبحثُ عن ساحاتٍ أخرى تنتصرُ فيها بهجتُك، إلى معاركَ ليستْ لها.. إلى نصر لا يحمل اسمها..

عشرون عامًا وأنت ترتعشُ في السِرِّ، تنتصبُ أمامَ المِرْآةِ فتكسرُ صورتَك أمامَها وكأنَّك ستُعِيدُ تشكيلَ نفسِكَ من جديد من دُونِ أخطاءٍ أو نواقصَ أو رُضُوضٍ أخرى. عشرون عامًا وأنت تُحاكِمُ نفسَك، تنظرُ للمِرْآةِ نفسِها فتَجِدُ تقاسيمَ وجهِكَ لمْ تَعُدْ تُشبِهُك.

عشرون عامًا تَهرُبُ مِنْ خَوفِكَ والورقةُ لا زالتْ مدسوسةً في جيبِك، لكنَّها منبعجة، رديئة، رطبة، والأحرفُ فيها تكادُ أن تَغِيبَ عَن الحُضُورِ كما غابَ وَعْيُكَ عَنِ الوَعيِ منذُ أنْ صار سِرُّكَ هو عَدُوُّكَ اللَّدُود.

تلك الدمعة التي لم تسقط

أثير باعيسى

وقفَ أمامَ بوَّابةِ المدرسة، يتأمَّلُ الأطفالَ بحقائبِهِمُ المُلَوَّنة، وأعيُنَهُمُ اللَّامعة بالحَمَاسَة، منذُ أغلقتْ أبوابَها في وَجْهِهِ صارَ يَعُودُ إليهَا كثيرًا...فقط لِيُرَاقِب.

دخلَ إلى المدرسة بعدَ إصرارٍ طويلٍ من والدته، لكنَّهُ واجهَ الكثيرَ من اللَّحظَاتِ التي أرادَ فيها أنْ يُدَافِعَ عن نفسِهِ، أنْ يَصرُخَ طلبًا للنَّجَاة، لكنَّ فمَهُ ظلَّ مُغلَقًا، عَاجِزًا، مَخذُولًا. في إحدى المرَّاتِ اختارَهُ المُعلِّمُ ليُجِيبَ عن سؤالٍ طَرَحَه، لكنَّهُ تجاهَلَهُ بعدَ حِينٍ واختارَ طالبًا آخَر؛ لأنَّهُ لمْ يُطِقِ الانتظارَ إلى أنْ تَصِلَهُ الإجابة، أمَّا الأطفالُ فلا أحدَ يَقتَرِبُ مِنهُ أوْ يُلاعِبُه؛ لأنَّ أُمَّهاتِهم يُخبِرْنَهُمْ أنَّهُمْ سيُصبِحُونَ مِثلَهُ إنْ صَاحَبُوه.

في أحَدِ الأيَّام راوَدَتْهُ الشَّجاعةُ لكي يُخبِرَهُم أنَّهُ يُرِيدُ اللَّعِبَ مَعَهُم، لكنَّهُمْ وجدُوهَا اللَّحظةَ المناسبةَ لكي يَعتَدُوا عليه، اندفعَ كُلٌّ واحدٍ منهم يَضرِبُهُ إلى أنْ سقطَ على الأرض، اقتحمتْهُ أصواتُهم حتَّى أوشكَ رأسُه على الانفجار، كأنَّه كابوس. استدعى لسانهُ كيْ ينطق، حاول أنْ يصرُخَ لكنَّ الصرخاتِ تكدَّسَتْ بداخِلِهِ تَضُجُّ بِقُوَّةٍ لكنَّها لا تَجِدُ طريقَها للخروج.

نشأ في قريةٍ صغيرة، كأوَّلِ طفلٍ صامت، لا لأنَّ في الصَّمتِ حِكمَةً، بلْ لأنه لمْ يُمنَحْ صوتًا، كان صامتًا مُجبَرًا لا مختارًا. كان المجتمعُ يراهُ مُخِيفًا لا لشيءٍ سوى أنه كان مختلفًا، وكأنَّ عاهتَهُ تُلزِمُهم الابتعادَ عنه، وتَمنَحُهم العُذرَ لنبذه. كانتْ والدتُهُ تحاول دمجَهُ في المجتمع بأنْ أصرَّتْ على ذهابه إلى المدرسة؛ لتوقُّعها أن الوضع سيختلف بين أسوار المدرسة، وسيجد معاملة أخرى تليقُ به. لكنَّها أدركتْ سُوءَ قرارِها عندما رأتْهُ منزويًا، يذرِفُ دُمُوعَهُ كسَيلٍ صغيرٍ، ويدعو الله أنْ يُخرِجَهُ من هذا المكان.

كانتْ وَطْأَةُ صَمْتِهِ في البيت أخفَّ، وجدَ مَنْ يتقبَّلُه ويُحَاوِل أنْ يفهمَه. في ظهيرةٍ هادئةٍ اقتربَ من أُمِّه، حرَّكَ يَدَيْه، ضغطَ بأصابعه، رسمَ في الهواء مُحَاوِلًا أنْ ينتزِعَ من صَمتِهِ ما يكفي ليُوصِلَ حاجتَه. كان في عينيه شيءٌ جائع، وفي حركاتِهِ لهفَةٌ تُجاهِدُ لتُفْهَم. جلستْ والدتُه أمامَه، تتأمَّلُ وجهَه، تُرَاقِبُ ارتباكَه، وتحاول أنْ تلتقطَ من صمتِهِ ما فشلتِ اللُّغَةُ في قوله، وكُلَّما زادَ اضطرابُهُ، ازدادَ صمتُها. جلسَ أرضًا، وأسندَ رأسَهُ إلى الجِدَار، كأنَّ العالمَ كُلَّه ضاقَ عليه، دَنَتْ نحلةٌ مِنْ أمامه، تتبَّعَها بعينيه، وأشارَ إليها بلَهْفَةِ مَنْ وجدَ ضالَّتَهُ بعدَ طُولِ انتظار. لحظةٌ واحدةٌ فقطْ كانتْ كافيةً... حتَّى نهضتْ أُمُّه... وعادَتْ بالعسل، أخذَهُ بين يديه ككنزٍ طالَ انتظارُه، وراحَ يأكل، لكنَّها رأتْ في عينيه تلك الدمعةَ التي لمْ تسقط.

104
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

صوت
لا يسمعه أحد..!!

وردة عوض بلسود

كنتُ جالسةً على شُرفَةِ النافذة، أُطلِق لأنفي العنانَ ليعانق عبيرَ المطر النَّديّ، وهو يهطل من علياء السماء، فيمتزجُ بنسمات الغبار وعبق الأرض الذي ينعش الروح.. تمتمْتُ في نفسي: كمْ نحنُ بحاجةٍ إليك أيُّها الغَيث، لتخضرَّ الرَّوابي والوادي، ويعودَ إليه نبضُ الحياة.. فقد أوشك الأسبوعُ على الانقضاء من دون أنْ أحظى بلحظةٍ أخلو فيها مع الوادي الخضير.

قرَّرْتُ أن آخذ الأغنام في الغد وأتوجَّه بها إلى مسقط راحتي، هناك حيثُ كنتُ أخرج للرَّعْيِ في الأيام الخوالي، فلمْ يكن العمى يومًا قيدًا يكبِّل إرادتي .. سأعيد إحياءَ تلك الأيام، عليَّ أنْ أحرِّك هذا السكون من حولي.. بعد أن أصبحتُ كالوتد الثابت الذي يمرُّ الجميع بجواره ويمسحون به أيديهم، لكنَّهم يتركونه في مكانه، تفادِيًا للفوضى التي قد تحدث في حال تحرك.. صحيح أن العمى حرمني من رؤية الحياة والنَّاس وكُلِّ التفاصيل، كما حرمني من خدمة نفسي بيدي، ومن حُرِّيتي في الترحال وهي الهواية التي لازمتْني منذ الصغر.. لكنَّه لمْ يحرمْني من الإصغاء إلى الشِّعرِ وحِفظِ الأحاديثِ والحِكَم.. كما لمْ يقتلعْ من صدري شغفَ قولِ الشِعرِ الذي يتدفَّق من صدري كجَدْوَلٍ مُنسَاب.

واستطردتُ أُخاطِبُ نفسي ههنا، في هذا الصَّمْتِ المُطبِق، لا أحدَ يُصغِي إليَّ، ولا أحدَ يَتحرقُ شوقًا ليجالسني.. مللْتُ هذا الرُّوتِينَ منذُ رحيلِ والديَّ، صِرتُ أقضي أسبوعًا عِندَ أخي الأكبرِ في بيتِ الطُّفُولة، وأسبوعًا آخر عند «سالمٍ» في المدينة.. جسدٌ يتنقَّل، وقلبٌ غريبٌ يبحثُ عن مأوى.. ومع أوَّلِ خَفقَةِ مطرٍ، نَهض في داخلي أمَلٌ دَفِينٌ كما انبعثَ في قلبي بصيصُ أملٍ، وشُعلَةُ عزيمةٍ لتجديدِ العَهدِ مع الوادي.

قضيتُ ليلتي وأنا أترقَّب بزوغَ الفجرِ بشَوقٍ يملأُ كِيَاني، أتلهَّف لملاقاة الوادي الذي أعرفه ككَفِّ يدي، بلْ أعرفُه بقلبي قبلَ قدمي .. كما

أعرف أغنامي جيّدًا وأعرف كيف أتعاملُ معها، فحياةُ البَدْوِ والرَّعيِ متأصِّلةٌ في دَمِي، تُثِيرُ وجداني وتَحيَا في أعماقي.

مع إشراق الصباح، نهضتُ وصلَّيْتُ بخُشُوعٍ كمَنْ يُهيِّئُ قلبَه للقاءٍ ما.. ارتديتُ ثوبَ الرَّعْي، وتلفَّعْتُ بنقاب البادية، ثُمَّ وضعتُ على رأسي قُبَّعةَ الخُوص.. أمسكتُ عصاي التي تُرافِقُني كرفيقٍ وَفِيٍّ، وحملْتُ قُفَّتِي الصغيرةَ بعدَ أنْ وضعتُ فيها كِسرَةَ خُبز، كما أخذْتُ الدلَّةَ الخاصَّة بحَلْبِ الماعز، ولمْ أنسَ قِربةَ الماء أيضًا.

خرجتُ إلى زريبة الأغنام المحاذية لباب الدار، وأطلقْتُها، وتوجَّهْنا صَوبَ الوادي .. كنتُ أشعر وكأنَّ جسدي يرقصُ مع دفقاتِ الشَّمس الدافئة والسُّكون المهيب الذي يلفُّ المكان .. عند بلوغنا الوادي، خاطبتُ أغنامي بصوتٍ لا تعرفُه سوى هي، أمرْتُها أنْ ترشفَ من خير الأرض، وتمرحُ في رحابه.. ثم جلستُ على صخرةٍ كبيرة، أُصغِي لِوَقْعِ خُطَاهَا، وأَحُسُّ بِكُلِّ ما يحاولُ الاقترابَ منها.. لقد ~~بَتَّنِي~~ السّنونَ لأقودَ القطيعَ وأنا عمياء.

وبعد أنِ اطمأنَنْتُ على سلامة المكان والأغنام، فتحتُ قربة الماء وتناولتُ رشفةً منها.. فإذا بصوتٍ يتسلَّلُ إلى أُذُنِي من غير أنْ يَسبِقَهُ وقعُ خُطى.. قلتُ في ارتباكٍ: «مَنْ هنا؟ وماذا تقول؟! وكيفَ لمْ أحسَّ بوجودك؟» فجاءني الردُّ بصوتٍ ناعم: «أنا «نرجس»، ومعي أختي «عاشقة» وابنة عمي «مناهض».. أختي كثيرة الجدل والشغب، وقد عجز أهل البيت عن توجيهها، فأحضرتُها إليك؛ لتقنعيها وتُعدِّلي من سلوكها».

- «مَنْ أنتِ؟».

- «أنا «نرجس»».

- ««نرجس»؟! لكنْ صوتُكِ يُوحِي بأنَّكِ لستِ من أهل القرية! وكيف لمْ أشعُرْ بقدومكم؟!».

- «أنا معك دائمًا، أسمعُ حديثَكِ وأشعارَكِ، وقد تأثَّرتُ بها غاية التأثر.. لقد غيَّرَتْ من سلوكي، والآن أريدُكِ أنتِ أن تُقنِعي أختي «عاشقة»».

- «لكنَّني لا أعرفُكِ من قبل!».

- «لكنَّني أعرفُكِ وأعرفُ كُلَّ شيءٍ عنكِ.. وأعلمُ أنَّه لم يبقَ سوى يومَيْنِ وتنتقلين إلى أخيك «سالم» في المدينة، رغم حُبِّكِ للقرية ودارِ أخيك «سعيدان» التي نشأتِ فيها.. أنا يا «صالحة»، جِنِّيَّةٌ واسمي «نرجس».. وأنا أُحِبُّكِ وأحترِمُكِ كثيرًا».

ارتعدتْ فرائصي، وغمرتْني قشعريرةٌ باردة، فقررتُ العودةَ إلى البيت في الفور، رغم أنَّ الشَّمس لمْ تشتدَّ حرارتُها بعدُ، والنَّهار لا يزال في بروده.. بدأتُ أتحسَّسُ عصاي وهي في يدي، وأنا أردّد: «بسم الله الرحمن الرحيم».. فقالتِ الجِنِّيَّةُ: «لا تخافي، دعي عنكِ هذا الفزع.. أنا حقًّا من عالم الجن، لكنِّي يا «صالحة» أحمل قلبًا طيّبًا، وأحبُّ الاستماع إليك».

أخذتُ أصيحُ على الأغنام، والعَرَقُ يتصبَّب من جبيني، وأنا أتساءل: يا ربّ، كيف يكونُ شكلُها؟ هرولتُ بِخُطًى مُتَعِثِّرة، حتَّى أنَّني فقدتُ القُدرةَ على تمييز طريقي.. لمْ أعُدْ أشعرُ بوقعِ أقدامِ الأغنام، هل تَتْبَعُنِي أمْ لا؟ حتى طريق العودةِ صار عسيرًا وطويلًا.. وبعدَ عناءٍ كبير، وصلتُ بابَ دارنا، وكانتْ زوجةُ أخي تجلسُ إلى جانب الزريبة.. قلتُ لها وأنفاسي تتلاحق من شدَّة التَّعب والخوف: «غانمة»، أرجوكِ اطلبي من الأولاد يذهبون لإحضار بقيَّة الأغنام، أشعرُ أنه لمْ يتبعْني منها إلَّا القليل القليل».

- ««صالحة»، لماذا عُدتِ مبكّرًا؟! وماذا أصابك؟! أهو التَّعَبُ أمِ المرضُ نال منكِ؟!»

- «لا، فقط إنني أشعر ببعض الإعياء، سأرتاح قليلًا في غرفتي».

- فقالتْ لي، وفي صوتها نبرةُ غضب: «كم مرةٍ أقول لك في الأسبوع الذي تكونين فيه عندنا أن تمكثي في غرفتك؟!.. نحن لا نملكُ تكاليف العلاج في حال أصابَكِ مكروه، فأنتِ عمياء وليس لك من أمر الرعي شيء، وإن كانتْ معظم الأغنام ملكًا لكِ».

اخترتُ الصَّمتَ، وتوجَّهتُ إلى غرفتي.. أتلمَّس الجدار بأطراف أصابعي المرتجفة.. شعرتُ ببَرْدٍ يسري في كامل جسدي، ورهبةٍ لا تفسيرَ لها.. تذكرتُ ما كنتُ أسمعه عن الجنِّ والأرواح التي تسكنُ الأماكن المهجورة.. دبَّ الفزعُ إلى قلبي اكثر، وأخذتْ يداي تبحثانِ عن شيءٍ ما يبعثُ على الطُّمأنينة، حتَّى وقعتا على المُصحَفِ الشريفِ الموضوعِ على خزانة الثياب.. ضممْتُه إلى صدري كما تَضُمُّ الأمُّ وليدَها.. ثُمَّ صِرتُ أَتلُو بعضَ الآياتِ التي أحفظُها.. وكُلَّما نطقتُ بآيةٍ، خِفتُ وطأةَ الخَوفِ، وبدأتِ السكينةُ تتسلَّل إلى نفسي وجوارحي.. أخذتُ أحدِّثُ نفسي: «يا ترى هل هذه «نرجس» تسمعني؟ وتراقبني الآن؟».

وفجأةً باغتني صوتُ زوجة أخي وهي تقول له: ««صالحة» يجب أن تذهب إلى أخيها «سالم» قبل أن تمرض.. أشعرُ أن هذه العمياء ستجلبُ لنا المتاعب، وقد رأيتُ في وجهِها علاماتِ المرض، لأنها تخرجُ للرَّعْي من دون عِلمِنَا».

يجيبها أخي: «لكن «صالحة» اعتادت على حياة الرَّعي منذ صِغَرِها، وهي تعرفُ جميعَ شؤونه».

- «لكنَّها الآن مريضةٌ، عليك أنْ تعجِّل بمغادرتها، وتتصل بـ«سالم» ليأخذها.. أنتَ تعرف أن وضعنا لا يسمحُ بتحمُّل تكاليف علاجها».

حينها، شعرتُ بألمٍ شديدٍ في صدري وصعوبة في التنفُّس، وأخذتُ أبكي وأدعو: «يا ربّ، عجّل بمنيَّتي».

وفجأةً يتناهي إلى مسامعي صوتُ الجِنِّيَّة، «نرجس»، تقول: «أطالَ اللهُ عُمرَكِ.. نحنُ نُحِبُّكِ.. ونسمع محاضراتك عندما كنتِ تسجّلينها

وتقلِّدين صوتَ المُذِيع وأنتِ لا تشعُرِين بنا».

- «هل سأكونُ كليمةَ الجنِّ؟!».

- «هناك مَنْ يريد أن يسمعُكِ ويستفيدُ منك.. أختي أريدها أن تسمعك».

- قلت لها وأنا أمسح دموعي: «حسنًا، في الغد».

ثم ناديتُ: ««نرجس» .. «نرجس» هل لا زلتِ هنا» .. لكنَّني لمْ أسمعْ لها صوتًا».

وفي الصباح، بعد أن أدَّيتُ صلاتي، قلتُ في نفسي: يجب أنْ أعدَّ حقيبة ملابسي، فسيحضر أخي «سالم» ويأخذني إلى بيته.. وفي أثناء ترتيبي لها مع بقيَّة حاجياتي، إذا بصوت «نرجس» يقول: ««صالحة»، هل تناولتِ فَطُورَكِ؟ وهل أنتِ مستعدةٌ لتحدِّثينا عن أي موضوع؟».

قلت لها: «الآن سأتناول وجبة الإفطار، وبعدها سيأخذني أخي «سالم».. لكني سألقي لكم المحاضرة لاحقًا» .. لكنها لمْ تُجِبْني .. ناديتُها: ««نرجس .. نرجس»!» فلمْ أسمعْ لها صوتًا.

قلتُ في نفسي: هناك من يريد أن يستمع إليَّ ويستفيد مني، فلماذا الخوف؟ لكن ليس هنا .. سأخرج إلى الوادي وهناك سأجتمع بهم .. لكنْ سأخبر أخي وزوجته أنني سأنتظر مجيء «سالم» هناك في الوادي .. ثم بدأتُ بالدعاء وتلاوة بعض الآيات التي أحفظُها.

خرجتُ من المنزل وتوجَّهتُ نحوَ الوادي، حينها شعرتُ بالخوفِ يتابني، وأنَّ قَدَمَيَّ ترتجفان، لكنَّني استجمعتُ شجاعتي وواصلتُ السَّير.. وأنا أُحدِّثُ نفسي: «هم في النهاية مخلوقات مثلُنا، خلقها الله.. وعند وصولي إلى الوادي.. تربَّعتُ على الصخرة الكبيرة، أُحازِي وألتقط أنفاسي، فإذا بصوتِ «نرجس» يهزُّ كياني، قائلة: «هيا ابدئي، فالكُلُّ هنا موجود، وأختي «عاشقة» أيضًا هنا».

وعندما بدأتُ الحديثَ معهم، شعرتُ بأنهم جميعًا متفاعلون معي.. وبعدَ فترةٍ طويلةٍ من المحاضرة، سمعتُ صوتَ أخي «سعيدان» وهو يصيحُ من بعيد: ««صالحة»!» وعندها اختفتْ أصواتُ المتفاعلين معي، وكذلك «نرجس» .. وعندما اقترب منِّي، قال: «ماذا تفعلين؟!» فقلت له: «أكلِّم صديقاتي».

- ردَّ عليَّ وفي صوته استغراب: «أيُّ صديقاتٍ يا «صالحة» لا أحدَ هنا غيرُك!».

- «هناك أصوات لا يسمعُها أحدٌ، لكنَّها تسمعُني وتجلسُ معي».

- «هيا يا أختي، ربَّما الحُمَّى جعلتْكِ تتخيَّلين أنَّ هناك مَنْ يسمعك .. «سالم» ينتظرك.»

تَبِعْتُهُ وتوجَّهْنا إلى المدينة التي يعيشُ فيها أخي «سالم»، على الرغم من أنَّه لمْ ينتهِ أسبوعُ أخي «سعيدان».. غير أنَّني في كلِّ مرَّة أذهب إلى أحدهم، أشعرُ بأنَّ عُمري يتقدَّم كثيرًا، رغم أنِّي

أصغر إخوتي.. فأنا كالكُرَة يتداولونها بينهم.

انقضى الأسبوعُ ثقيلًا عليَّ، وأنا هنا أُحِسُّ أنَّني مُكبَّلة بالسلاسل.. وعندما حانتْ ساعةُ مغادرتي من المدينة إلى القرية التي تربَّيْتُ فيها، كانتْ سعادتي لا تُوصَف.. لكن ما يحزنني أنني أشعر أنني لا أجلبُ الفرحَ لأهل البيت الذين أقضي عندهم أسبوعي.

وفي صباح اليوم التالي، بعد صلاتي، ارتديتُ لباس الرَّعي، وأخذتُ عدَّتي، وخرجْتُ.. كان البيتُ ساكنًا.. أخذتُ الأغنام، وتوجَّهتُ نحو الوادي الذي أعشقُه، وأُحِسُّ أنه يشتاقُ لي ويفرح بقدومي.

وفي أثناء جلوسي أستنشقُ الهواء، وأتحسَّسُ الأغنام بكل جوارحي، إذا بصوت «نرجس» يقول: ««صالحة»، كلماتك غيَّرتْ من أسلوب حياة «عاشقة»، وأصبح الكلُّ راضيًا عنها، بل إنها تحفظ قصائدك التي أنا أحفظُها.. لذلك أحضرتُ لك هذه العُشبة من بعيد، من طبيب الجن «عنكر».. فقد سمعتُ أحدَهم مرَّةً يقول: إنك عندما كُنتِ صغيرةً كُنتِ تُبصِرينَ، وبعدَها تعرَّضْتِ للسقوطِ وفقدْتِ بصرَكِ.. هذه العُشبة عليكِ طحنها جيدًا وضعيها على عينيكِ، وسيعودُ إليك البصر.. ثم اختفى صوتها، بعد أنْ وضعتِ العُشبةَ في يدي.

أخذتُ أبكي وأنا أقول: «لا أريدُ أن أحلُمَ بالرؤية من جديد، رغم أنِّي أتمنَّى ذلك».. وعند عودتي إلى البيت، قمتُ بدقِّ العُشبة بالهاون المصنوعِ من النُّحَاس، ووضعتُها على عيني.. وبعد دقائق، شعرتُ بألمٍ فظيعٍ في عيني، فأخذتُ أقول لنفسي: «هذا جزاءُ مَنْ يتعلَّق بالأمل من عند الجن».. ثُمَّ قرَرْتُ غسلَ عينيَّ، فشعرتُ بثقلٍ غريبٍ في رأسي جعلني أبحثُ عن الوسادة، وأخذْتُ أغطُّ في نوم عميق.

لم أستيقظْ إلا على حرارة أشعَّة الشمس المتسلّلة إلى غرفتي.. نهضتُ مفزوعةً وأنا أقول: «المرَّة الوحيدة التي أستيقظ في مثل هذا الوقت!».. لكنْ... ماذا؟! إنِّي أرى!!.. هذا صندوق ثيابي!.. وأخذتُ أنظرُ إلى الأشياء مِن حولي.. أخذتُ أصيحُ وأنا أرتجفُ من شدَّة الفرح، فحضر أخي وزوجتُه.. اقتربتُ من أخي وصِرتُ ألمسُ وجهَه وأنا أقول: «أنا أراك جيدًا!.. أراكم جميعًا!.. سأتحرَّك ولن يمنعني أحد! سأعمل وأكسب المال، ولن أواصل التأرجح بين القرية والمدينة!.. شكرًا لك يا ربّ!» فعانقني أخي بحرارة وهو يقول: «الحمد لله.. لقد قسوْنا عليكِ يا أُختي، سامحينا».

وقفتُ عِندَ النافذة، أنظرُ إلى الزريبة، إلى الأغنام، إلى الحياة والضوء، والأفق الممتدِّ.. ابتسمتُ والدُّموع تنهمرُ على خدِّي، ثمَّ همسْتُ: «شكرًا لك يا «نرجس» أيَّتُها الصديقة الوفيَّة.. يا أجملَ صوتٍ لمْ يسمعْهُ أحدٌ سواي».

انتحاب العاشق

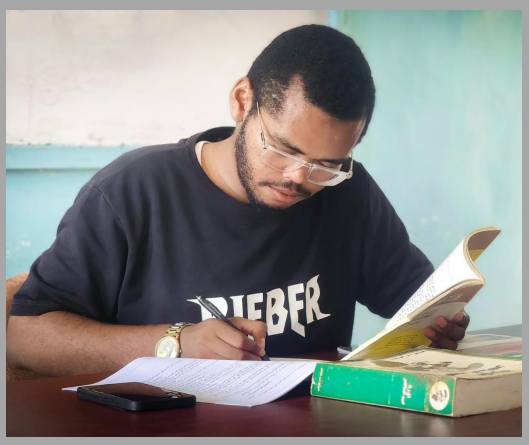

سالمين سعيد بنقح

بكت عيناكَ من ألمِ البعادِ
ونارُ الشوقِ تلهبُ باتقادِ

تُراقبُ أنجمًا بالليل تبدو
لِتُطفئَ نارَ شوقٍ بالفؤادِ

وتبكي كلما هَبت جَنوبٌ
فقلبك لم يزل للوصلِ صادي

سلامُ الله يا ليلى عليكم
سلامُ الثابتين على الودادِ!

أُحبّكِ فالفؤادِ بكم معنًى
فجودي باللقا يحيا فؤادي

فأنتِ حبيبتي وأنا مشوقٌ
وحبكِ في الحشا خافٍ وبادي

فإن لم تسعفِ صبًا حزينًا
سيبقى دائمًا رهن الحدادِ

وقولي للورى قد ذاب عشقًا
لفرط الوجدِ يبكي في البلادِ

إذا عيني فديتكِ لم تراكم
ستبقى في حجيمٍ من سُهادِ

مناي ومطمعي وصلٌ لأشفي
فؤادًا ذاب من ألمِ البعادِ

بُعيد فراقكم يا طب قلبي
رأيتُ الصُبحَ أشبهُ بالسوادِ

وولى السَعدُ يا أملي فهذي
جفوني لم تذق طعم الرُقادِ

كأنّ العينَ بعدكِ يا مُناها
ممزقةٌ بشوكٍ من قتادِ

110
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

ذكرى أم
Mother

غريس بالي[1]
Grace Paley

ترجمة
د. أحمد محمد الجذع[2]

ذاتَ يومٍ حينَ كنتُ أستمعُ للمذياع، سمعتُ أغنيةَ: أوه، كم أتوق لرؤية أُمِّي في المدخل، يا إلهي! قلتُها، أنا أعرف ما تعنيه كلماتُ تلك الأغنية، كنتُ كثيرًا ما أشتاق لرؤية أُمي في المدخل، في واقع الأمر، لقد وقفتْ أُمي كثيرًا في مداخلَ متعدِّدةٍ تتفحَّصني، وقفتْ ذاتَ يومٍ عندَ البابِ الأماميِّ وكانَتِ الرَّدْهَةُ المُظلِمَةُ خلفَها، كانَ يومَ رأسِ السَّنة الميلاديَّة الجديدة، وقالتْ بصوتٍ حزينٍ: إذا أنتِ عُدتِ إلى المنزلِ عندَ الرابعةِ فجرًا وأنتِ لمْ تتجاوزي السابعَ عشرَ ربيعًا، ففي أي وقتٍ ستعودين إلى المنزل عندما تبلُغِين العشرين؟ وجَّهتْ هذا السؤالَ مِنْ دُونِ إبداءِ سُخريَةٍ أو خَبَاثَة، لقدِ استشعرَتْ أنَّها قد بدأتْ تتأهَّبُ لأُمُورِ الموتِ المُقلِقَةِ، وأنَّها لنْ تكونَ حاضرةً عندما أبلغُ العشرين من عمري، لذلك هي تساءلتْ.

وفي مرَّةٍ أخرى وقفتْ عِندَ بَابِ غُرفَتِي، كنتُ قد أصدرتُ للتوِّ بيانًا سياسيًّا يُهاجِمُ موقفَ الأسرةِ من الاتحاد السوفيتي. فقالتْ آمرةً: لربِّكِ اخْلُدِي للنَّوم أيَّتُها الحمقاء، أنتِ وأفكاركِ الشيوعيَّة، ولكنَّنا رأينا تلك الأفكار بالفعل تتحقَّق، أنا وبابا في عام ١٩٠٥م، لقد خمَّنَّا كُلَّ شيء.

وقالتْ مرةً عِندَ بَابِ المطبخِ: أنتِ لا تُنهِينَ غداءَكِ أبدًا، وتَركُضِينَ هائمةً على وَجهِكِ، ماذا سيحدُثُ لَكِ؟

ثُمَّ ماتَتْ.

طبعًا كُنتُ في بقية حياتي أشتاقُ لرؤيتها، ليس فقط في المداخل، ولكنْ في أماكنَ كثيرةٍ أخرى – في غُرفَةِ الطَّعامِ معَ عمَّاتي، وعِندَ النافذةِ وهي تنظُرُ إلى جادَّةِ الطريق، وفي الحديقةِ العامَّةِ بينَ وُرُودِ الزينيات والقطائف، وفي غرفةِ المَعِيشَةِ مع والدي.

كانا قد جلسا على كرسِيَّيْنِ مُريحَيْنِ من الجِلد، وكانا يستمعان إلى موزارت، نظرَ أحدُهما إلى الآخر والدَّهشَةُ بادِيةٌ عليهما، لقد بدا لهما أنهما قد جاءا للتَّوِّ على مَتنِ قارب، أو أنَّهما تعلَّما الكلماتِ الإنجليزيَّةَ الأولى لهما، لقد بدا لهما أنه قد سَلَّمَ ورقة الامتحان بإجابات صحيحة ١٠٠٪ إلى أستاذ علم التشريح الأمريكي، أمَّا لها فقد بدا الأمر كأنها قد تركت المحلَّ من أجل المطبخ.

كم أتمنَّى أنْ أراها في مدخلِ غُرفَةِ المعيشة.

وقفتْ أمي هناك للحظةٍ، ثُمَّ جلستْ إلى جانبِ أبي، كانَ لديهما مشغِّلُ إسطواناتٍ باهظُ الثمن، وفي أثناء استماعهما إلى باخ، قالتْ له: تحدَّث معي قليلًا، لمْ نَعُدْ نتحدَّثُ كثيرًا.

قالَ لها: إنَّني مُتعَبٌ، ألَا تستَطِيعِينَ أنْ تَرَيْ؟ لقد عاينْتُ رُبَّما ثلاثين مريضًا اليوم، وجميعُهم كانوا يتحدَّثُون طوال الوقت، ثُمَّ قالَ: استَمِعِي إلى الموسيقى، فأنا أعتقِدُ أنَّ لديكِ موهبةً فنيةً، أمَّا أنا فاعْذُرِيني فأنَا مُتعَبٌ.

ثُمَّ مَاتَتْ.

---

١ قاصة وروائية أمريكية
٢ أكاديمي ومترجم

هناك ينامون

قصة قصيرة

صالح سعيد بحرق

صَحِبتُ أبي ذات يوم لزيارة السبعة، في مدينة الشحر، وكنتُ أظنُّ وقتَها أنِّي سأقابل سبعة أشخاص، ولهذا كنتُ أُلِحُّ على والدي بقولي:

- أين هؤلاء السبعة؟ فيقول لي ويَدُهُ تفرك شعري:

- الآن ستراهم.

وهكذا رُحتُ اتبع أبي من شارع لشارع، ومن لعبة إلى لعبة، ومن تجمع لتجمع، وأنا أتخيَّل هؤلاء السبعة رجالًا طوالًا، ذوي لحى وشعر رأس كثيف، ولم أَعُدْ أبحث عن لعب الأطفال، إلَّا المراجيح التي كانت تعجبني.

كان أبي يردد أذكارًا وهو يمشي، ويمسح على شعري باستمرار، وكان يقول لي: هذه الدنيا ياولدي خدَّاعة، كن طيّبًا ولا تُؤذِ أحدًا.

فأقول له غير مبال:

- أين السبعة يا أبي؟ لقد تعبتُ

فيقول لي: تعال نشاهد العدة أوَّلًا، ويجذبني نحوه، ثم يزجُّ بي وسط جمع غفير، ويقول:

- ألا تسمع الهاجر؟

إنها زيارة السبعة

فأقول له:

- تقصد سبعة هواجر؟ فيضحك ملءَ شدقيه ويقول:

- لا. أصلحَكَ الله،

وأنا أنظر إلى صاحب الهاجر، وكان الزّحام كثيفًا، والناس متسمرون.

وفي لحظة انسجام أبي مع لعبة العدَّة تسلَّلتُ وتركتُ هذا الجمع، ونظرتُ إلى الشحر، كانتْ كلُّها ملأى بالعدد، والهاجر يُسمَع من هنا وهناك.

وتهت في الزحام، كانت نوافذ البيوت مفتوحة للغرباء، وقد دنت الفرحة من قلوب الخلائق، وأحسستُ أني قد فقدتُ أبي، فأخذتُ أبحثُ عنه وأتحاشى نظرات العجزة والمسنين، وأنتقل من بسطة إلى بسطة، وأنا أتساءل في نفسي:

- أين السبعة ؟

وما كِدتُ أتخطَّى ساحة العدَّة، حتى رأيتُ أبي يلوح بعمامته لي وينتشلني من هذا الجمع، ويقول لي:

- تعال الآنَ لكي تشاهد ا لسبعة .

كان رداءُ أبي ممتلئًا بالعرق، فسألته :

- ما هذا؟

فقال مازحًا:

- إنَّها العدَّة.

وقد رأيتُ بضع فتياتٍ، وبائعًا للماء، وبسطة المشبَّك والحلوى، ولم أشاهد السبعة بعدُ.

وفي الطريق قال لي أبي:

- هل شاهدْتَهُمْ؟

قلتُ في تعجُّبٍ: مَنْ؟

قال: السبعة.

قلتُ: لمْ أُشَاهِدْ أحدًا.

قال لي:

- ألمْ ترَ تلك القُبُورَ وسطَ ذلك الضريح؟

قلتُ:

- نعم

قال أبي بِأَسًى:

- هناك ينامون.

ثُمَّ غادرْنا الشِحرَ، في جوف الليل.

112
العدد (39)
يناير
مارس
2026م

مركز حضرموت ... مولود استثنائي

عوض سالم ربيع

يختلف الناس على ميلاد الإنسان ويتفقون على تأريخ الوفاة؛ لأنَّ الإنسان يُولَد ولا يُتكَهَّنُ بمصيره في قادم أيامه... ولأنَّ الأحداثَ صِنْوُ الميلادِ والوفاة فقد ولد مركز حضرموت للدراسات التأريخية والتوثيق والنشر في ٢٠ ديسمبر ٢٠١٥. في لحظة استثنائية أمنية فارقة لانرتئي الخوض في غمارها... تلك اللحظة هي بعض تأريخ حضرموت الأمني... والصحفي هو مؤرِّخُ اللَّحظة كما يقول الفرنسي إلبير كامو... فهل كان النَّاس في حضرموت على وفاق مع عالم الثقافة؟ حتَّى ولو كانت في وزن مركزٍ ثقافيٍّ سداه خدمة حضرموت ثقافيًا.. تراثيًا.. علميًّا. والسؤال هنا لماذا جاء هذا التوقيت وفي وضع أمنيٍّ بالغ التعقيد؟... لكنْ هذه الكلمة الاستدراكية ارتأى من خلالها شبابٌ وشُيوخٌ مثقَّفون، قارئون... أن يُشعِلُوا قنديلًا في العَتَمة فهلْ حملوا ذلك القنديل كديوجين، ذلك الحكيم الذي حمل قنديلَه ظَهْرًا بحثًا عن الحقيقة؟! أو كقنديل أُمِّ هاشم ليحيى حَقِّي... وقد جاء الطالبُ المصريُّ من فرنسا وقد ترك العِلمَ الحديثَ ليعالج الناس بقطراتٍ من زيتِ قنديلِ أمِّ هاشم... لكنَّ قنديل مركز حضرموت يختلفُ عن تلك القناديل التي تضيئُ لمن... قنديل مركز حضرموت أشعلَ ضوءًا في بالي بأندنوسيا... في جاوة... وتمَّ استقصاءُ عيشِ علي أحمد باكثير في الأرخبيل الإندونيسي... إذن فالثقافة ذات عُمقٍ واتساعٌ قَارِيٌّ (بضمتين فوق الياء)... وفي ظلِّ انعدام ورقيَّة المجلات أعاد لنا هذا المركز رائحة الورق من خلال حضرموت الثقافيَّة ومخرجها البهيج... تلك الرائحة التي رُبَّما اتفقتْ مع رائحة د. محمد المخزنجي في قصَّته (رائحة الشمس) حين تُعانق ثيابُه الفوَّاحة رائحةَ الشَّمس، وقد نشرتْها أُمُّه على حبل الغسيل... هنا يكمنُ عُمقُ الانتماء حين تَضُوعُ الثقافةُ عطرًا. وأقصد بالثقافة العمق الجاد والالتصاق بالأرض والإنسان والجماد. ألمْ يتخذِ المركزُ من السقاية شعارًا له؟... لكنْ ما رمزيَّةُ السِّقايةِ شعارًا للمركز؟... لعلَّها من وجهة نظري مكانني ظمآنُ بتعبير أيوب طارش... ذلك أنَّ الثقافة تَرِيٌّ (بكسر الراء) حلق العاطش كأنني عطشان وشربت. ثمَّ إنَّ مركز حضرموت لم يكُ أبتر؛ فقد كان يوم العاشر من رمضان من العام المسيحي ٢٠٢٤ ميلاد منتدى الوفاء، تمَّ تدشينُه بهُوِيَّةِ حضرموتَ الثقافية... إذن فهذا المنتدى حضرميُّ الهوى والهُوِيَّة، واستمرَّ بعطاءٍ غيرَ مَجْذُوذٍ إلى يوم النَّاس هذا... فهل كانت جُلُّ الإنجازات هذه وليدةُ اللحظة؟... ذلك أنَّ اللحظات هي في الأصل تخطيطٌ، مع أنَّ اللحظة وَمضةٌ عابرة. هذا التخطيط كان ولادةَ فكرةٍ كانت متأصِّلة وقد ومضت في الأخاخ... فولدت فكرة مركز حضرموت للدراسات التأريخية والتوثيق والنشر كقافية الشعر التي لا يملك شاعرُها كيف جاء هذان الحرفان الرَّوِيُّ والقافية... هي لحظةُ ولادةٍ لا تَملِكُ لها زمنًا. لهذا جاء ميلاد المركز في لحظة زمنيَّة لا يملكُها هو... وإنْ ولد في ديسمبر ٢٠١٥... في زمنٍ استثنائي أمنيّ بحضرموت، فالمرءُ لا يَملِكُ اختيارَ اسمه، وُلِدْنا وأسماؤنا موجودة... لهذا فإنَّ ميلاد مركز حضرموت لمْ يكُ من اختيار منشئيه تأريخًا، ولكنْ لأنَّ لحظة الميلاد قد اقتربت...

قصر المنيصورة بتريم

حمزة بن يحيى

مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

HADHRAMUT CENTRE
FOR HISTORICAL STUDIES DOCUMENTATION AND PUPLICATIN

من إصداراتنا